فرانتس كافكا

Telegram:@mbooks90

استعدادات لعقد قران في الريف وقصص اخرى

ترجمة: الدسوقي مهمي

◆ المؤلف: فرانتس كافكا

◆ العنوان: استعدادات لعقد قران في الريف وقصص أخرى

◆ ترجمة: الدسوقي فهمي

◆ طبعة آفاق الأولى 2019

◆ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

◆ مستشار النشر: سوسن بشير

◆ المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:

٢٠١٨ / ٢٠٥٨٣

الترقيم الدولي: ISBN

978 - 977 - 765 - 193 - 6

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced، stored in a retrieval system، or transmitted in any form، or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

عن هذه القصص

من بين العديد من ملامح وميزات وخصائص كتابات فرانتس كافكا الإبداعية، تبدو ميزتان من تلك الميزات تتفردان في وضوحهما واستجابتهما لإشباع حاجتين إنسانيتين:

أولاهما: أنها تلبي المطلب الأزلي الذي يتجدد في إلحاح، وهو الحاجة إلى المشاركة في حرية مع (الداخل) الكامن في أغوار وعي الإنسان، ذلك (الداخل) الذي لا حدود له، والذي يصطرع فيه (الحلم) مع (الأسطورة).

وثانيهما: أن كتابات كافكا تعي بذلك الحاجة أو المطلب الآخر الذي كان قد أطلق عليه منذ آلاف السنين اسم (الحداثة) أو (الحديث)، والذي يفرض علينا عدم إغفال طبيعة (العالم الخارجي)، حيث يسود غموض وابهام ما يعرف بـ(القدر الأعمى)؛ أو بمعنى آخر أن على المرء أن يبقى يقظًا دائمًا وبلا (أوهام).

Telegram:@mbooks90

ولقد أطلق على كافكا لهذا، وبحق، صفة (الكاتب الواقعي للأساطير)؛ فهو ينتمي إلى عالمين، هما عالم الأسطورة، وعالم الواقع اليومي، ففي الأسطورة تعيد (روح) الإنسان اكتشاف صياغة (شعرية الممكن) الأزلية، وتصوغها بالفعل على صورتها.

حتى الاستغراق في المحظور الرومانسي الذي قد يتمثل في صياغة الروح لقوانينها هي الأسطورية الخاصة بها، في مواجهة قوانين (الطبيعة)، يستفيد كافكا في إنجازه من الرصيد الشعري الموغل في القدم، وذلك باستخدام مشاهد الطبيعة، وتفاصيل الواقع لكي تقوم جميعًا بأداء دور الرموز التي تشير إلى (حالات) العقل؛ البيوت والحجرات كرموز للشخوص، وناس وحيوانات تمثل

رموزًا تشير إلى وجهات نظر الذوات الشخصية لتلك الشخوص، وتؤدي كذلك وظيفة تمثيل (القدر)، حيث تقوم الشخوص بتمثيل الوجه الآخر.

كل هذه الخصائص والميزات التي احتفل بها (السيرياليون) على نحو خاص بهم، واستخدموها على أنها اكتشافهم الجديد، وقاموا بصياغتها على أن تكون رؤية جدل ونقاش لصيغة إبداعهم، في إطار إنجاز ما هو (حديث) عامدين بذلك إلى مواجهة (معارضة) عالم الواقع (القديم) توجد كلها بين ما تضمه إبداعات كافكا المتفردة في تناول أصعب القضايا، وفي صياغتها بروح جادة للغاية، وعابثة ساخرة في وقت معًا، وفي لهجة مرح خفيفة الظل، موغلة في الذكاء. وتقدم قصص كافكا هنا، روح هذا الخبث المرح الذي يتصنع الجد، ويتغلّف من الخارج بالموضوعية.

فنجد أنفسنا عند أساس (الكينونة) -الوجود- في قصتي كافكا (المسخ) و(استعدادات لعقد قران في الريف)، اللتين تتصفان بصفة تجمع بينهما، وهي الرغبة في التراجع والاعتزال، وتمثلان في الوقت نفسه عكس ذلك الاعتزال ونقيضه، وهو محاولة أن يكون للذات الخالصة في كل منهما السيطرة على العالم، من خلال التواجد التطفلي (العالة) على الغير الخارجي (السحري)، وأن تتطلب هذه الذات لنفسها الحياة في حالة من حالات الاضطرار الوجودي، الذي يحرر النفس من كل الجهد، ومن بؤس المسؤوليات والالتزامات البرجوازية.

وبهذا يكون المسخ في كلتا القصتين هو اتحاد لتناقض؛ إنه يكون في وقت معًا تنازل عن (التواجد الملتزم)، ويكون في الوقت نفسه هو نسمة الحياة الكونية التي تهب (إلى داخل) نافذة حجرة (رابان) في قصة (استعدادات لعقد قران في الريف).

ويلفت الناقد (بينو فون فيزه) الانتباه إلى حالة (وعي) منقسمة في قصة (المسخ)؛ (فالمسخ) في رأيه هو أزمة وجود تشير إلى انقسام بين (الوعي) و(اللاوعي) في حالة (جريجور)، ويتحقق بذلك في شكله الفعلي الذي يتمثل في (حالة الوعي البشري) في داخل (حشرة)؛ كما يتمثل هذا (الشكل) -الفورم- في لوحات الفنان (تيتوريللي) في رواية كافكا (القضية)، والتي يقوم فيها (تيتوريللي) بتصوير (مناظر خلوية) لا تقدم سوى (أراضٍ بور). ويشتري منه (يوزيف ك.) بطل رواية القضية ثلاث لوحات (للخراب) أو (الأرض الخراب) من مرسمه (في الرواية).

وتجسد (جريته سامسا) شقيقة جريجور قسوة انتصار الحيوية عندما تتمطى في نشوة بجسدها الغض في السطر الأخير من قصة (المسخ)، وهو (الانتصار) الذي يمثله التباين المطلق بين (الفهد) الذي يتوهج حيوية في قفص حديقة الحيوان، بدلًا من (فنان الـ«جوع») الذي يتمثل في موت (الفنان) داخل القفص متلاشيًا في ثنايا القش الذي يملؤه.

ويصف الناقد (هيزلهاوس) قصة (المسخ) بأنها قصة (خيال مضادّ) بدائي، وأنها تقدم تقريرًا عن (الحياة) في العالم، كما لا يجب أن تكون.

وفي رسالة لكافكا من (براغ) بتاريخ 25 أكتوبر 1915، ردًا على رسالة مسؤول النشر «ج. هـ. مييـر» لدار (كورت فولف) الذي صرّح فيها لكافكا بأن الفنان القدير جدًا (أوتومار شتاركه) سيكون على استعداد للقيام برسم لوحة الغلاف للطبعة الأولى، لقصة «المسخ»، (الرسائل 1924 -1902 ص135)، ورد فيها ما يلي:

«سيدي العزيز، كتبت إليّ أخيرًا بأنّ (أوتومار شتاركه) سوف يقوم برسم صفحة العنوان لطبعة قصة (المسخ). وبالتأكيد وبقدر معرفتي بمقدرة (نابليون) انتابني بعض الجزع؛ قد لا يكون جزعًا يفتقر غاية الافتقار إلى ما يبرر ضرورته، ذلك أنه تحديدًا، بما أن (شتاركه) يبرع في رسمه جيدًا، فمن الممكن أن يرغب في رسم الحشرة نفسها. لا، أرجو، لا يكون ذلك! إنني لا أريد تقييده، حقًّا، إلا أنني تحديدًا أطلب هذا الطلب، من رؤيتي «طبعًا» النابعة عن معرفتي الأفضل بالقصة. إن الحشرة نفسها لا يمكن أن يجري رسمها على الغلاف، إنها لا يمكن لها أن تعرض ولو من على البعد البالغ».

وبهذا لم يضم الغلاف الذي رسمه (شتاركه) حشرة، بل «إنسانًا» في هيئته الإنسانية، وإن تكن معتمة للغاية بتفاصيلها الغامضة، وتبدو القاعة كلها معتمة هي أيضًا، على أرضية بيضاء، وخلفية مضيئة، ويشير هذا «الغلاف» إلى بُعد هام، هو أن دلالات قصة (المسخ) لا تخص راوي القصة (جريجور سامسا) نفسه، أو على الأقل لا تخصه وحده، فليس هو وحده المقصود بهذا الحدث الذي تقدمه القصة، وكأن ما حدث لجريجور هو مجرد حادثة عبثية لا معقولة من عالم الخرافة، بل هي دلالة تعبيرية واقعية تتضمن بعدًا نفسيًا، أو أبعادًا (داخلية) هي (انقسام بين الوعي واللاوعي)، وأن من يتعرضون للمسخ، في نمط حياتهم البرجوازية المهمومة، هم بلا حصر، في كل عصر، وفي كل مكان.

الحشرة (رابان) في قصة (استعدادات لعقد قران في الريف)، و«الخنفساء» في «المسخ» (جريجور سامسا).

فجريجور في (المسخ) لا يستطيع مطلقًا أن يتوافق مع الرغبة في (المسخ)؛ لأنه محتفظ «بوعيه» البشري، ولا يتيح له (وعيه) أيّ سلام، ولا بد له من أن

يتحمل هذا الإدراك الأعمق ككارثة تحيق به، مندفعة نحوه من (خارجه)، كنازلة ومصيبة نزلت به، لا تحقيقًا لرغبة أو إشباعًا لاعتزال، أو تنازل عن إنسانيته، أو تحققًا كما يتمثل ذلك بالنسبة لـ (رابان) في (استعدادات لعقد قران في الريف)، وعلى هذا فإن (رابان) هو (حشرة) جميلة (فراشة مثلًا) وهو يحن إلى مسخه كتحقق، وكإشباع، بينما التحقق في قصة (المسخ) عند جيجور يظل (تحققًا) لا واعٍ، لا يتفق مع «وعي» جريجور، ومع «تفكيره» المدرِك الذي يظل متصلًا إلى ما قبل النهاية...

وهنا تكمن مبررات قذارة حجرة جريجور، وعالمه الذي يذكرنا بفعل (الكينونة) -الوجود- فعل (يكون) في اللغة المصرية القديمة، وهو يكتب بصورة «الجعران» الذي ينطلق بحروف أربع -في طفولته- هي «خبري»، والذي يخرج من المياه عند شروق الشمس (زاحفًا) نحو (النور) و... دائمًا يدفع أمامه (كرة الروث)= (هموم الوجود؟) التي لا تفارقه، فهي الحياة بكل انشغالاتها، يدفعها أمامه دائمًا طوال حياته، ويتبعها، يسير خلفها، وتتجدد يوميًا عند كل شروق (استيقاظ جريجور) مع أن جرس المنبه لم (يرن)، ولا حياة لشيء إلَّا في وجود (الضوء) الساطع، الذي أكَّد الفنان (شتاركه) سطوعه، حيث يتخذ (الوجود) شكله الذي يعين ويحدد كينونته.

أما (رابان) فيقول:

«سوف أرسل جسدي مرتديًا ثيابه، ليذهب مترنحًا، متعثرًا فوق درجات السلم، في طريقه إلى القرية لعقد القران بدلًا مني، بينما أبقى أنا هنا مستلقيًا في فراشي..».

يحن (رابان) إلى (مسخه) أو (اعتزاله) كتحقق دون أي جهد، ولهذا فإن (رابان) حشرة جميلة.. على عكس (جريجور)، فهو حشرة كريهة مثيرة للاشمئزاز؛ لارتباطه بقمامته المكومة في داخل حجرته (همومه أو قمامته)، وحرص شقيقته على أن تتركه يرتع في انشغالاته التي تعذب وعيه، اليقظ لا يزال، رغم كل ما حدث له.

(فالمسخ) في كلتا القصتين يمثل (الانسحاب) -الاعتزال- الذي هو رفض للحياة المهمومة المستلبة في حياة المجتمعات القائمة على الاستغلال، وفي إطار النظم التي تسحق (الفرد) نفسيًا وجسديًا.

كما يشير تعبير (روسيا) الذي يعادل برودة المنفى والوحدة والاغتراب والصقيع الإنساني، كما يتمثل في قصة (الحكم).

وتشير صورة (المرأة) التي ترتدي (الفراء) بنعومة ملمسه، وفوق (فراش جريجور)، والمنتزعة من إحدى المجلات المصورة، إلى طبيعة أحلامه المضطربة التي قام منها ممسوخًا، وهي أحلام ذات طابع إيروتيكي، يشير إليه (الفراء) النسائي بالطبع، ويقدم تنويعًا على رمز (القطة، أو أبو الهول)، وهي إحالات تدعم الغموض والألغاز.

قصص... فنان جوع، امرأة صغيرة، أول حزن، الصيّاد جراكوس (شذرة) اغتيال أخ: نشر هذه القصص الخمس (جمال الغيطاني) في (ملف) بجريدة (أخبار الأدب) العدد (341) بتاريخ 23/1/2000 مصحوبة برسومي لها.

ونشرت في (أخبار الأدب) في العدد (314) بتاريخ 18/7/1999 قصة (الصياد جراكوس) مصحوبة برسمي لها.

وفي العدد (248) من (أخبار الأدب) نشرت قصتا: عن الأمثولات، الاختبار.

وفي العدد (359) من (أخبار الأدب)، وفي (ملف خاص) نشرت سبع قصص مصحوبة برسومي لها وهي قصص: وكيل الدعاوى الجديد، بوزايدون، مشكلة قوانيننا، تقع مدينتنا، والعقيد الإمبراطوري، في النُّزُل، وبناء مدينة.

وفي العدد (75) يناير 2014، من مجلة (الدوحة) في عام 2014 نشرت قصة (الحيوان في المعبد).

ولأهمية الرسم المصاحب للكتابة الإبداعية، بدءًا من البرديات المصرية القديمة برسومها الملونة التي يستحيل مطلقًا أن تُبارى، لا في قيمتها الفنية فحسب، بل أيضًا في عراقتها وقدمها، واتصال ذلك الإبداع على مستوى العالم كله، وعلى امتدادات الزمن والأمكنة، وحتى عهد (نابليون) بفتوحاته الفنية والأدبية والإبداعية المتعددة، وهو الفنان (أوتومار شتاركه) الذي صوّر غلاف (المسخ) للطبعة الأولى عن دار نشر (كورت فولف) عام 1916، ومنذ عام 1916 قام برسم أغلفة وكتب كتاب من أمثال (شتيرنهايم)، و(ستندال)، و(جوته)، و(سترندبرج)، و(دوستويفسكي)، و(تولستوي)، و(جريلبارتسر)، كما رسم أغلفة رواياته وكتبه هو نفسه، ونقدم منها مع غلاف (المسخ)، رسمه لغلاف كتابه «الشركة الجديدة. ورسم في المجلات الأدبية، وكتب سيرته الذاتية، وعديدًا من القصص «البوليسية» حتى، كما كتب (المسرحيات) والتمثيليات الإذاعية و(الكوميدية منها)، كما عمل كمترجم، وكان قد عمل قبل ذلك مصممًا للمناظر والمشاهد المسرحية في ميونيخ، فرانكفورت أم ماين، دار مشتاد، وفرايبورج، وكان قبل ذلك كله قد عمل فنانًا لفن (الحفر) وفنون الطباعة، بعد تخرجه في

مدرسة المهن الفنية الملكية في ميونيخ. كما أقام معارض فنية خاصة به، ففي عام 1920 أقام بالمشاركة معرضًا لأعماله الفنية في جاليري (أفريد فليشتهايم)، ثم عرض بعد ذلك، في نفس الجاليري معرضًا خاصًا بأعماله وحده، ثم انتقل للحياة في باريس عام 1925، وكان على علاقة فنية بفناني (كافيه دي دوم)، وامتدت نشاطاته، وعلى الرغم من عضويته في أهم الاتحادات والنقابات الفنية منذ عام 1933، فقد تمت مصادرة (خمس لوحات من أعماله) في حملة «الفن المنحل» التي شنها النازي ضد الإبداع الفني عام 1937، لهذا لم يكن تصويره وفهمه لدلالة غلاف قصة «المسخ» أمرًا يستند إلى خلفية وخبرة فنية أقل عمقًا واتساعًا من خبرة وتاريخ (نابليون) «أوتومار شتاركه».

الدسوقي فهمي

استعدادات لعقد قران في الريف

الصيغة الأولى (أ)

(1)

عندما تقدم إدوارد رابان نحو مدخل الباب المفتوح، في سيره على امتداد الدهليز، رأى أن الدنيا كانت تمطر، لم تكن تمطر كثيرًا.

وفوق الرصيف أمامه مباشرة، كان كثير من الناس يسيرون في إيقاعات مختلفة، وبين كل حين وآخر، يخطو أحدهم إلى الأمام ويعبر الطريق. وكانت بنت صغيرة تحمل كلبًا صغيرًا متعبًا فوق يديها الممدودتين أمامها، وسيدان كانا يتبادلان معلومات، أحدهما كان يرفع يديه، بكفيه إلى أعلى، رفعًا وخفضًا لهما في حركة منتظمة، كما لو كان يقوم بموازنة حِمل يحمله، ثم التقط أحد الناس مرأى سيدة كانت قبعتها مثقلة بما تحمله من الشرائط والحليات والأزهار، وعلى شكل الإبزيم. وكان يسرع في الطريق العكسي شاب يمسك بعصا رفيعة للسير، ويده اليسرى كأنها مشلولة مفرودة فوق صدره. وبين الحين والآخر وفد بعض رجال كانوا يدخنون، تتحلق ممتدة أمامهم سحابات دخان أفقية صغيرة مستطيلة، وثلاثة من السادة -اثنان منهم كانا يمسكان بمعطفين خفيفي الوزن فوق ساعديهما المعقوفين- يسيرون مرات عديدة متقدمين من داخل البيوت إلى حافة الرصيف، يمسحون بنظراتهم ما كان يحدث هنالك، ثم ينسحبون ثانية، وهم يتحدثون.

وخلال الفجوات التي بين المارّة، كان باستطاعة المرء أن يرى الأحجار

المرصوفة بانتظام لطريق المركبات... هنالك كانت المركبات تنجر في طريقها بواسطة خيول مشرئبة الأعناق، مركبات ذات عجلات دقيقة مرتفعة، وقد حدس الناس الذين في راحة فوق المقاعد المنجدة صامتين في المارة، والمحلات التجارية، والشرفات، وفي السماء. ولو حدث أن لحقت إحدى المركبات بمركبة أخرى، فإن الخيول عندئذ سوف تضغط نفسها أحدها إلى الآخر، وسوف تتدلى معلقة من طقم الفرس، والخيل المشدودة إلى عريش العربة التي تنطلق إلى الأمام مسرعة في خفة، تتمايل بينما تتزايد سرعتها، إلى أن يكون الانحراف قد أدار المركبة حول نفسها، إلى الأمام، وتتحرك الخيل متباعدة، فقط تكون رؤوسها الضيقة الهادئة قد مالت أحدها نحو الآخر.

أسرع بعض الناس قادمين نحو المدخل الخارجي، وتوقفوا على الرصف الحجري المنقوش الجاف واستداروا ببطء، توقفوا محدقين في المطر الذي تساقط مشتتًا مقتحمًا في اضطراب داخل هذا الدرب الضيق.

أحس رابان بالتعب، كانت شفتاه شاحبتين، في لون رابطة عنقه الحمراء الباهتة التي كانت ذات طراز مغربي. وكانت السيدة التي هناك عند عتبة الباب، والتي كانت حتى الآن تتأمل حذاءها، الذي كان مرئيًا في وضوح تحت ردائها المشدود على جسدها بإحكام، تطلعت إلى رابان الآن، تطلعت إليه بلا مبالاة، وربما كانت على كل حال تتطلع فقط إلى المطر المتساقط أمامه، أو إلى اللوحات المعدنية للشركات، والتي كانت مثبتة إلى الباب فوق رأسه. ظن رابان أنها تتطلع مندهشة، وتَفَكَّر فيما بين نفسه: «حسنًا، لو كان باستطاعتي أن أخبرها بالحكاية كلها، فسوف تتوقف عن دهشتها. إن المرء يستغرق في العمل على هذا النحو المحموم، حتى يكون قد أصبح فيما بعد متعبًا للغاية، ولا يمكنه لذلك أن يستمتع

بإجازاته كما ينبغي. لكن حتى كل هذا العمل لا يمنح المرء حقًا في أن يلقى الحب في تعامله مع أي شخص، بل على العكس، يكون المرء وحيدًا، غريبًا كل الغربة، ومجرد شيء فقط لإثارة الفضول. وما دام أنك تقول (المرء) بدلًا من أن تقول (أنا) فلا شيء في ذلك، ويمكنك بسهولة أن تسرد الحكاية، لكن بمجرد أن تسلم بأنه هو أنت نفسك، فإنك تشعر كما لو أنك قد أصابك الشلل، ويصيبك الرعب».

وضع الحقيبة أرضًا بغطائها القماشي الأنيق، ثانيًا ركبته وهو يفعل ذلك، وكان ماء المطر يجري بالفعل على امتداد طريق المركبات، في خطوط متصلة بلا انقطاع، كادت على الأغلب تمتد حتى تبلغ البالوعات المنخفضة.

لكن لو أنني كنت أنا نفسي أميّز بين (واحد) وبين (أنا)، فكيف لي أن أجرؤ على الشكوى فيما يتعلق بالآخرين؟ ربما لا يكون أسلوبهم في التعامل عادلًا، إلا أنني متعب للغاية، حتى يمكنني إدراك هذا كله. أنا متعب غاية التعب حتى إنني لا يمكنني السير كل الطريق المؤدي إلى المحطة بلا مجهود، وهي فحسب مجرد مسافة قصيرة. وعلى هذا فلماذا لا أبقى في المدينة طوال هذه الإجازات القصيرة حتى أتعافى؟ كم أفتقر إلى التعقل!

إن الرحلة ستؤدي بي إلى المرض، أعلم هذا كل العلم، ولن تكون حجرتي مريحة إلى حد كافٍ، ولا يمكن خلافًا لهذا، في الريف، ونحن الآن لا نكاد نكون في النصف الأول من يونيه، والهواء في الريف يكون باردًا جدًا على الأغلب لا يزال. ولقد اتخذت احتياطاتي فيما يتعلق بثيابي بالطبع، لكن سيكون عليّ أن أختلط بالناس الذين يخرجون للمشي، في وقت متأخر من الليل، وتوجد برك موحلة هناك، وسوف يذهب المرء للمشي على امتداد هذه البرك، وسأكون متأكدًا عندئذ من الإصابة بالبرد. وسوف لا أحرز سوى القليل من التوفيق في

المحادثة، ولن أكون قادرًا على مقارنة البركة ببرك أخرى في بلاد أخرى قاصية؛ لأنني لم أرحل قط من قبل. والحديث عن القمر، والإحساس بالرضى، والصعود منتشيًا فوق أكوام من كسر أحجار الدبش، هو في النهاية شيء لا أجدني مع تقدمي في السن، من الممكن أن أفعله دون أن أكون عرضة لضحكات السخرية.

كان الناس يمرون برؤوسهم محنية إلى حد ما، فوقها كانوا يحملون مظلاتهم القاتمة بقبضة متراخية، مرت أيضًا سيارة نقل واطئة، وعلى مقعد السائق، الذي كان محشوًا بالقش، كان يجلس رجل ساقاه ممدودتان ومنفرجتان بإهمال بالغ، حتى إن إحدى قدميه كانت تكاد تلمس الأرض، بينما قدمه الأخرى تستقر في ثبات فوق القش والخرق. بدا كما لو كان يجلس في أحد الحقول في جو صحو، إلّا أنه كان يمسك بالعنان في انتباه، حتى إن عربة النقل التي كانت تحمل قضبان الحديد التي كانت ترن في ارتطام أحدها بالآخر، استطاعت أن تشق طريقها بأمان خلال حركة المرور الكثيفة. وفوق أرضية الطريق المبتلة كان باستطاعة المرء أن يرى انعكاس صورة قضبان الحديد تتلوى وهي تنزلق ببطء من صف من صفوف حجارة رصف الطريق إلى الصف التالي. وكان الصبي الصغير الذي بجوار السيدة التي كانت تواجه ذلك، يرتدي ملابس بائع خمر قديم، وثوبه الذي اتخذ شكل دائرة هائلة عند حافته السفلى، كان يكاد يرتفع إلى ما تحت الإبطين بواسطة سير من الجلد، وكانت قبعته نصف الكروية قد انكبست فوق حاجبيه، وتدلت منها شرّابة كادت تبلغ الأذن اليسرى. كان مسرورًا بالمطر، جرى منطلقًا خارج مدخل الباب، وتطلع إلى أعلى متسع العينين إلى السماء؛ لكي يلتقط مزيدًا من المطر، وغالبًا ما قفز عاليًا في الهواء حتى إن الماء أحدث طرطشة كثيرة، وحذره المارة بشدة، ثم نادته السيدة وأمسكته من يده بعد ذلك، إلّا أنه لم يبك.

وفجأة عاد رابان إلى وعيه، ألم يصبح الوقت متأخرًا؟ ولما كان قد ارتدى معطفه الخفيف، وسترته المفتوحة، أخرج ساعته بسرعة، لم تكن تعمل، وبارتباك سأل أحد جيرانه الذي كان يقف إلى الخلف أبعد من المدخل قليلًا: «كم هي الساعة؟» كان هذا الرجل مشغولًا في محادثة، وبينما كان لا يزال يتضاحك مع زميله، قال: «أكيد تعدت الساعة الرابعة»، واستدار مبتعدًا.

وبسرعة فرد رابان مظلته، والتقط حقيبته،، لكنه عندما كان على وشك أن يخطو إلى الشارع، كان طريقه قد شغلته عدة نساء في عجلة، وعلى ذلك ترك النساء يمررن أولًا. وبينما فعل ذلك نظر إلى أسفل إلى قبعة بنت صغيرة، كانت قبعة مصنوعة من قش أحمر اللون ذي ثنيات، وكان لها إكليل أخضر صغير على الحافة المموجة.

ومضى إلى الأمام متذكرًا ذلك حتى عندما كان في الشارع الذي مضى صاعدًا قليلًا أحد التلال في الاتجاه الذي كان قد أراد أن يتخذه، ثم نسيه، ذلك أنه الآن كان عليه أن يجهد نفسه قليلًا، لم تكن حقيبته اليدوية الصغيرة بالغة الخفة، وكانت الريح تهب ضده مباشرة، فتجعل معطفه يرفرف وتثني الأسياخ الأمامية لمظلته.

كان عليه أن يتنفس تنفسًا بالغ العمق. ودقت ساعة في ميدان على مقربة منه، الخامسة إلا الربع، ومن تحت المظلة، رأى الخطوات الخفيفة القصيرة للناس المقبلين نحوه، وأحدثت عجلات عربة صريرًا وفرملتها مضغوطة، وهي تستدير ببطء زائد، ومدت الخيل سيقانها الأمامية الرفيعة في جرأة كحيوانات الشمواه في الجبال.

ثم بدا لرابان أنه سوف يمر خلال الأيام الطويلة السيئة، على مدى الأسبوعين التاليين أيضًا؛ ذلك أنها فترة أسبوعين، أي كان يمكن القول عنها إنها فترة محدودة، وحتى لو كانت المضايقات قد جرت على نحو أكثر إزعاجًا، إلا أن الوقت الذي كان على المرء في خلاله أن يتحملها سوف يزداد قصرًا، وعلى هذا سوف تزداد الشجاعة بلا شك.

«كل الناس الذين يحاولون أن يعذبوني، والذين احتلوا الآن كل المساحة حولي، سوف يتم دفعهم إلى الوراء تدريجيًا بفضل مرور هذه الأيام، دون أن يكون عليّ أن أساعدهم في أقل القليل. وكما سوف يكون طبيعيًا جدًا، يمكنني أن أكون ضعيفًا وهادئًا، وأدع كل شيء يحدث لي، إلا أن كل شيء، مع ذلك، لا بد أن ينتهي نهاية طيبة، من خلال مجرد حقيقة مرور الأيام».

وعلاوة على ذلك، ألا يكون باستطاعتي أن أتصرف بالأسلوب الذي اعتدت عليه دائمًا كطفل فيما يتعلق بالأمور التي كانت لها خطورتها؟ لست محتاجًا حتى إلى الذهاب بنفسي إلى الريف، هذا ليس ضروريًا. سوف أرسل جسدي المرتدي ملابسي، فلو أنه ترنح خارجًا من باب حجرتي، فإن هذا الترنح لن يدل على خوف، بل يدل على العدم، عدم وجود هذا الجسد، كما أنه لن يشير إلى إثارة لو أنه تعثر على درجات السلم، فلو أنه رحل إلى الريف، منهنهًا بالبكاء في أثناء سيره، ويتناول عشاءه هناك منخرطًا في الدموع؛ لأكون أنا نفسي في تلك الأثناء مستلقيًا في فراشي مغطى في نعومة بالبطانية الصفراء- البنية، معرضًا للأنسام التي تهب منبعثة خلال تلك الحجرة النادرة التهوية. وتتحرك المركبات في الشارع، والناس يسيرون في تردد فوق أرضية ساطعة الضياء، ذلك أنني لا أزال أحلم. والحوذي والمارة هيئابون، وكل خطوة يريدون أن يخطونها، يطلبونها مني

كمنحة بالتطلع إليّ. أشجعهم أنا، ولا يواجهون أي عقبة.

«وبينما أستلقي فوق فراشي أتخذ شكل خنفساء كبيرة ذات فكين كقرنين طويلين أو جعران كبير فيما أظن».

وأمام فترينة محل، كانت تعرض فيها قبعات صغيرة للرجال فوق مشابك صغيرة، خلف لوح زجاج مبتل، توقف وتطلع إلى الداخل، وشفتاه مزمومتان، فكر وواصل السير في طريقه: «حسنًا، سوف تظل قبعتي صالحة لفترة الإجازات، وإذا لم يستطع أحد أن يحتملني بسبب قبعتي، فسيكون ذلك هو الأفضل».

«شكل خنفساء ضخمة، نعم. عندئذ سأتظاهر بأن ذلك كان بياتًا شتويًا، وسوف أضغط سيقاني الصغيرة إلى بطني المنتفخة، وأهمس بعدد قليل من الكلمات، تعليمات إلى جسدي الحزين، الذي يقف ملاصقًا لي، محنيًا. سرعان ما فعلت ذلك- انحنى، ومضى مسرعًا، وسوف يتدبر أمر كل شيء بكفاءة بينما أستريح أنا».

وبلغ في سيره قوسًا مقبيًا عند أعلى الشارع الواقف الانحدار المؤدي إلى ميدان صغير، حوله كانت تنتشر متاجر كثيرة مضاءة بالفعل، وفي وسط الميدان، كان يوجد نُصب حجري منخفض، غامضًا إلى حد ما بسبب الضوء حول حافته، شكل لرجل جالس مستغرق في التأمل. وتحرك الناس عبر الأضواء كأنهم درفات شيش شباك ضيقة، ولما كانت البرك الموحلة قد نشرت التألق في أنحاء المكان، فقد تبدى المشهد الذي بدا به الميدان متغيرًا بلا توقف.

وظل رابان يتقدم في سيره بعيدًا إلى الأمام، إلى داخل الميدان، لكن كان

يتفادى المركبات المندفعة مهتزًا، قافزًا من حجر جاف من أحجار رصف الطريق، إلى حجر رصف جاف آخر يليه، ممسكًا بالمظلة المفتوحة في يده عالية؛ لكي يتمكن من أن يرى كل شيء حواليه، وأخيرًا عند عمود نور، كان قد أقيم فوق قاعدة خرسانية أعلى ميدان صغير -هو المكان الذي يتوقف عنده الترام- توقف.

«لكنهم ينتظرون وصولي في الريف، ألن تأخذهم الحيرة بشأني في الوقت الحالي؟ إلا أنني لم أكن قد كتبت رسالة إليها طوال الأسبوع منذ أن كانت في الريف، سوى فقط هذا الصباح، وهكذا فسوف ينتهي بهم الأمر إلى أن يتصوروا أن ظهوري بينهم سيكون مختلفًا كل الاختلاف. وربما اعتقدوا أنني سوف أندفع إلى الأمام عندما أخاطب شخصًا ما، إلّا أن هذا ليس أسلوبي على الإطلاق، أو ربما اعتقدوا أنني سوف أحتضن الناس عندما أصل، وهذا شيء لا أفعله أيضًا.

وسوف أتسبب في غضبهم إذا حاولت تهدئتهم. آه، لو أنني استطعت فحسب أن أغضبهم كل الغضب عند محاولة تهدئتهم».

عند تلك اللحظة مرت مركبة مفتوحة، غير مسرعة، وخلف مصباحيها المضاءين كان يمكن رؤية سيدتين جالستين فوق مقاعد جلدية غامقة. كانت إحداهما مضطجعة إلى الخلف، ووجهها مختفٍ خلف نقاب، وخلف ظل قبعتها، أما الأخرى فكانت جالسة كالسهم في وضع قائم، كانت قبعتها صغيرة، وحوافها محاطة بريش رفيع، وكان في استطاعة أي شخص أن يراها، وكانت شفتها السفلى قد انسحبت قليلًا إلى داخل فمها.

وبمجرد أن مرت العربة على رابان، حجب حاجز ما رؤية الحصان الأقرب الذي يجر المركبة، وكان حوذي ما فوق صندوق مرتفع غير مألوف - يرتدي قبعة عالية

كبيرة قد تحرك عابرًا أمام السيدتين- وكان ذلك قد أصبح أبعد كثيرًا- ثم تقدمت مركبتهم مستديرة حول ناصية بيت صغير، أصبح عندئذ ملحوظًا بصورة لافتة للنظر، ثم اختفت المركبة عن الرؤية، تبعها رابان بنظرته المحدقة، وقد انخفض رأسه، ساندًا يد المظلة على كتفه؛ لكي يتمكن من الرؤية على نحو أفضل. كان قد وضع إبهامه الأيمن في فمه، وراح يحك أسنانه على إبهامه، وكانت حقيبة يده ملقاة بجواره، وأحد جانبيها على الأرض.

وأسرعت المركبات من شارع إلى شارع عبر الميدان، وأجساد الخيول قد طارت إلى الأمام أفقيًا، كما لو كانت قد ارتمت عبر الهواء، إلّا أن إطراقة الرأس والعنق كشفت الإيقاع والمجهود الذي تمت به الحركة.

وحول حواف أرصفة كل الشوارع الثلاث التي تلاقت هنا، كان ينتشر الكثير ممن يطرقون أحجار الرصف بعصي صغيرة، وبين المجموعات التي كونها هؤلاء، كانت هناك إبر صغيرة، وكانت فتيات يصبون بداخلها الليمونادة، وساعات ثقيلة من ساعات الشوارع محمولة فوق قضبان رفيعة، ورجال يحملون أمامهم وخلفهم ألواحًا كبيرة تعلن عن ملاهٍ وتسليات في حروف متعددة الألوان، ثم رُسُل... (صفحتان مفقودتان) اجتماع صغير. وكانت عربتان خصوصيتان رشيقتان تتحركان في سيرهما على نحو موروب عبر الميدان نحو الشارع المؤدي إلى سفح التل، وقد قطعا الطريق على بعض السادة من هذا التجمع، لكن بعد المركبة الثانية تشكل -وحتى بعد العربة الأولى كانتا قد حاولتا في خوف أن تفعلا ذلك- أولئك السادة في مجموعة مرة أخرى مع الآخرين، الذين تقدموا معهم نحو الرصيف في موكب طويل، وتابعوا طريقهم خلال باب أحد المقاهي الغارق في ضوء اللمبات المتوهجة المعلقة فوق المدخل.

ومرت عربات ترام كهربائية ضخمة وقريبة جدًا، وأخرى مرئية في غموض، كانت تقف بلا حركة بعيدًا في الشارع. «كم هي مائلة؟» فكر رابان عندما تطلع إلى الصورة الفوتوغرافية الآن- إنها ليست معتدلة القامة في الحقيقة، وربما كان ظهرها مستديرًا، وسوف يكون عليّ أن أنتبه انتباهًا زائدًا إلى هذا، وفمها بالغ الاتساع. وهنا، من دون شك نتأت الشفة السفلى، نعم، الآن أتذكر ذلك أيضًا. ويا له من ثوب! طبعًا، أنا لا أعرف شيئًا فيما يتعلق بالملابس، لكن هذه الأكمام الضيقة الخياطة تبدو قبيحة، أثق من هذا، فهي تبدو كالضمادات، والقبعة حافتها عند كل نقطة تستدير إلى أعلى عند الوجه في منحنيات متباينة، لكن عيناها جميلتان، هما بنيتا اللون، إن لم أكن مخطئًا. كل شخص يقول إن عينيها جميلتان.

والآن توقفت عربة ترام كهربائي أمام رابان، وكثير من الناس حوله اندفعوا نحو الدرجات وهم يحملون مظلات مدببة مفتوحة قليلًا.. كانوا يحملونها رأسيًا، وأيديهم مضغوطة على أكتافهم، ورابان الذي كان يمسك بحقيبته تحت ذراعه كان منجذبًا على طول الرصيف بشدة إلى بركة وحل لا مرئية. وداخل الترام كان هناك طفل يركع بركبتيه على المقعد، ضاغطًا بأطراف أصابع كلتا يديه على شفتيه، كما لو كان يقول إلى اللقاء لشخص ما كان الآن يسير مبتعدًا. وخرج بعض الركاب وكان عليهم أن يسيروا بضع خطوات على امتداد الترام؛ لكي يشقوا طريقهم إلى خارج الجمع، ثم صعدت سيدة إلى درجة السلم الأولى، وكانت نقبتها الطويلة التي كانت قد رفعتها بكلتا يديها، امتدت ملتصقة بشدة حول ساقيها، واستمسك أحد السادة بقضيب نحاسي وبرأس مرفوعة، سرد شيئًا للسيدة، وكان الناس الذين أرادوا أن يركبوا الترام متلهفين. وصاح الكمساري، ورابان الذي وقف الآن على حافة الجماعة المنتظرة، استدار حول نفسه؛ لأن

شخصًا ما كان قد صاح مناديًا باسمه.

قال ببطء: «آه، ليمنت».

وأشار بأصبعه الصغير، الذي كان ممسكًا بالمظلة، إلى شاب قادم تجاهه.

ابتسم ليمنت بفمه مغلقًا، ثم قال: «وعلى ذلك، فهذا هو الخطيب في طريقه إلى خطيبته! إنه يبدو عاشقًا بشكل مرعب».

قال رابان: «نعم، لا بد لك أن تغفر لي ذهابي اليوم، لقد كتبت لك رسالة هذه الظهيرة، على أي حال، سوف أكون بالطبع قد أحببت كثيرًا جدًا أن أرحل معك غدًا، لكن الغد سيكون يوم سبت، وسيكون كل شيء مزدحمًا جدًا، إنها رحلة طويلة».

«آه، هذا لا يهم، لقد وعدت، لكن عندما يكون المرء في حالة حب.. سيكون عليّ فقط أن أرحل وحدي». كان ليمنت قد وضع إحدى قدميه فوق الرصيف، والأخرى فوق أحجار رصف الشارع، مدعمًا جسده حينًا على ساق واحدة، وحينًا على الأخرى.

«أنت كنت في طريقك لأن تصعد إلى داخل الترام، وها هو الترام قد ذهب. تعال سوف نمشي، سوف أذهب معك، لا يزال أمامنا وقت طويل».

«أليس الوقت متأخرًا؟».

«لا عجب أنك عصبي، إلّا أنك لديك وقت طويل حقًا، لست عصبيًا إلى هذا الحد، وهذا هو السبب في أنني فقدت جيلمان الآن».

«جيلمان؟ ألن يكون قد ظل بعيدًا هناك أيضًا؟».

«نعم، مع زوجته، إنهما يقصدان الذهاب الأسبوع القادم، وهذا هو السبب في أنني وعدت جيلمان بأنني سأقابله اليوم عندما يغادر المكتب. كان قد رغب في أن يعطيني بعض التعليمات فيما يتعلق بتأثيث منزلهم، وهذا هو السبب في أنني كان من المفترض أن أقابله. لكنني الآن قد تأخرت إلى حد ما، كان أمامي بعض المهام لكي أقوم بأدائها، وبمجرد أن كنت في حيرة عما إذا كان عليّ ألّا أذهب إلى شقتهم، رأيتك، وكنت في البداية مندهشًا للحقيبة، وتحدثت إليك. لكن الآن فإن الأمسية كانت قد انقضت منذ وقت طويل بالنسبة للقيام بأي زيارات، إنه من المستحيل تمامًا أن أذهب إلى جيلمان الآن».

«بالطبع. وعلى هذا فسوف أقابل أناسًا أعرفهم هناك بعد كل شيء، ولا يعني هذا أنني قد رأيت (فراو جيلمان) على الرغم من ذلك».

«وكم هي جميلة، إنها حسناء، وشاحبة الآن بعد مرضها، ولها أكثر العيون جمالًا».

«أخبرني من فضلك، كيف تبدو العيون الجميلة؟ هل هي النظرة؟ إني لم أر قطّ العيون جميلة؟».

«وهو كذلك، ربما كنت أبالغ إلى حد ما، إلّا أنها مع ذلك امرأة جميلة».

وخلال زجاج نافذة مقهى في الدور الأرضي، وملاصقًا للنافذة تمامًا، كان يمكن رؤية سادة جالسين، يقرأون ويأكلون حول منضدة ثلاثية الجوانب. وأسقط أحدهم صحيفة إلى المنضدة، وأمسك بكوب صغير مرفوع، وكان يتطلع إلى

الشارع من خلال جوانب عينيه. وفيما وراء مناضد النافذة، كان كل الأثاث وكل التجهيزات في المطعم الكبير مختفية خلف الزبائن، الذين كانوا يجلسون جنبًا إلى جنب في حلقات صغيرة.

(صفحتان مفقودتان).

«وكما يحدث، مع ذلك؛ لم يكن ذلك أمرًا غير مريح، فهل كان عملًا غير ممتع؟ كثير من الناس قد يقبلون بتحمل مثل هذا العبء فيما أظن».

وصلوا إلى داخل ميدان معتم إلى حد كبير، ميدان كان قد بدأ أولًا على جانب الشارع الذي كانوا عنده، ذلك أن الجانب المواجه كان قد امتد إلى مسافة أبعد. وعلى جانب الميدان الذي مضيا في سيرهما على امتداده، كان يوجد صف غير منقطع من المنازل، من أركان هذه المنازل صفين –في البداية كانا بعيدين لمسافة واسعة –من البيوت امتدت إلى عمق مسافة لا يسهل تمييزها، منها يبدو أن هذين الصفين يتحدان معًا. وكان الرصيف ضيقًا إلى جانب البيوت التي كانت صغيرة في أغلبها، ولم تكن هناك أي متاجر يمكن رؤيتها، ولم تمر أي مركبات هنا. وبالقرب من نهاية الشارع الذي جاءوا منه، كان يوجد عمود حديدي، وفوقه عدة مصابيح كانت مثبتة في طوقين يتعلقان أفقيًا أحدهما فوق الآخر، وكانت الشعلة التي اتخذت شكل العقلة المتحركة بين المسطحات الزجاجية المتوحدة تتقد في تلك الظلمة الواسعة الشبيهة بالبرج، كما لو كانت تتقد في حجرة صغيرة، مفسحة للظلام تأكيد وجوده لعدد من الدرجات أبعد من ذلك.

«لكنني متأكد الآن من أن الوقت متأخر للغاية، ولقد أخفيت أنت ذلك عني، وسوف يفوتني القطار. لماذا؟».

(أربع صفحات مفقودة)

«نعم (بيركر شوفر) على الأغلب، أيًا ما كان ما يسعه».

«جاء ذكر الاسم فيما أظن في رسائل (بيتي)، إنه مساعد كاتب -سكة حديد، أليس هو كذلك؟».

«نعم مساعد كاتب –سكة حديد وشخص كريه، سوف ترى أنني على حق بمجرد أن تلقي نظرة على تلك الأنف الصغيرة الغليظة. أقول لك إن السير خلال الحقول الموحشة مع ذلك الشخص... على أي حال، كان قد تحوّل الآن، وسيذهب بعيدًا عن هناك كما أعتقد وآمل، في الأسبوع القادم».

«انتظر، لقد قلت أنت الآن للتو، إنك نصحتني بأن أبقى هنا لأسبوعين، لقد فكرت في هذا الأمر، لا يمكن أن يتم تدبير ذلك تمامًا، لقد كتبت رسالة لكي أقول بأنني قادم هذا المساء، وسيكونون في انتظاري».

«هذا سهل للغاية، ارسل برقية».

«نعم، يمكن عمل ذلك –إلّا أنه لن يكون جيدًا جدًا إذا لم أذهب- وأنا متعب، نعم سوف أذهب بالفعل، فلو جاءت برقية، فسوف يصيبهم الخوف علاوة على ذلك –ولماذا هذا؟ إلى أين سوف نذهب على أي حال؟».

«عندئذ، فمن الأفضل حقًا لك أن تذهب، كنت فقط أفكر... على أي حال، لم يكن باستطاعتي أن أذهب معك اليوم، بما أنني في حالة نوم، لقد نسيت أن أخبرك بذلك، والآن سوف أقول لك إلى اللقاء، لأنني لا أريد أن أذهب عبر الميدان المبتل معك، كما قد أحب أن أصل إلى مسكن جيلمان في آخر الأمر. إن الساعة

الآن السادسة إلّا ربعًا –وعلى هذا، فالوقت ليس متأخرًا جدًا بعد كل شيء، للقيام بالزيارات للناس الذين تعرفهم معرفة كافية. وداعًا، حسنًا، رحلة سعيدة، واذكرني لكل شخص.

استدار ليمنت إلى اليمين ورفع يده اليمنى؛ لكي يقول إلى اللقاء، وهكذا للحظة كان رابان يسير على عكس اتجاه ذراع ليمنت الممدودة.

قال رابان: «وداعًا».

من على بعد مسافة قليلة هتف ليمنت إلى خلفه: «أقول، يا إدوارد هل تسمعني؟ هل أغلقت مظلتك؟ لقد توقف المطر منذ زمن، لم تكن لديّ فرصة لكي أخبرك بذلك».

لم يرد رابان، وأغلق مظلته، وأطبقت السماء فوقه في ظلام شاحب.

فكر رابان: «لو كان لي على الأقل أن أستقل قطارًا خطأ. عندئذ سوف يبدو على أي حال أن المغامرة كلها قد بدأت، وفيما بعد، لو كان لي بعد أن يكون الخطأ قد زال، أن أصل إلى هذه المحطة مرة أخرى في طريق عودتي، فإنني عندئذ سوف أشعر بالتحسن كثيرًا بالتأكيد. وإذا كانت المناظر قد بدت مضجرة، كما يقول ليمنت، فإن ذلك لن يكون عائقًا على الإطلاق، فسوف يقضي المرء مزيدًا من الوقت في داخل المنزل، ولا يكون في الحقيقة على علم مؤكد بمكان الآخرين، ذلك لأنه لو وجدت أنقاض في الحي فسوف يكون هناك ربما إمكانية للسير رغم ذلك إلى هذه الأنقاض، كما قد تم الاتفاق على ذلك بالتأكيد منذ وقت مضى. ثم لا بد مع ذلك أن يتطلع المرء في توقع؛ لهذا السبب نفسه لا ينبغي لأحد أن يفقد تلك الإمكانية، لكن لو لم يوجد مثل هذا المشهد الذي يمكن رؤيته،

فلن تكون هناك مناقشة مقدمًا؛ ذلك أن كل شيء سيكون من المتوقع أن يتجمع بسهولة وإن يكن ذلك فجأة، خلافًا لكل الممارسة المعتادة، وبعثه أكبر مستعد صحيحة ذلك لأن المرء عليه أن يرسل الخادمة إلى مساكن الآخرين، حيث يكونون جالسين لقراءة رسالة أو كتب وهم مبتهجون بهذه الأخبار. حسنًا ليس من الصعب أن يحمي المرء نفسه ضد مثل هذه الدعوات، ومع ذلك لا أعرف ما إذا كنت سأقدر على فعل ذلك؛ لأنه ليس من السهل إلى هذا الحد، كما أتصور ذلك الآن، بينما أنا ما زلت وحيدًا، ولا يزال في مقدوري أن أفعل كل شيء، ويمكنني أن أعود أدراجي راجعًا إذا أردت؛ لأنني لن يكون لي أحد هناك، يمكنني أن أقوم بزيارته وقتما أشاء، ولا أحد قد يكون من الممكن أن أمارس معه مزيدًا من الحملات المتحمسة، لا أحد هناك قد يعرض عليّ كيفية نضج محاصيل أو محجرًا من المحاجر التي يعمل بها هناك؛ لأنه لا أحد مطلقًا يكون واثقًا حتى من معارف قدامى راسخين من معارفه. ألم يكن ليمنت معي اليوم طيبًا؟ لقد شرح لي بعض الأمور، أما يفعل ذلك؟ ووصف لي كل الأشياء كما سوف تبدو لي. لقد جاءني وتحدث معي، ثم سار معي، على الرغم من حقيقة أنه ليس هناك أي شيء يريد أن يكتشفه مني، وأنه هو نفسه لديه شيء آخر لا يزال عليه أن يفعله. لكنه الآن رحل بعيدًا فجأة، ولم أكن مع ذلك قد أسأت إليه ولا حتى بكلمة واحدة. لقد رفضت بالفعل أن أمضى الليلة في المدينة، إلّا أن هذا كان طبيعيًا، لا يمكن أن يكون هذا قد أغضبه؛ ذلك أنه رجل واعٍ.

دقت ساعة المحطة، كانت السادسة إلّا ربعًا، توقف رابان لأنه كان يشعر بشدة خفقان قلبه، ثم سار مسرعًا على امتداد بركة الميدان، ومضى على طول ممر ضيق سيئ الإضاءة، بين أعشاب كبيرة، واندفع إلى داخل مكان مفتوح فيه كثير من الدكك الخاوية مائلة أشجار صغيرة، ثم مضى ببطء أكثر عبر فتحة

في السياج إلى الشارع، عبره وقفز خلال مدخل المحطة، وبعد فترة قصيرة عثر على مكتب الحجز، وكان عليه أن يطرق لفترة على الشبكة الحديدية. ثم تطلع موظف إلى الخارج وقال إن الوقت قد حان حقًّا، وتناول الورقة المالية وخبط على الطاولة بالتذكرة التي كان قد طلبها وباقي النقود. وحاول رابان الآن أن يقوم بعد النقدية الباقية بسرعة، وهو يظن أنه قد تناول المزيد أكثر من الباقي له، إلّا أنّ حمّالًا كان يسير على مقربة أسرع به خلال باب زجاجي إلى الرصيف. هنالك تطلع رابان حوله، بينما كان ينادي الحمّال قائلًا: «أشكرك، أشكرك». ولما لم يجد أي حارس، صعد بنفسه درجات أقرب عربة، وفي كل مرة يضع الحقيبة فوق الدرجة الأعلى، ثم يتابع مدعمًا نفسه باستناده إلى المظلة بإحدى يديه، وعلى مقبض الحقيبة باليد الأخرى.

كانت العربة التي صعد إليها مضاءة في سطوع بواسطة الضوء الزائد الصادر عن الصالة الرئيسة للمحطة التي كانت تقف فيها، وفي مواجهة كثير من النوافذ الزجاجية –كانت مغلقة كلها إلى أعلاها- كانت توجد لمبة على هيئة قوس تئز وهي معلقة عند مستوى العينين تقريبًا، وكثير من قطرات المطر فوق الزجاج كانت بيضاء، وكانت قطرات قد تتحرك من مكانها. وكان باستطاعة رابان أن يسمع أصوات الضجة الصادرة عن الرصيف، حتى عندما أغلق باب العربة وجلس فوق آخر جزء خال من مقعد خشبي بني فاتح اللون، رأى ظهورًا لناس كثيرين، ورأى أقفيتهم؛ وبينهما رأى الوجوه المرتفعة لناس جالسين على المقعد المقابل. وفي بعض الأماكن كان يتصاعد إلى أعلى دخان صادر من الغلايين ومن السيجار، وفي أحد الأماكن كان ينجرف باضطراب متجاوزًا وجه فتاة، وغالبًا كان الركاب يغيرون أماكنهم، ويتناقشون عن هذه الأماكن أحدهم مع الآخر أو أنهم كانوا يحوّلون متاعهم الذي كان مَلْقِيّ في شبكة زرقاء ضيقة فوق أحد

المقاعد فينقلونه إلى شبكة أخرى. ولو كانت عصا، أو كانت حافة الركن المكسو بالمعدن لإحدى الحقائب يبرز إلى الخارج، عندئذٍ كان صاحب الحقيبة يجد انتباهه مشدودًا إلى ذلك، وعندئذٍ يذهب ويعيد ترتيب الأشياء مرة أخرى، وتذكر حقيبته فجرها إلى تحت مقعده.

على يساره إلى جانب النافذة، كان يجلس سيدان أحدهما في مواجهة الآخر، يتحدثان عن أسعار البضائع، تفكر رابان «هما تاجران متجولان»، وبينما يتنفس بانتظام، تطلع إليهما «إن التاجر يرسلهما إلى الريف، وهما يطيعان، ويرحلان بالقطار، وفي كل قرية، يذهبان من محل إلى محل. وأحيانًا يرحلان بواسطة المركبة بين القرى. ولا ينبغي لهما البقاء طويلًا في أي مكان، لأن كل شيء يجب أن يتم عمله بسرعة، ولا بد لهم دائمًا أن يتحدثا فقط عن بضائعهم، فبأي متعة إذن، يمكن للمرء أن يجهد نفسه في عمل بهذا القدر من التوافق!».

كان الرجل الأصغر قد انتزع مفكرة من داخل جيب بنطلونه الخلفي، وبسرعة فر الأوراق بسبابته مبللة بلسانه، ثم قرأ بعد ذلك إحدى الصفحات، ساحبًا ظهر ظفر أصبعه إلى أعلى الصفحة، بينما يمضي في القراءة. نظر إلى رابان، بينما كان يتطلع إلى أعلى، ولم يدر وجهه في الحقيقة بعيدًا عن رابان عندما بدأ يتحدث عن أسعار الدوبارة، بل كان يحدق، كما يحدق شخص بثبات إلى هدف ما لكي لا ينسى شيئًا مما يود أن يقوله. وفي الوقت نفسه سحب حاجبيه فوق عينيه إلى أسفل بشدة، وأمسك بالمفكرة نصف المغلقة في يده اليسرى بإبهامه فوق الصفحة التي كان يقرأها؛ لكي يمكنه أن يشير إليها بسهولة لو كان في حاجة إليها، وكانت المفكرة تهتز؛ لأنه لم يكن يسند ذراعه فوق أي شيء، وكانت العربة التي كانت تتحرك الآن تدق فوق القضبان مثل مطرقة.

كان المسافر الآخر مائلًا إلى الخلف، يستمع ويطرق برأسه في فترات منتظمة؛ كما كان من الواضح أنه أبعد ما يكون عن الموافقة على كل شيء، وأنه سوف يعلن رأيه الخاص فيما بعد.

وضع رابان يديه المطويتين براحتيهما إلى أسفل على ركبتيه مائلًا إلى الأمام، ورأى بين رأسي المسافرَين، النافذة، وعبرها أضواء تومض إلى الخلف وأخرى تومض إلى البعد. لم يستطع أن يفهم أي شيء مما كان المسافر يتحدث عنه، ولا كان يفهم إجابة الآخر. استعدادات كثير ستكون مطلوبة أولًا، لأنه كان هناك ناس مشغولون بالبضائع منذ شبابهم، لكن لو أن المرء قد أمسك طويلًا إلى هذا الحد ببكرة دوبارة في يده، ويناولها إلى هذا الحد غالبًا لزبونه، عندئذ فإن المرء يعرف الثمن، ويمكنه أن يتحدث عنه، وبينما تهب القرى في اتجاهنا وتندفع إلى الجهة العكسية، على حين تستدير متباعدة في الوقت نفسه إلى أعماق الريف حيث لا بد لها من أن تختفي بالنسبة لنا. إلّا أن هذه قرى مأهولة بالسكان، ويوجد بها ربما باعة متجولون ينتقلون من متجر إلى آخر.

وفي ركن عند الطرف الأقصى من العربة وقف رجل طويل ممسكًا في يده بأوراق لعب وصاح: «أقول يا ماري، هل حزمت القمصان الزفير؟»، وردت المرأة التي كانت تجلس قبالة رابان: «بالطبع فعلت ذلك». كان يغلب عليها النوم، وكان السؤال يوقظها بين الحين والآخر، فكانت تجيب كما لو كانت تتحدث إلى نفسها أو إلى رابان. سألها المسافر الذي تفعمه الحيوية: «أنت ذاهبة إلى السوق في يونجبنتسلاو، هه؟»: «يونجبنتسلاو، هذا صحيح». «إنها سوق كبيرة هذه المرة، أليس كذلك؟»: «سوق كبيرة هذا صحيح»، كانت نعسانة، وكانت قد أسندت كوعها الأيسر إلى بقجة زرقاء ورأسها يهبط بتثاقل على يدها التي انضغطت في

لحم الخد. قال المسافر: «كم هي صغيرة».

وأخرج رابان النقدية التي كان قد تسلمها من صراف المحطة من جيب معطفه وأعاد عدّها، وأمسك بكل قطعة عملة واضعًا إياها بين أصبعي إبهامه وسبابته لوقت طويل، وحرفها على هذا النحو وذلك على النحو الآخر على راحة سطح إبهامه بطرف سبابته. وتطلع لوقت طويل إلى صورة الإمبراطور على قطعة العملة، ثم فاجأه إكليل الغار والطريقة التي ثبت بها بعقد وأقواس من الشرائط عند خلفية الرأس. وأخيرًا وجد أن المبلغ كان صحيحًا، ووضع النقود بداخل كيس أسود كبير. لكنه الآن وبينما كان على وشك أن يقول للمسافر: «إنهما زوجان، ألا تظن ذلك؟» توقف القطار توقفت حركة الرحلة، وصاح الحراس باسم مكان ما، ولم يقل رابان شيئًا.

وبدأ القطار يتحرك ثانية ببطء بالغ، حتى كان في استطاعة المرء أن يتصور ثورة العجلات لكن بعد لحظة كان القطار يسرع وكأنه في سباق هابطًا منحدرًا، وفجأة على غير توقع كانت القضبان الطويلة لأخد الكباري خارج النوافذ قد انتزعت بعيدًا عن بعضها البعض، وبدا كما لو أنها قد انضغطت معًا.

كان رابان الآن مسرورًا؛ لأن القطار كان ينطلق بسرعة بالغة، ذلك أنه لم يكن راضيًا عن البقاء في المكان الأخير. «عندما تكون الدنيا ظلامًا هناك، وعندما لا يعرف المرء أن أحدًا هناك، وعندما تكون المسافة إلى موطن المرء بعيدة كل هذا البعد. لكن لا بد عندئذٍ أن يكون كل شيء هناك مزعجًا في النهار. وهل يختلف الأمر عند المحطة التالية؟ أو عند المحطات السابقة؟ أو عند القرية التي أنا ذاهب إليها؟».

كان المسافر يتحدث فجأة بصوت بالغ الارتفاع. وقال رابان لنفسه: «إن المسافة طويلة لا تزال». «يا سيدي أنت تعلم تمامًا كما أعلم، أن هؤلاء الصناع يرسلون باعتهم الجوالين ليطوفوا بتلك القرى الصغيرة التي هجرها الرب، إنهم يذهبون زاحفين إلى أردأ أصحاب المحال الصغار، وهل تظن أنهم يعرضون عليهم أسعارًا مختلفة عن تلك الأسعار التي يقدمها لنا كبار رجال الأعمال؟ يا سيدي، خذها مني، هم يقدمون لنا نفس الأسعار تمامًا، أمس فقط رأيتها واضحة كل الوضوح، وأنا أطلق عليها جريمة، إنهم يعتصرون وجودنا، وتحت ظل الظروف الحالية، فإنه ببساطة من المستحيل لنا أن نقوم بعمل تجاري».

مرة أخرى تطلع إلى رابان، لم يكن خجلًا من الدموع التي في عينيه، ضغط مفاصل أصابع يده اليسرى إلى فمه لأن شفتيه كانتا ترتعشان؛ ومال رابان إلى الخلف، وجذب شاربه بضعف بيده اليسرى.

واستيقظت البائعة في مواجهته، وبابتسامة مرت بيديها فوق جبهتها، وتكلم المسافر بهدوء أكثر، ومرة أخرى غيرت المرأة وضعها كما لو كانت تستقر في جلستها لكي تنام، نصف مستندة إلى بقجتها، وتنهدت. وفوق ردفها الأيمن كانت النقبة مشدودة بإحكام. خلفها كان يجلس سيد بقبعة سفر فوق رأسه، يقرأ في صحيفة كبيرة، وكانت الفتاة المواجهة له، والتي ربما كانت من أقاربه، طلبت منه -وكانت مائلة في الوقت نفسه برأسها نحو كتفها اليمنى- أن يفتح النافذة؛ لأن الجو كان شديد الحرارة. قال، دون أن ينظر إلى أعلى، إنه سوف يفعل ذلك في لحظة، فقط لا بد له أن يفرغ من قراءة مقالة في الصحيفة، وعرض عليها المقالة التي يقصد قراءتها.

لم تستطع المرأة البائعة أن تستغرق في النوم ثانية، اعتدلت في جلستها،

وتطلعت خارج النافذة، ثم تطلعت لوقت طويل إلى المصباح الغازي وإلى الشعلة التي تتقد بلون أصفر بالقرب من سقف العربة، وأغلق رابان عينيه لفترة قليلة.

وعندما تطلع إلى أعلى، كانت المرأة البائعة تقضم في قطعة من الكعك مغطاة بمربى بنية اللون، وكانت البقجة التي إلى جوارها مفتوحة. وكان المسافر يدخن سيجارًا في صمت، وظل يطرق السيجار كما لو كان ينفض الرماد من طرفه. وكان الآخر يعالج بطرف سكين أجزاء داخلية لساعة جيب، حتى كان من الممكن سماع صوت الكشط فيها.

وبعينين اقرب إلى أن تكونا مغلقتين، كان لدى رابان وقت لا يزال لكي يرى على نحو غائم، السيد بقبعة السفر قد سحب السير الجلدي للنافذة، وهبت نفحة من الهواء البارد، وسقطت قبعة من القش من فوق أحد الأرفف. وظن رابان أنه كان قد استيقظ، وأن هذا كان هو سبب انتعاش خديه، أو أن أحدًا كان يفتح الباب ويجذبه إلى داخل الحجرة، أو أنه كان على نحو ما مخطئًا فيما يتعلق بأشياء ما، وسرعان ما استغرق في النوم، متنفسًا بعمق.

(2)

درجات سلم العربة كانت مهتزة قليلًا لا تزال، عندما هبط فوقها رابان، وطرقت وجهه في قدومه من هواء العربة قطرات المطر، وأغلق عينيه. كانت تمطر بصخب فوق السطح الحديدي المتموج لمبنى المحطة، لكن في الخارج، في الريف المفتوح كان المطر يسقط على نحو يصدر فيه صوتًا كصوت هبوب الريح الذي لا ينقطع. وجاء طفل حافي القدمين يجري –لم ير رابان جاء- وبأنفاس متقطعة طلب من رابان أن يدعه يحمل الحقيبة، لأن المطر كان يسقط، لكن رابان قال: «نعم، إنها كانت تمطر، وأنه على هذا سوف يذهب بالأمنيبوس، وقال إنه لا يحتاجه، وعلى هذا كشر الصبي كما لو يظن أنه من الأنسب أن يمضي المرء في المطر، وتكون حقيبته قد حملها آخر بدلًا من الذهاب بالأمنيبوس، وفي الحال استدار وانطلق في الجري مبتعدًا. وعندما أراد رابان أن يناديه، كان الوقت قد فات.

كانت توجد لمبتان مضيئتان يمكن رؤيتهما، وخرج من أحد الأبواب أحد موظفي المحطة، ومضى بلا تردد يسير تحت المطر إلى القاطرة، وهناك توقف بلا حركة، عاقدًا ذراعيه، وانتظر حتى مال سائق القاطرة إلى حاجزه، وتحدث إليه. وجاء حمَّال كان قد تم استدعاؤه، ثم أرسل من حيث جاء ثانية. وكان يوجد ركاب كثيرون واقفون عند كثير من النوافذ في القطار، ولما كان كل ما كان عليهم أن يتطلعوا إليه مجرد محطة ركاب عادية، كانت نظراتهم ربما بدت كابية. انغلقت جفون العيون معًا، بينما كان القطار يتحرك. والبنت التي كانت قد جاءت مسرعة إلى الرصيف من الشارع تحت مظلة تزينها زهور مشغولة في أعلاها، وضعت المظلة المفتوحة فوق الأرض وجلست فاردة ساقيها بعيدًا

إحداهما عن الأخرى حتى يمكن لجونيلتها أن تجف على نحو أسرع، وراحت تسحب أطراف أصابعها فوق الجونيلة المفرودة. كان يوجد فقط مصباحان مضاءان، فكان يصعب تمييز ملامح وجهها، والحمّال الذي مرّ بها كان يتشكى من أن البرك الموحلة كانت تتكون تحت الشمسية، ورفع ذراعيه أمامه في شبه دائرة لكي يشير إلى حجم هذه البرك، ثم حرّك ذراعيه في الهواء، واحدًا بعد الآخر، كأسماك تغطس في مياه عميقة، لكي يوضح أن حركة المرور كانت هي أيضًا قد اعترضت طريقها هذه الشمسية.

بدأ القطار في السير، اختفى مثل باب طويل منزلق وخلف أشجار الحور على الجانب الأبعد لمسار الخط الحديدي، كان المنظر الخلوي البالغ الكثافة حتى ليأخذ بالأنفاس. فهل كان منظرًا معتمًا خلال فجوة؟ أو أنها كانت الغابة؟ هل كانت بركة ماء؟ أو كانت بيتًا في داخله ينام الآن كل الناس؟ هل كان برجًا لكنيسة؟ أو كان هوّة بين التلال؟ لا أحد قد يتجاسر على الذهاب إلى هناك، لكن من الذي أمكنه أن يتمالك نفسه؟

وعندما لمح رابان الموظف –كان بالفعل يصعد الدرج إلى مكتبه- جرى أمامه وأوقفه.

«اسمح لي من فضلك، هل المسافة إلى القرية بعيدة؟ فهذا هو المكان الذي أريد الذهاب إليه».

«لا، إنها مسافة تستغرق ربع الساعة، لكن بالأتوبيس، -بما أنها تمطر- ستكون هناك في خمس دقائق».

قال رابان: «إنها تمطر، إنه ليس ربيعًا صحوًا للغاية».

كان الموظف قد وضع يده على مؤخرته، وخلال المثلث الذي شكله الذراع والجسد، رأى رابان الفتاة، التي كانت قد أغلقت الشمسية الآن؛ فوق المقعد حيث جلست.

«لو أن المرء كان ذاهبًا إلى إجازته الصيفية الآن، وكان ينوي أن يبقى هناك فإنه لا يسعه سوى أن يأسف لذلك. وبالفعل كنت قد فكرت في أنني سوف أجد من يكون في استقبالي». تطلع حوله كي يجعل الفكرة تبدو مقبولة.

«أخشى أن الأتوبيس سوف يفوتك، إنه لا ينتظر طويلًا، لا شيء يمكن أن تشكرني عليه؛ هذا هو الطريق، بين الأسيجة».

لم يكن الطريق خارج محطة السكة الحديد مضاء؛ فقط من خلال ثلاث نوافذ في طابق أرضي في المبنى جاء ضوء ضبابي، إلّا أنه لم يمتد إلى بعيد. سار رابان على أطراف أصابع أقدامه خلال الوحل وصاح: «سائق». و«هيّا أنت هناك». و«أمنيبوس» و«ها، أنا هنا» عدة مرات. لكن عندما استقر وسط برك لا تكاد تنفصل إحداها عن الأخرى في الجانب المعتم من الطريق، كان عليه أن يتجول متقدمًا إلى الأمام، بكعوب أقدامه على الأرض، حتى لمس جبهته فجأة خطم مبتل لحصان.

هنالك كان الأمنيبوس، صعد بسرعة إلى داخل الديوان الخالي، وجلس إلى جوار لوح زجاج النافذة خلف صندوق السائق، وحني ظهره في الركن، ذلك أنه كان قد فعل كل ما هو ضروري. فلو كان السائق مستغرقًا في النوم، فسوف يستيقظ قرب الصباح؛ ولو كان ميتًا، فسوف يجيء عندئذ سائق جديد، أو صاحب الحانة، وإذا لم يحدث ذلك أيضًا، فسوف يجيء الركاب في قطار الصباح

الباكر. ناس مسرعون محدثون ضجة. على أي حال يمكن للمرء أن يكون هادئًا، ويمكن له حتى أن يسدل الستائر فوق النوافذ وينتظر الهزة التي لا بد بها أن تبدأ المركبة في السير.

«نعم، بعد كل شيء أنجزته بالفعل فمن المؤكد أنني غدًا سوف أصل إلى بيتي وإلى ماما، ولا أحد يمكنه أن يمنعني من ذلك. إلّا أنه صحيح، وكان من الممكن توقعه حقًا، أن رسالتي سوف تصل فقط غدًا، حتى إنه ليمكنني تمامًا، أن أكون قد بقيت في المدينة وقضيت ليلة ممتعة عند (إلفي)، من دون أن يكون عليّ أن أخاف من عمل اليوم التالي، وهو ذلك الشيء الذي يدمر -خلافًا لذلك- كل متعة بالنسبة لي. لكن انظر لقد تبللت قدماي».

أشعل عقب شمعة كان قد أخرجه من جيب معطفه، ووضعه فوق المقعد المقابل. كان الضوء ساطعًا بما يكفي، والظلام في الخارج جعل ذلك يبدو كما لو أن الأمنيبوس كانت له جدران سوداء تفسد أثر الضوء، وبلا زجاج في النوافذ. لم يكن هناك حاجة إلى الظن بأنه كانت هناك عجلات تحت أرضية العربة، وفي الأمام يوجد حصان بين العريشين. حك رابان قدميه كليهما فوق المقعد وجذب جوارب نظيفة، واعتدل في جلسته، ثم سمع شخصًا ما يصيح من المحطة: «هاي، لو كان يوجد أي شخص في الأتوبيس، فربما كان قد قال مثل ذلك». أجابه رابان، مائلًا إلى خارج الباب الذي كان قد فتحه، ممسكًا بعمود الباب بيده اليمني، ويده اليسرى مرفوعة مفتوحة راحتها بالقرب من فمه: «نعم، نعم، وأنه سوف يسره أن يبدأ الرحيل الآن هو أيضًا تدفق المطر إلى أسفل قفاه خلف ياقته».

وجاء السائق ملفوفًا بقماش تيل لجوالين كانا قد انشقا، وانعكاس ضوء فانوس الإسطبل يتنقل فوق البرك عند قدميه، وبدأ يقدم في سرعة مهتاجة تفسيرًا،

عندما قال استمع هنا إلى ما حدث، فلقد كان يلعب الورق مع (ليبيدا)، وأنهما كانا يمضيان لعبهما معًا على نحو رائع عندما جاء القطار. وكان من المستحيل في الحقيقة أن يلقي بنظره إلى الخارج عندئذ، ولم يكن قد قصد مع ذلك أن يسيء إلى أحد لم يكن قد فهم ذلك وبصرف النظر عن هذا، فإن المكان هنا كان بالغ الكآبة، ولم تكن هناك حلول وسط وكان من الصعب أن يرى المرء أي مهمة عمل يمكن لسيد مثل هذا أن يقوم بها هنا، وأنه سوف يكون قد وصل إلى القرية هناك سريعًا بما فيه الكفاية فورًا على أي حال، وعلى هذا فلم يكن بحاجة إلى أن يذهب ليشكو في أي مكان. الآن فقط تحديدًا لو سمحت هذا هو (هر –بيركر شوفر) الموظف الكاتب المساعد الأصغر –قد جاء، وقد قال إنه ظن أن شابًا وجيهًا كان يريد أن يذهب بواسطة الأمنيبوس. حسنًا، وعلى هذا، فها هو قد جاء في الحال، وسأل، أم أنه لم يكن قد جاء في الحال وسأل.

كان الفانوس مربوطًا في نهاية عمود العربة، ولما كان الحصان قد تم الصياح له في صوت مكتوم، قد بدأ يجر العربة، وكان الماء فوق العربة، وقد تحرك الآن، قد بدأ يتقطر ببطء من خلال شدخ إلى داخل العربة.

ربما كان الطريق طريق تلال، بالتأكيد كان يوجد وحل يتطاير مرتفعًا إلى ما بين شعاع دولاب العجلات، فتكونت مراوح من مياه الوحل بصوت يندفع خلف العجلات الدائرة، وكان السائق بالجزء الأكبر من العنان المرسل قد ساس الحصان الذي يتقطر منه الرذاذ -ألم يكن لهذا كله أن يجري استخدامه كأشكال من التأنيب ضد رابان؟ كثير من البرك قد أُضيئت على غير توقع بواسطة الفانوس المهتز فوق عمود العربة، وانقسمت في تموجات تحت العجلة. حدث هذا فحسب لأن رابان كان راحلًا إلى خطيبته، إلى (بيتي)، فتاة متقدمة في العمر جميلة. ومَن إذا

كان للمرء أن يتحدث عن ذلك أساسًا، سوف يقدر أي مزايا قد حازها هنا رابان، حتى لو كانت مجرد أنه تحمل تلك الانتقادات التي لا يمكن لأحد بلا شك أن يوجهها صراحة. بالطبع كان هو يفعل ذلك بسرور، كانت (بيتي) خطيبته، وكان مغرمًا بها. وسيكون من دواعي القرف لو كان لها أن تشكره على ذلك أيضًا، ومع ذلك فالأمر يتساوى في كلا الحالين.

ومن دون أن يقصد ذلك غالبًا ما صدم رأسه في اللوح الزجاجي الذي كان يميل عليه، ثم كان للحظة قد يتطلع إلى أعلى، إلى السقف، وانزلقت يده اليمنى مرة من فوق فخذه، حيث كان يسندها، إلّا أن كوعه ظل في الزاوية بين البطن والساق.

كان الأمنيبوس يرحل الآن بين البيوت هنا وهناك، وكان داخل المركبة قد بلغه نصيب من الضوء صدر عن إحدى الحجرات، وكانت هناك بعض درجات سلم -ولكي يرى أول هذه الدرجات، كان على رابان أن ينهض واقفًا-، ودرجات مبنية لإحدى الكنائس، وخارج بوابة حديقة ميدان كانت توجد لمبة بداخلها شعلة ضخمة تشتعل بداخلها. إلّا أن تمثالًا لأحد القديسين كان قد تبدى في شكل خارجي معتم، بسبب الضوء الصادر عن متجر للملابس، ورأى رابان شمعته التي كانت قد احترقت لآخرها، وكانت قطرات الشمع تتدلى هامدة من المقعد.

عندما توقف الأمنيبوس أمام الحانة، وكان يمكن سماع صوت المطر مرتفعًا و -ربما كانت هناك نافذة مفتوحة-، وأيضًا سماع أصوات الزبائن، تعجب رابان أيهما سيكون أفضل أن يغادر العربة في الحال إلى الخارج، أو أن ينتظر حتى يجيء صاحب الحانة إلى العربة لم يكن يعرف ماذا كانت العادة المتبعة في هذه المدينة، إلا أنه كان من المؤكد تمامًا أن (بيتي) لا بد أنها كانت قد تحدثت

مع خطيبها، وتبعًا لكون وصوله إلى هنا كان رائعًا أو كان استقباله هينًا، فسوف يزداد الاعتبار الذي كانت تتمتع به هنا، أو يتناقص، وبهذا مرة أخرى سيتم تقدير مكانته هو أيضًا. لكن بالطبع لم يكن يعرف لا ما كان يشعر به الناس عنها، ولا ماذا كانت هي قد أخبرتهم به، عنه هو، وهكذا كان كل شيء صعبًا وغير مُزضٍ. يا لجمال المدينة! وكم هو جميل طريق العودة إلى الموطن. لو أمطرت الدنيا هناك فإن المرء يعود إلى المنزل بالترام فوق أحجار رصف مبللة، وهنا يذهب المرء في عربة عامة خلال الوحل، إلى حانة ما.- المدينة بعيدة عن هنا، ولو أنني كنت في خطر مواجهة الموت من وحشة الحنين إلى الموطن، فلا أحد يستطيع أن يعود بي اليوم إلى هناك.- حسنًا، على أي حال لا ينبغي أن أموت -لكنني هناك أحصل على الوجبة المتوقعة لتلك الليلة موضوعة فوق المائدة، وإلى يمين طبقي تكون الصحيفة موجودة، والمصباح إلى اليسار، هنا سوف أحصل على طبق دسم إلى حد مخيف- إنهم لا يعرفون أن معدتي ضعيفة، وحتى لو كانوا قد عرفوا -عن صحيفة غير معهودة- كثير من الناس، الذين أسمعهم الآن بالفعل سيكونون هناك، وسوف يضاء مصباح واحد للجميع. فأي نوع من الإضاءة يمكن أن يتيحه هذا المصباح؟ ضوء يكفي للعب الورق- لكن لقراءة صحيفة؟

«لن يجيء صاحب الحانة، إنه غير مهتم بالضيوف، هو ربما ليس رجلًا ودودًا أو هل هو يعلم أنني خطيب (بيتي)، وهل يمنحه ذلك مبررًا لعدم المجيء لكي يرحب بي في الحانة، سيكون تبعًا لذلك أن السائق كان قد تركني أنتظر تلك المدة الطويلة عند المحطة. كانت (بيتي) غالبًا ما أخبرتني بعد كل شيء، إلى أي حد كانت تعاني من الرجال الشهوانيين، وكيف كان عليها أن تصد إلحاحهم، ربما أن ذلك هنا أيضًا...».

(وينقطع النصّ)..

الصياغة الثانية (ب)

عندما تقدم إدوارد رابان على امتداد الممر نحو الباب المفتوح، استطاع الآن أن يرى أنها كانت تمطر، لم تكن تمطر كثيرًا.

أمامه على الرصيف مباشرة لا إلى الأعلى، ولا إلى الأوطأ، كان هناك -على الرغم من المطر- كثير من المارّة، وبين كل حين وآخر، كان أحدهم قد يتقدم ويعبر الشارع.

كانت بنت صغيرة تحمل كلبًا رماديًا فوق ذراعيها الممدودتين، واثنان من السادة يتبادلان معلومات عن موضوع ما، وفي أحيان كانا يديران كل الجزء الأعلى من جسديهما أحدهما إلى الآخر، ثم ببطء يستديران جانبًا كلاهما ثانيًا، كان ذلك مثل أبواب نصف مفتوحة في الريح، أحدهما يرفع يديه براحتيهما إلى أعلى، رافعًا إياهما وخافضًا لهما في حركة منتظمة كما لو كان يوازن ثقلًا محمولًا، يحاول أن يقيس وزنه. ثم لمح أحدهم سيدة نحيلة وجهها يرتعش قليلًا، مثل الضوء المترجرج للنجوم، وقبعتها المسطحة كانت محملة عاليًا، وحتى حافتها، بأشياء يصعب التعرف عليها، وبدا أنها غريبة لكل المارة، دون أن تقصد ذلك، وكما لو كان ذلك طبقًا لقانون ما؛ وكان شاب يمر بهم مسرعًا معه عصا رفيعة للمشي، كانت يده اليسرى، وكأنها كانت مشلولة، ملقاة مفرودة فوق صدره. وكان كثيرون خارجين لأعمال تجارية، على الرغم من حقيقة أنهم كانوا يسيرون مسرعين، كان المرء يراهم وقتًا أطول مما يرى غيرهم، حينًا فوق الرصيف وحينًا آخر تحت الرصيف، وكانت معاطفهم تبدو غير متناسبة مع أجسادهم، لم يكن يعنيهم كيف يحملون أنفسهم، استسلموا لدفعهم بتدافع الناس،

وقاموا بدفع غيرهم أيضًا. وثلاثة من السادة، اثنان يمسكان بمعاطف خفيفة الوزن فوق سواعدهم المعقوفة –ساروا من واجهة المبنى إلى حافة الرصيف؛ لكي يستطلعوا ما الذي يجري حدوثه في مسار المركبة، وفوق الرصيف الأكثر بُعدًا.

خلال الفجوات بين المارة، رأى أحدهم في سرعة، ثم في رؤية متمعنة الأحجار المرصوفة بانتظام لطريق العربة التي كان تسير فوقها المركبات التي تتمايل فوق عجلاتها، كانت تنجر في سرعة بواسطة خيول محنية أعناقها إلى الأمام. وكان الناس الذين جلسوا في ارتياح فوق المقاعد المنجدة يحدقون في صمت إلى المارة المشاة، وإلى المحلات التجارية، والشرفات، وإلى السماء. ولو حدث أن لحقت إحدى المركبات بمركبة أخرى، كانت تنضغط الخيول أحدها إلى الآخر، وسيور العدة تتدلى منها معلقة. كانت الخيول مشدودة إلى أعمدة عريش كل مركبة، وتنطلق المركبة في خفة وتتمايل، بينما تتزايد سرعتها إلى أن يتم الانحراف حول المركبة التي تقدمتها وتكون الجياد قد تحركت متباعدة مرة أخرى عن بعضها البعض وهي لا تزال برؤوسها الضيقة مائلة أحدها إلى الآخر.

وأسرع سيد متقدم في العمر نحو المدخل الخارجي، وتوقف فوق رصيف الموزاييك الجاف، واستدار، ثم حدق عندئذ في المطر، الذي كان قد اندس داخلًا إلى المكان بواسطة ضيق الشارع وتساقط متناثرًا.

وضع رابان حقيبة يده التي يغطيها الغطاء القماش الأسود اللون، محنيًا ركبته اليمنى قليلًا وهو يفعل ذلك. وكان ماء المطر يجري بالفعل على امتداد حافة طريق المركبة في شريط امتد على الأغلب إلى البالوعات التي في أسفل.

وقف السيد المتقدم في السن معتدل القامة بالقرب من رابان الذي كان يدعم نفسه قليلًا باعتماده على عمود الباب الخشبي، ومن حين لآخر ألقى نظرة نحو رابان، حتى إنه لكي يفعل ذلك، كان عليه أن يلوي عنقه ليًا حادًا. إلا أنه فعل ذلك فقط بدافع من الرغبة الطبيعية، والآن حيث إنه لم يكن منشغلًا بملاحظة كل شيء بالضبط، على الأقل فيما يتعلق بما هو قريب منه. وكانت نتيجة هذه النظرات التي بلا هدف، كانت لأنه كان يوجد كم كبير من الأشياء لم يكن قد لاحظها. لهذا، على سبيل المثال، فاته أن يلاحظ أن شفتي رابان كانتا شاحبتين؛ ليستا أقل شحوبًا إلى حد يتجاوز الاحمرار الحائل جدًا لربطة عنقه، التي كانت ذات طراز مغربي لافت للنظر. والآن لو كان قد لاحظ ذلك، لكان بلا شك قد أحدث ضجة حوله، على الأقل داخليًا، وهو ما كان مرة أخرى لا يعد هو الشيء الصحيح، ذلك أن رابان كان شاحبًا دائمًا، حتى لو كان ذلك حقيقة واقعة؛ أشياء عديدة ربما كانت قد جعلته مرهقًا أخيرًا بصفة خاصة.

قال السيد في صوت خفيض، وهو يهز رأسه في وعي، وهو ما يعد حقيقيًا، وإن كان ذلك لا يزال في صورة تتصف قليلًا بالخرف: «يا له من طقس!».

قال رابان بسرعة، معتدلًا تمامًا في هيئته: «نعم، حقًا، وعندما يكون المرء من المفترض أن يبدأ رحلة أيضًا».

قال السيد، ولكي يتأكد مرة أخرى للمرة الأخيرة انحنى إلى الأمام لكي يتفحص المكان حتى آخر الشارع، ثم لكي ينظر إلى أوله أيضًا، ثم إلى السماء: «إنه ليس نوع الطقس الذي سوف يتحسن، إنه قد يستمر لأيام، وحتى لأسابيع، لأقصى ما يمكنني أن أتذكر، لا شيء أفضل يمكن التنبؤ به لشهر يونيو ولأوائل شهر يوليو. حسنًا، إنه لا يعد متعة لأي شخص. أنا، على سبيل المثال، يمكنني أن

أستغنى عن خرافة رياضة المشي التي أقوم بها، وهي التي تعد هامة إلى أقصى حد بالنسبة لصحتي».

عند هذا تثاءب، وبدا وكأنه قد أصبح منهكًا، بما أنه كان قد استمع الآن إلى صوت رابان ومشغولًا بهذه المحادثة. لم يعد يلقي بالًا بعد ذلك لأي شيء، ولا حتى بالمحادثة.

وقد كان لهذا وقعه على رابان، بما أنه بعد كل شيء، كان هو من توجه السيد إليه بالحديث أولًا، وأنه على هذا كان قد حاول أن يستعرض نفسه قليلًا، على الرغم من أن ذلك ربما قد لا تتم ملاحظته، قال: حقًا، في المدينة يستطيع المرء بسهولة بالغة أن يستغني عما ليس مفيدًا له، فلو لم يستغن عنه، فلن يكون على المرء عندئذ ألّا يلوم إلا نفسه على العواقب السيئة. سيكون المرء آسفًا، وبهذه الطريقة سوف يمكنه أن يرى للمرة الأولى حقًا، بوضوح، كيف يمكن أن يتصرف في المرة التالية، وحتى لو في مسائل تتعلق بالتفاصيل.

... (صفحتان مفقودتان)...

«أنا لا أقصد أي شيء بذلك، لا أقصد أي شيء مطلقًا» أسرع رابان بقوله أنه مستعد لأن يعذر غياب ذهن السيد بأي طريقة ممكنة، بما أنه في النهاية كان قد أراد أن يتظاهر مزيدًا من التظاهر، «إنها كلها تمامًا من الكتاب الذي سبق ذكره، والذي كنت مثل آخرين أقرؤه أخيرًا في المساء، لقد كنت وحيدًا على الأغلب، نظرًا لظروف عائلية، كما ترى. لكن بصرف النظر عن أي شيء آخر، فإنه كتابًا جيدًا هو أكثر ما أحب بعد العشاء. دائمًا كنت هكذا. وأخيرًا قرأت في النشرة التمهيدية اقتباسًا من كاتب ما أو آخر: «كتاب جيد هو أفضل ما يوجد»، وهذا

حق بالفعل، إن الأمر هكذا، كتاب جيد هو أفضل صديق في الوجود».

قال السيد: «نعم، عندما يكون المرء صغيرًا –» وهو لا يقصد بهذا القول شيئًا بذاته. مجرد أنه كان يريد أن يشير إلى كيف كانت الدنيا تمطر، وأن المطر كان أكثر غزارة مرة أخرى، وأنها الآن لم تكن بسبيلها إلى أن تتوقف عن المطر مطلقًا، لكن بالنسبة لرابان بدا الكلام كما لو أن السيد، في الستين من عمره ما زال يعتبر نفسه صغيرًا ومفعمًا بالحيوية، واعتبر رابان ذا الثلاثين سنة من العمر لا شيء بمقارنته به، وكما لو كان يريد أن يقول بالإضافة إلى ذلك، بقدر ما كان من الممكن السماح به، إنه في سن الثلاثين كان أكثر حسًا من رابان. وإنه يعتقد حتى لو لم يكن لدى المرء شيء ليفعله، مثله هو شخصيًا على سبيل المثال، هو الرجل العجوز، إلّا أنها كانت تعد حقًا إضاعة لوقت المرء أن يقف هنا في هذا البهو يتطلع إلى المطر، لكن لو أن المرء قد قضى الوقت، علاوة على ذلك في الثرثرة، فإنه يكون قد أضاع وقته مضاعفًا.

والآن أعتقد رابان أنه لوقت ما، لا شيء قد قاله أناس آخرون عن إمكانياته أو آرائه كان من الممكن أن يؤثر فيه، بل على العكس، إنه كان قد هجر عمليًا الوضع الذي كان فيه قد استمع بإذعان تام إلى كل ما قيل، حتى إن الناس كانوا الآن قد أخذوا أنفاسهم سواء تصادف أن كانوا ضده أو كانوا معه. وهكذا قال: «إننا نتكلم عن أشياء مختلفة، ما دام أنك لم تكن قد انتظرت لتسمع ما كنت بسبيلي إلى أن أقول».

قال السيد: «من فضلك استمر، من فضلك استمر».

قال رابان: «ليس هناك ما هو بالغ الأهمية، كنت فقط بسبيلي إلى أن أقول

إن الكتب مفيدة تمامًا وبكل المعاني، وخاصة في مقام قد لا يتوقعها المرء فيه، ذلك أن المرء عندما يكون بسبيله إلى أن يباشر العمل في مشروع ما، فإن الكتب تحديدًا، التي لا تتضمن مطلقًا شيئًا مطلقًا مشتركًا مع المشروع الذي هو الأكثر فائدة. ذلك أن القارئ الذي ينوي في النهاية أن يباشر العمل في ذلك المشروع، أي أن تقول، القارئ الذي قد أصبح متحمسًا على نحو ما (وحتى لو أنه، كما يقال، كان تأثير الكتاب من الممكن أن يتخلل فقط بقدر ما يتيحه له ذلك التحمس)، فإنه سيجد لديه الحافز بواسطة الكتاب لكل أنواع التفكير التي تتعلق بهذا المشروع. والآن، مع ذلك، ما دام أن مضامين الكتاب هي أشياء تتصف تحديدًا بكل اللا مبالاة، فإن القارئ لن يكون قد وجد أي إعاقة في تلك الأفكار، ويكون مروره خلال وسط الكتاب، ومعه هذه الأفكار، كما مرّ اليهود ذات مرة عبر البحر الأحمر، وهذا هو النحو الذي يروق لي أن أقره بخصوص ذلك».

بالنسبة لرابان، كان شخص السيد العجوز كله قد اتخذ الآن تعبيرًا غير سار، لقد بدا له كما لو أنه كان قد انجذب بصفة خاصة لصقًا به –إلّا أن ذلك كان مجرد شيء عارض.

...(صفحتان مفقودتان)...

الصحيفة أيضًا. إلّا أنني كنت على وشك أن أقول، إنني فقط ذاهب إلى الريف، وهذا هو كل شيء، فقط لمجرد أسبوعين، إنني في إجازة، لأول مرة لمدة طويلة تمامًا، وإنها لإجازة ضرورية أيضًا لأسباب أخرى، إلا أنه على سبيل المثال، كتاب كنت، كما قد ذكرت، أقرؤه أخيرًا، قد علمني الكثير عن رحلتي الصغيرة أكثر مما أمكنك أن تتصور».

قال السيد: «إنني أستمع».

كان رابان صامتًا، واقفًا هناك معتدل القامة تمامًا، وضع يديه في داخل جيوب معطفه، والتي كانت بالغة الارتفاع. فقد -بعد فترة- كان السيد العجوز قد قال: «هذه الرحلة تبدو رحلة لها أهمية خاصة بالنسبة لك».

قال رابان، وقد دعم نفسه مرة أخرى مستندًا إلى عمود الباب: «حسنًا، أنت ترى أنت ترى...»، الآن فقط كان قد رأى كيف كان الممر قد امتلأ بالناس، كانوا يقفون حتى حول قدم السلم، وأحد الموظفين -ذلك الذي كان قد استأجر حجرة في الشقة التي تخص المرأة كما فعل رابان- كان عليه أن يسأل الناس أن يفسحوا له الطريق عندما هبط السلم. ولرابان الذي أشار فقط إلى المطر، كان قد نادى عليه من فوق عدة رؤوس استدارت الآن كلها إلى رابان: «رحلة سعيدة لك»، وأعاد ترديد وَغد، كان قد وعده قبلًا، وهو أن يزور رابان يوم الأحد التالي.

...(صفحتان مفقودتان)...

لتكن لك وظيفة سارة، كان في الحقيقة راضيًا عنها، وكانت دائمًا محفوظة، ومفتوحة فقط من أجله. كانت له قوى التحمل تلك، وداخليًا. كان بالغ الابتهاج حتى إنه لم يكن في حاجة إلى أحد قد يقوم بمواصلة تسليته، لكن كان الكل يحتاجه. لقد كان بصحة جيدة دائمًا. آه، لا تحاول أن تخبرني».

قال السيد: «لا أنوي أن أجادل».

«أنت لن تجادل، لكنك لن تسلم بخطئك أيضًا، لماذا تلتصق بخطيئتك على هذا النحو؟ ومهما كانت ذاكراتك حادة الآن، فإنك سوف، وأراهن، تنسى كل شيء، لو

كان لك أن تتحدث معه. إنك سوف تلومني لكوني لم أدحض قولك الآن بمزيد من الفاعلية. فلو كان يتحدث إلى هذا الحد الزائد عن كتاب، فإنه لتتملكه النشوة فيما يتعلق بكل ما هو جميل...».

***

يوزيفين المغنيّة أو شعب الفئران

مغنيتنا تُسمَّى يوزيفين. وأي شخص لم يسمعها لا يعرف ما هي قوة الأغنية. ولا أحد لم تحمله إلى البعيد بواسطة غنائها، وهي صفة تزداد عظمتها لكوننا - بصفة عامة- لسنا جنسًا محبًا للموسيقى. إن سكينة الهدوء هي الموسيقى التي نحبها أفضل. إن حياتنا صعبة، ولم نعد بعد قادرين، حتى في المناسبات التي حاولنا فيها أن ننفض عن أنفسنا مشاغل الحياة اليومية، أن ننهض طامحين لأن نرتفع إلى شيء بمثل عُلُوّ، ويمثل البعد عن رتابة حياتنا المعتادة كالموسيقي. إلّا أننا لا نأسى على ذلك؛ نحن لا نذهب حتى إلى هذا المدى؛ وهو حنكة عملية بعينها، نتفق جميعنا على أننا في أشد الحاجة إليها، نتمسك بها على أنها تعد هي تميزنا الأعظم، وبابتسامة تتولد عن الكثير من الدهاء، نجدنا معتادين على تعزية أنفسنا على كل نقاط ضعفنا، حتى على افتراض –وإن كان لا يحدث لنا ذلك- أننا كنا لمرّة يدفعنا الحنين في سبيل ذلك النوع من النعمة التي تتيحها الموسيقى. كانت يوزيفين هي الاستثناء الوحيد؛ فلديها حب للموسيقى، وتعرف كذلك كيف تقوم بترجمة هذا الحب، إنها هي الكائن الوحيد؛ وعندما تموت فإن الموسيقى – من يدري إلى متى- سوف تختفي من حياتنا.

ولقد فكرت غالبًا فيما تعنيه حقًّا تلك الموسيقى التي تخصها، ذلك أننا غير موسيقيين بالمرة، وكيف تسنّى لنا أن نفهم غناء يوزيفين أو، بما أن يوزيفين تنكر ذلك، نظن على الأقل أن بمقدورنا أن نفهمها؟ إنّ أبسط إجابة على ذلك ستكون، أنّ جمال غنائها، هو جمال بالغ العظمة حتى إنّ الذين هم من بيننا أشدُّ افتقارًا إلى الحساسية لا يمكن أن تكون لهم آذان صماء لسماعها؛ إلّا أن هذه الإجابة ليست إجابة مقنعة، فلو كانت إجابة مقنعة حقًّا، لكان لغنائها أن يهب الكائن

منا شعورًا فوريًا وباقيًا، بكونه شيئًا خارجًا عن المعتاد، شعورًا بأنه من داخل حنجرتها يتردد صوت لم نكن سمعناه من قبل، هو صوت لم نكن حتى قادرون على سماعه، شيء يوزيفين وحدها، ولا أحد غيرها يمكنه أن يساعدنا على أن نستمع إليه. إلّا أنّ هذا في رأيي هو بالضبط ما لم يحدث. أنا لم أحس هذا، ولم ألحظ قط أنّ آخرين يحسون بأي شيء من هذا القبيل. ونسلم طوعًا بين بعضنا البعض في محيط الثقة التي تربطنا معًا برباط حميم بأن غناء يوزيفين بصفته غناءً، لا يعد شيئًا خارجًا عن المعتاد.

فهل هو في الحقيقة غناءً من أصله؟ على الرغم من أننا لسنا موسيقيين فإن لدينا تقليدًا في الغناء، ففي الأيام الغابرة كان شعبنا يغني، وقد جاءنا ذكر ذلك في الأساطير، وقد تبقت منها بعض الأغاني بالفعل؛ وهي الأغاني التي لا أحد في الحقيقة يمكنه أن يغنيها الآن. وعلى هذا فإن لدينا تلميحًا إلى ما كان هو الغناء، ولا يتطابق معه حقًا فن يوزيفين. لهذا فهل هو غناء أساسًا؟ ألا يكون مجرد صفير ربما؟ والصفير هو شيء كلنا نعرف ما هو، إنه هو الإنجاز الفني الحقيقي لشعبنا، أو أنه بالأصح ليس مجرد إنجاز، بل تعبيرًا مميزًا عن حياتنا، فنحن جميعًا نصفّر لكن لا أحد منا بالطبع يحلم بإدراك أن صفيرنا هو فن. إننا نصفر دون أن نفكر في ذلك.

بل دون أن نلحظ أننا نفعل ذلك حقًا، ويوجد الكثيرون من بيننا الذين لا وعي لديهم مطلقًا بأن الصفير هو واحد من خصائصنا. وعلى هذا، فلو كانت يوزيفين لا تغني حقًا، بل تصفر فحسب، وربما حتى كما يبدو لي على الأقل لا يكاد صفيرها يرتفع فوق مستوى صفيرنا المعتاد –إلّا أن قوتها لعلها ليست حتى مساوية تمامًا لصفيرنا اليومي المعتاد، على حين يمكن لعامل عادي من عمال

الأرض أن يواصل ذلك بلا أيّ جهد طوال اليوم بالإضافة إلى قيامه بأداء عمله- فلو كان ذلك كله صحيحًا حقًّا عندئذ، فإن مهارة يوزيفين الشفاهية المزعومة ربما أمكن دحضها، إلّا أن ذلك يفسح المجال فحسب أمام المعضلة الحقيقية التي تحتاج إلى حل –وهي النفوذ الهائل التي تتمتع به.

هو فقط فوق كل شيء نوع من الصفير ذلك الصوت الذي تصدره. فلو اتخذت لنفسك مكانًا تقف فيه بعيدًا عنها تمامًا وتسمعت، أو على نحو أفضل، وضعت حكمك على صوتها في موضع الاختبار، كلما حدث لها أن كانت تغني مع غيرها في وقت واحد، في محاولة لأن تتبيَّن صوتها، فإنك لا شك لن تميِّز شيئًا سوى نغمة صفير عادى تمامًا، صفير لا يكاد يختلف في الأغلب سوى قليل عن أصوات الآخرين بكونه رقيقًا أو ضعيفًا، إلّا أنك إن جلست أمامها، فلن يكون صوتها مجرد صفير، ولكي تدرك فنها، فمن الضروري ليس فقط أن تسمعها، بل أن تراها. وحتى لو كان فنها الغنائي هو فقط صفير العمل اليومي المعتاد، ففيه قبل كل شيء، هذه الخصوصية التي عليك أن تضعها في اعتبارك، وهو أنه يوجد شيء ما في حالتها هذه يقوم بأداء احتفالي عبر القيام بالصفير المعتاد. وأن تقوم بكسر بندقة، فلن يعد ذلك عملًا فذًّا، وعلى هذا فلا أحد يمكنه مطلقًا أن يخاطر بتجميع جمهور كي يقوم بإمتاعه بالاستماع إلى تكسير بندق. لكن في الوقت نفسه لو أن أحدًا قام بذلك ونجح في إمتاع الجمهور؛ فلن يكون الأمر عندئذ مسألة مجرد تكسير بندق بسيطة، أو أنها تكون مسألة تكسير بندق، إلا أنها تنقلب، حتى إننا نكون قد فاتنا الانتباه إلى فن كسر البندق؛ لكوننا نتمتع نحن أيضًا بنفس المهارة، ذلك وأن هذا القادم الجديد إلى هذا العمل يعرض علينا أولًا طبيعة هذا العمل حقًّا ويجد من المفيد له حتى، لتوضيح تأثيرات ذلك، أن يكون أقل خبرة بالأحرى في تكسير البندق عن غالبيتنا.

ربما كان هذا هو نفس ما يتعلق بغناء يوزيفين، ذلك أننا ليعجبنا فيها ما لا نعجب به في أنفسنا، وقد أقول عن هذا الرأس أنها تتفق معنا فيه. وقد كنت حاضرًا ذات مرة عندما لفت شخص ما انتباهها، كما يحدث بالطبع غالبًا، إلى صفير الشعب المتواصل كله في كل مكان، مشيرًا إليه إشارة متواضعة، إلّا أن ذلك كان أكثر مما يلزم مع يوزيفين. لم أرَ قط ابتسامة بالغة السخرية والتعالي كتلك التي أبدتها عندئذ. إنّها تلك المخلوقة التي تبدو كأنها هي الرقة نفسها، والتي غالبًا ما تتجلى وسط شعبنا الخصب، وتتألق في تلك الصفات الأنثوية، بدت في تلك اللحظة فظة بالفعل، بل كانت في التو واللحظة على وعي بذلك هي نفسها، بحساسيتها الزائدة بالمناسبة، وتمالكت نفسها، وهي تنكر على أيّ حال أي علاقة بين فنها وبين الصفير العادي. ولديها لهؤلاء الذين يرونها نقيض ذلك الازدراء وحده لهم، والكراهية المضمرة ربما. ليس هذا غرورًا صريحًا، ذلك أنّ من يناقضون ما تراه، والذين أتعاطف معهم أنا أيضًا إلى حد ما، يعجبون بها إعجابًا لا يقل عن إعجاب الجمهور بها، إلّا أن يوزيفين لا تريد مجرد الإعجاب، لأنها تريد أن يتم الإعجاب بها تمامًا بنفس الشروط وبالطريقة التي تفرضها هي لذلك، فمجرد الإعجاب وحده يصيبها بالبرودة. وعندما تتخذ مقعدًا لك أمامها يمكنك أن تفهمها. ذلك أنّ المعارضة تكون ممكنة فقط على البعد، وعندما تجلس أمامها ستعرف أن هذا الصفير الذي تحدثه ليس صفيرًا.

ولما كان الصفير هو أحد عاداتنا الفطرية، فربما يظن المرء أن الناس سوف ينطلق صفيرهم في حضور يوزيفين أيضًا، إن فنها يشعرنا بالسعادة، وعندما نكون سعداء فنحن نصفر؛ إلّا أن جمهورها لا يصفر أبدًا، بل يجلس في سكون يليق بفئران، كما لو كنا نشارك في الأمن الذي نتطلع إليه، والذي يشدنا إلى

الوراء فيمنعنا ذلك في أقل القليل عن أن يصدر عنا أي صوت. فهل غناؤها هو الذي يشجينا، أو أنه على الأصح ليس السكون الجليل الذي يطوق صوتها الضعيف الغضّ؟ حدث ذات مرة بينما كانت يوزيفين تغني أن شيئًا ضئيلًا ما، شيئًا سخيفًا بدأ يصفر هو أيضًا بكل البراءة، وكان عندئذ هو تمامًا مثل ذلك الذي كنا نستمع إليه من يوزيفين؛ كان صوت الصفير الذي كان متعثرًا على الرغم من كل التدريبات، يكاد يبدو أمام الجمهور كصفير طفلة غير واعية بنفسها؛ وكان يكاد يكون مستحيلًا يتم تحديد الفارق، إلّا أننا هسسنا فورًا، وأطلقنا صفير الاستهجان لكي نسكت صوت تلك الطفلة الدخيلة، على الرغم من أن ذلك لم يكن ضروريًا في الحقيقة؛ لأنها كانت -على أي حال- ستزحف منسحبة بنفسها بعيدًا في خوف وخجل، على حين أطلقت يوزيفين عاليًا نغماتها الأكثر وثوقًا، وكانت محتدمة غيظًا للغاية، فاردة ذراعيها على اتساعهما، بينما تمد حنجرتها إلى أعلى ما يمكنها أن تبلغه من الارتفاع.

هذا هو الحال الذي تبدو به دائمًا، كل أمر تافه، أي حادثة عارضة، إزعاج، أي صوت يصدر عن الأرضية الخشبية، أي صرير على الأسنان، أيّ خفوت في الإضاءة يحثها على أن ترفع من تأثير أغنيتها، تعتقد بذلك على نحو ما أنها تغني لآذان صماء، لم يوجد نقص في الحماس أو الاستحسان، لكنها كانت قد تعلمت طويلًا ألّا تتوقع فهمًا حقيقيًا لغنائها كما تتصور هي هذا التفهم. وعلى هذا فهي ترحب جدًا بأي إزعاج، وبأي شيء خارجي يتدخل لكي يعوق نقاء أغنيتها يمكن أن يتم التغلب عليه بشيء ضئيل من الجهد، أو بلا جهد على الإطلاق بمجرد مواجهته، كان يقوم بإيقاظ الجماهير حقًا، وكان يعلمهم، ربما ليس الفهم، الاحترام المرتعب.

فلو كانت الأحداث الصغيرة تقدم لها مثل تلك، فكم من الخدمات يقدمها لها ما يقع من جلائل الأحداث. إن حياتنا هي حياة مضطربة غاية الاضطراب، وكل يوم يجيئنا بالمفاجآت، بالمخاوف، وبالآمال وبالأهوال، وبهذا يكون من المستحيل لفرد أن يتحملها كلها وحده، إن لم تكن له دائمًا نهارًا، وليلًا مساندة رفاقه؛ لكن - حتى مع ذلك- غالبًا ما يصبح العبء صعبًا جدًا، وتهتز مرارًا وتكرارًا آلاف الأكتاف تحت وطأة عبء يكون في الواقع ملقى فوق عاتقي ذكر وأنثاه وحدهما، عندئذ تدرك يوزيفين أن وقتها قد حان، فتجدها هنالك تقف تلك المخلوقة الرقيقة وهي تهتز للذبذبات، وبصفة خاصة فيما تحت عظم الصدر، فيشعر المرء بالقلق عليها، وتبدو هي وكأنها قد ركزت كل طاقتها في أغنيتها، وكما لو كان ذلك من خلال كل شيء في كيانها لا تكون مشاركته في خدمة غنائها مشاركة مباشرة، تكون كل قواها قد انحسرت، قوة الحياة كلها على الأغلب، كما لو كانت قد تم الإلقاء بها أرضًا عارية مهجورة، متروكة فحسب لعناية الملائكة الأبرار، كما لو أنها بينما هي على هذا النحو قد تزايلت منسحبة تمامًا كي تعيش في أغنيتها وحدها، ربما تتمكن مجرد نسمة باردة تهب على كيانها من أن تقتلها. لكنها عندما يتبدى لنا ظهورها على هذا الحال، لا نجدنا -غير الذين من المفترض أننا معارضوها- نفعل شيئًا سوى ترديد قولنا المعهود: «إنها لا يمكنها أن تصفر حتى، وعليها لهذا أن تفرض على نفسها ذلك الإجهاد المرعب؛ لكي تنتزع من داخلها غصبًا ليس أغنية -فلا يمكننا أن نطلق على ما تلقيه علينا اسم أغنية- بل شيء ما يكاد يقارب صفيرنا المألوف المعتاد، هذا ما يبدو لنا، إلّا أن هذا الانطباع، على الرغم من أنه محتوم كما قلت، إلّا أنه انطباع عابر وسريع الزوال. ونحن أيضًا سرعان ما نستغرق في شعور الجمهور، تلك الأجساد الدافئة المضغوطة جسدًا لجسد متسمعة بأنفاس الشهيق منجذبًا إلى داخل صدرها.

ولكي تجمع حولها كل هذا الجمع من شعبنا الذين يشغلهم دومًا الترحال، وينطلقون في ترحالهم عدوًا على الدوام، هنا وهناك لأسباب غير واضحة كل الوضوح، لا تحتاج يوزيفين إلى أن تفعل سوى أن تتخذ وقفتها؛ رأسها ملقى إلى الخلف، وفمها نصف مفتوح، وعيناها قد تحولتا إلى الأعلى، في الوضع الذي يشير إلى نيتها في أن تغني. في وسعها أن تفعل ذلك حيث تشاء، ولا حاجة لها في أن يكون المكان مرئيًا من على البعد، فأي ركن منعزل يجري اختياره في لحظة نزوة مفاجئة يمكن أن يفي بالغرض. وتطير الأخبار التي تفيد بأنها سوف تقوم بالغناء في كل الأنحاء في الحال، وسرعان ما تكون مواكب شاملة قد اتخذت طريقها إلى هناك. ومع ذلك، فأحيانًا ما تتدخل عقبات، وأكثر ما تحبه يوزيفين هو أن تنهض قائمة للغناء بالضبط عندما تكون الأحوال أشد اضطرابًا، وتجبرنا المشاكل والأخطار عندئذ على أن نتخذ لمواجهتها سبلًا ملتوية، وبأفضل إرادة في العالم لا يمكننا أن نحشد أنفسنا بالسرعة التي تريدنا بها يوزيفين أن نحتشد، وفي أحيان كانت تقف هنالك في حالة احتفالية لوقت طويل من دون أي جمهور كاف –ثم تصبح مهتاجة حقًا، وتدق الأرض بقدميها، وهي تقسم على نحو أبعد ما يكون لياقة في صدوره عن عذراء. وكانت تعض فعلًا، لكن حتى مثل هذا التصرف لم يسبب ضررًا لسمعتها. وبدلًا من أن تكبح قليلًا طلباتها الزائدة فإن الناس قد بذلوا جهدهم لتلبية مطالبها، فكان الرسل يُرسلون بعيدًا لكي يستدعوا مستمعين جددًا، وبقيت مبعدة عن العلم بذلك الذي كان يجري عمله من أجلها، وعلى الطرق كان يمكن رؤية حراس واقفين يلوّحون للقادمين الجدد، يلحون عليهم بالإسراع، ويستمر هذا الجهد حتى يتم جمع جمهور كبير إلى حدٍّ كافٍ.

فما الذي كان يدفع الشعب إلى بذل مثل تلك الجهود من أجل يوزيفين؟ ليست

الإجابة على هذا التساؤل بأسهل من الإجابة عن السؤال الأول عن غناء يوزيفين، والذي يرتبط به ارتباطًا وثيقًا. وباستطاعة المرء أن يحذف هذا التساؤل، ويربطهما معًا في التساؤل الثاني، لو كان من الممكن أن يتم الجزم بأن شعبنا بسبب غنائها قد كرس نفسه ليوزيفين تكريسًا بلا شروط. إلّا أن هذا ببساطة ليس هو الحال، فالتكريس بلا شروط لا يكاد يكون معروفًا بيننا، وشعبنا شعب يحب المكر فوق كل شيء. من دون أي ضغينة تأكيدًا، والهمسات الطفولية، والمحادثة، يحب شعبنا المحادثة البريئة الظاهرية بكل تأكيد؛ إلّا أن شعبنا بنوعيته هذه، لا يمكنه أن ينزلق إلى تكريس نفسه بغير شروط، وأن يوزيفين نفسها تشعر بهذا بلا شك، وهو ما يجعلها تحاربه بكل قوة حنجرتها الواهنة.

وبإعلان مثل هذه الآراء الشخصية التعميمية، بالطبع، ليس للمرء أن يبالغ فيذهب في المبالغة بعيدًا كل البعد؛ فشعبنا هو -مع ذلك- شعب مكرس ليوزيفين، لكنه فحسب ليس تكريسًا بلا شروط. مثلًا لا يمكن للجماهير أن تقدر على الضحك من يوزيفين. ومما يمكن التسليم به، أن لدى يوزيفين الكثير مما يبعث المرء على الضحك لمجرد الضحك ليس بعيدًا عنا قط كل البعد، فعلى الرغم من كل البؤس الذي تترع به حياتنا، فإن الضحك الهادئ هو دائمًا -كما يقال- في متناول أيدينا، إلّا أننا لا نضحك من يوزيفين. وكم من مرة جاءني الانطباع بأن شعبنا يفسر علاقته بيوزيفين على هذا النحو، بأنها هذه المخلوقة الواهنة التي تحتاج إلى الحماية، وأنها بشكل ما مخلوقة استثنائية، مرموقة في رأيها هي الخاص لموهبتها في الغناء، يعهد بها إلى رعايتهم، وأنهم لا بد أن يولوها بالرعاية؛ وليس السبب في ذلك واضحًا لأيّ فرد، فقط هي حقيقة يبدو أنها قد ترسخت، إلّا أن ما عهد به إلى رعاية، لا يمكن للمرء أنْ يضحك منه، وإن يضحك منه المرء سيكُن إهمالًا للواجب. إن أقصى الحقد الذي قد يكنّه أكثر الحاقدين

على يوزيفين، هو أن يقول بين الحين والآخر إنّ: «رؤية المرء ليوزيفين تكفي لكي تجعل المرء يكفّ عن الضحك».

وعلى هذا فإن الشعب يرعى يوزيفين كما يرعى الأب طفلًا امتدت يده الصغيرة –ولا يدري المرء ما إذا كانت هذه اليد قد امتدت تلتمس طلبًا أو تصدر أمرًا- إلى هذا الأب، وقد يظن المرء أن شعبنا ليس مؤهلًا لأن يؤدي مثل هذه الواجبات الأبوية، لكن في الحقيقة، تؤدي جماهيرنا هذه الأعباء، على الأقل في هذه الحالة بذاتها على نحو يثير الإعجاب، ولا يمكن لفرد وحده أن يقدر على القيام في هذا الشأن بالعبء الذي يمكن للشعب ككل أن يقدر على فعله. ولا شك أن الفارق في القدرة التي يقدِر الشعب على القيام بها وبين قدرة الفرد، هو فارق هائل حتى إنه يكفي الصغير أن ينجذب إلى الاقتراب من دفء الجماهير ويكون بهذا قد وجد الحماية بما يكفي. ويقينًا لا يذكر أحد ليوزيفين مثل هذه الأفكار، فهي عندئذ تقول: «إن حمايتكم لا تستحق منّي أغنية قديمة». نعم، نعم نفس الصفير القديم فيما نظن. وبالإضافة إلى ذلك فإن احتجاجها ليس إنكارًا حقيقيًا، بل هو طريقة طفولية تمامًا في التكذيب، والاعتراف الطفولي في الوقت نفسه بالجميل، بينما طريقة الأب في تحمل العبء هو ألا يعير ذلك أي اهتمام. إلّا أن ثمة شيء آخر خلف ذلك، وهو ما لا يسهل توضيحه بواسطة هذه العلاقة بين الشعب وبين يوزيفين؛ فيوزيفين ترى نقيض ذلك تمامًا، فهي تعتقد أنها هي التي تحمي الشعب، فعندما نكون في حالة سيئة سياسيًا أو اقتصاديًا، فغناؤنا عندئذ إنما يقصد به إنقاذنا، ولا شيء آخر أقل من ذلك، فإن لم يصرف غناؤنا الشر بعيدًا عنا، فهو على الأقل يمنحنا القوة على تحمله. إنها لا توضح ذلك بهذه الكلمات أو بأي كلمات أخرى، فهي لا تقول إلّا القليل على أي حال، إنها صموت وسط من يتحادثون، إلّا أن هذا المعنى إنما يشع من عينها، وفوق شفتيها

المطبقتين -فالقلائل من بيننا من يقدرون على الاحتفاظ بشفاههم مطبقة- إلّا أنها كانت تقدر على إطباق شفتيها، ويمكن تبين ذلك في وضوح؛ ففي أي وقت تجيئنا أخبار سيئة وفي أيام كثيرة تجيء الأخبار السيئة كثيفة ومتسارعة في وقت معًا، تنضم إليها أكاذيب أيضًا وأشباه حقائق، تنهض هي في الحال واقفة، على حين أنها عادة ما تجلس على الأرض فاقدة الهمة؛ تنهض واقفة وتمد رقبتها وتحاول أن تتطلع فوق رؤوس قطيعها كما يفعل أحد الرعاة قبل وقوع عاصفة رعدية، ولا شك أنها عادة من عادات الأطفال، بطريقتهم الجامحة المندفعة في اصطناع دعاوى من هذا القبيل، إلّا أن دعاوى يوزيفين ليست كدعاوى الأطفال بلا أي أساس تقوم عليه. حقًا هي لا تقوم بإنقاذنا، وهي لا تمنحنا أي قوة؛ وإنه لمن السهل أن يتخذ امرؤ لنفسه وضع المنقذ لشعبنا، متمرسًا مثلهم على ملاقاة المكاره، فهم لا يبخلون بحياتهم، مسرعين في اتخاذ القرار، وعلى معرفة تامة بالموت، هيابون فقط فيما يبدو في غمار أجواء الجرأة الطائشة التي يتنفسونها على الدوام. ومنتجون فضلًا عن ذلك بقدر ما هم مغامرون –وأقول إن اتخذ فرد ما لنفسه بعد وقوع الحدث وضع المنقذ لشعبنا، الذي تمكن دائمًا على نحو ما من أن ينقذ نفسه، على الرغم من ذلك يتم ذلك في مقابل تضحيات تصيب الباحثين المؤرخين بالرعب- ونتجاهل عمومًا في حديثنا كل التجاهل ذكر البحث التاريخي. ومع ذلك فمن الحقيقي أننا -فقط في أوقات الطوارئ- نستمع على نحو أفضل من استماعنا في الأوقات الأخرى إلى صوت يوزيفين. فالتهديدات التي تلوح فوقنا تجعلنا أكثر هدوءًا، وأكثر تواضعًا وأكثر خضوعًا لسيطرة يوزيفين، فنحن نحب عندئذ أن نتجمع إلى بعضنا البعض، نحب أن نحتشد أحدنا لصق الآخر، خاصة في مناسبة منفصلة عن الاضطرابات التي تشغل بالنا؛ إننا كما لو كنا نشرب بكل اللهفة. نعم، التعجل ضروري -يوزيفين تنسى ذلك مرارًا كثيرة

للغاية- نشرب كلنا معًا من كأس مترعة بالسلام قبل المعركة. إنه ليس أداء لأغنيات كتجمع شعبي، تجمع حيث فيما عدا ما يتعلق بالصوت الصغير المصفِّر في مقدمة الجمع -يسود سكون تام، فالوقت عندئذٍ يكون بالنسبة لنا أكثر خطورة علينا لكي نضيعه في التحادث.

إن علاقة من هذا النوع بالطبع لن تقنع يوزيفين. وعلى الرغم من كل القلق العصبي الذي يملأ يوزيفين؛ لأن وضعها لم يحدث له أن تحدد أبدًا، فهناك لا يزال الكثير الذي لا تراه، وقد أعماها غرورها الذاتي، ويمكن لها بسهولة أن يتم لها صَرْف النظر عن المزيد، فثمة أسراب المتملقين حولها مشغولون دائمًا بإيصالها إلى هذه الغاية، ويقدمون بهذا في الحقيقة خدمة عامة -ومع ذلك لكي تكون فقط مؤدية وقتية مغمورة في ركن في حشد شعبي، من أجل هذا، على الرغم من أنه في حد ذاته لن يكون شيئًا هينًا-، لا شك أنها لن تهبنا هبة من غنائها.

إلّا أنها لا تحتاج إلى أن تفعل ذلك؛ لأن فنها لن يذهب دون أثر. فعلى الرغم من أننا في أعماقنا منشغلو البال بأشياء أخرى تمامًا، وأنه ليس فقط من أجل غنائها بالمرة أن السكون يسود، وأن كثيرًا من المستمعين لا يكادون حتى يتطلعون إلى أعلى، بل يدفنون وجوههم كل منهم في فروة الآخر، حتى إن يوزيفين وهي مرتفعة في أعلى تبدو كما لو أنها تجهد نفسها لغير هدف، إلا أن ثمة شيء مع ذلك -لا يمكننا أن ننكر ذلك- يشق طريقه إلى أعماقنا برغم أي عائق، شيء من صفير يوزيفين. هذا الصفير الذي يتصاعد في حين يلتزم الصمت كل كائن آخر، شيء يأتي في الأغلب كرسالة من كل الشعب إلى كل فرد؛ فصفير يوزيفين الواهن في غمار القرارات الخطيرة يشبه على الأغلب وجود شعبنا المستهدف وسط اضطرابات عالم عدواني. إن يوزيفين لتجهد نفسها، وهو ما لا يعد شيئًا

من حيث الصوت وهو لا يعد شيئًا قط في الأداء، إنها تؤكد وجودها، وتعبر طريقها إلينا. وإنه ليفيدنا أن نفكر في ذلك. هي مغنية، متمرسة حقًا، لو كان في الإمكان وجود مثل تلك المغنية في وسطنا، فهو ما ليس باستطاعتنا أن نحتمله في مثل ذلك الوقت، وسيكون علينا بالإجماع أن نستدير منصرفين عن انعدام مغزى مثل ذلك الأداء. وعسى يوزيفين أن تنجو من إدراك أن مجرد حقيقة استماعنا إليها، هي برهان على أنها ليست مغنية، إن حدسًا بذلك لا بد أنه لديها، وإلّا فلماذا تنكر بمثل ذلك الانفعال أننا بالفعل نستمع إليها، إنها تواصل غناء وصفير حدسها إلى أبعد ما يمكنها ذلك، إلّا أن هناك أمورًا أخرى يمكنها أن تجلب لها العزاء؛ فنحن بالفعل نستمتع إليها بمعنى من المعاني، ربما إلى الحد الذي يستمع به المرء إلى مغنية مدربة، وهي تحصل على تأثيرات قد تحاول مغنية مدربة عبثًا أن تحققها بيننا، ويتم لها تقديمها فقط؛ لأن وسائلها لذلك هي وسائل قاصرة للغاية. والمسؤول الأساسي على هذا هو بلا شك، أسلوب حياتنا.

فوسط شعبنا لا يوجد عمر للشباب، ويوجد بالكاد أقصر فترة طفولة، وتقوم، في الحقيقة، بانتظام مطالب بأن الأطفال لا بد من إتاحة حرية خاصة بهم؛ حماية خاصة، وأن لهم الحق في أن يكونوا بعيدًا عن الهمّ قليلًا. وأن يكون لهم، إلى حد ما، طيش بلا معنى، وقليل من وقت اللعب، وأن هذا الحق يجب أن يحظى بالاحترام، وأن تشجع ممارسته. مثل هذه المطالب قد تم تقديمها، وكل واحد تقريبًا قد وافق عليها، ولا يوجد أي شيء، يمكن لأحد أن يوافق عليه أكثر من ذلك، إلّا أنه لا يوجد شيء هنالك أيضًا في واقع حياتنا اليومية يمكن أن يلقى أقل تسليم به من هذه المطالب؛ إنّ المرء ليوافق عليها، ويبذل محاولات لتحقيقها، لكن سرعان ما تعود كل الأساليب القديمة مرة أخرى. إن حياتنا قد اتفق لها أن تمضي على أنّ طفلًا ما فيها، ما إن استطاع أن يجري قليلًا هنا

وهناك، وما إن أمكنه تمييز أي شيء من آخر، فلا بد له من أن يعتني بنفسه تمامًا مثلما يتوجب ذلك على أي راشد، كما أن المساحات التي فوقها نستقر متناثرين لأسباب اقتصادية هي مساحات بالغة الاتساع، وأعداؤنا عديدون للغاية، والأخطار التي تكمن في انتظارنا في كل مكان لا يمكن حصرها –ولا يمكننا نحن أن نحمي أطفالنا من خوض غمار صراع الوجود، ولو فعلنا ذلك، فلا بد أن يؤدي بهم ذلك إلى قبر عاجل. هذه الاعتبارات المؤسية يزيد من شدتها اعتبار آخر، وهو ليس اعتبارًا محبطًا؛ ذلك هو خصوبة جنسنا. إن جيلًا- وكل جيل هو بالغ في تعداده –ليخطو كل منهم فوق حافر كعوب جيل آخر غيره، والأطفال ليس لديهم وقت ليكونوا أطفالًا. أجناس أخرى غيرنا قد يُربّى أطفالهم بعناية، قد تقام المدارس لصغارهم، ومن هذه المدارس قد يخرج الأطفال متدفقين يوميًا، هم مستقبل الجنس، إلّا أن بينهم يكون الأطفال دائمًا أنفسهم الذين يخرجون يومًا بعد يوم على امتداد وقت طويل. ليس لدينا أي مدارس، لكن من جنسنا يتدفق في أقصر الفترات أسرابًا لا عدد لها من أطفالنا، يلثغون في هناء أو يشقشقون لها ما داموا لا يمكنهم بعد القيام بالصفير، يتدحرجون أو يتشقلبون في تقدمهم بمجرد القوة الدافعة وحدها، ما داموا لا يمكنهم الجري، يحملون على نحو أخرق كل شيء أمامهم حسب كتلة وزنه ما دام ليس في إمكانهم الرؤية.. هؤلاء هم أطفالنا! وليسوا هم نفس الأطفال مثل الذين في تلك المدارس، لا، هم أطفال جدد دائمًا، المرة بعد المرة، بلا نهاية، بلا انقطاع. وما يكاد يظهر طفل حتى إنه لا يصبح طفلًا بعد، على حين أن وجوهًا طفولية جديدة خلفه تكون قد تراكمت بالفعل بغاية السرعة بكثافة بالغة حتى ليصعب تمييزها من بعضها البعض، متوردون بالسعادة. حقًا أيًا ما تكون مبهجة هذه الوجوه، وأيًا ما تكون كثرة الآخرين الذين يحسدوننا عليها، وبحق، أننا لا يمكننا أن نمنح ببساطة طفولة

حقيقية لأطفالنا، وهذا أمر له عواقبه. نوع من الطفولة التي لا تنفد، والتي يتعذر استئصالها تعم شعبنا؛ في مناقضة لما هو جيد فينا –وهو إدراكنا العملي الذي لا يخطئ، ونحن غالبًا ما نسلك بأقصى الحماقة، تمامًا بنفس حماقة الأطفال، بلا معنى، بتخريب، بمبالغة، بلا تحمل لمسؤولية، وكل ذلك غالبًا من أجل بعض التسلية العارضة. وعلى الرغم من أن استمتاعنا بها لا يمكن بالطبع أن يكون قلبيًا مخلصًا كاستمتاع الطفل، فإن شيئًا من ذلك يتبقى في هذه التسلية بلا شك. ومن طفولية شعبنا هذه استفادت يوزيفين أيضًا منذ البداية.

إلّا أن شعبنا ليس طفوليًا فقط، فنحن أيضًا بمعنى ما عجائز قبل الأوان، فالطفولة وتقدم السن تجيئنا كما لا تجيء للآخرين. فليس لنا مرحلة شباب، وإنما نحن فورًا وفي الحال بالغون، ومن ثم نظل بالغين لوقت طويل جدًا، وينتشر عن ذلك ملل ما، ويأس يترك خلفه أثرًا عريضًا عبر طبيعة شعبنا، صارمًا وعنيفًا في تعقبه للأمل الذي هو ما يجرجره ذلك اليأس خلفه بصورة عامة. إنّ افتقارنا إلى هبة الموسيقى لها بالتأكيد ارتباط ما بهذا؛ فنحن شائخون جدًا بالنسبة للموسيقى، وإثارتها، ونشوتها لا تتناسب مع تثاقلنا، ولهذا فنحن نشيح لها بيدنا كي تبتعد عنا بعيدًا، ونحن نقنع أنفسنا بالصفير؛ قليل من الصفير هنا وهناك، وهذا ما يعد كافيًا لنا. ومن يدري، ربما توجد مواهب موسيقية وسطنا، لكن لو كانت موجودة بيننا، فإن طابع شعبنا سوف يخمد هذه المواهب قبل أن يدركها التفتح. ويوزيفين من ناحية أخرى، يمكنها أن تطلق الصفير بقدر ما يسعها ذلك، أو تغني أو ما يقدر لها أن تسميه، فهذا لا يزعجنا، إن هذا ليناسبنا، وهذا هو ما يمكننا تمامًا أن نتحمله؛ وأي موسيقى قد تكون كامنة فيه تكون قد انخفضت إلى أضعف أثر ممكن؛ لقد تم لنا الاحتفاظ بتراث معين ما من الموسيقى، إلّا أن ذلك لم يترتب عليه أي تبعات قد تقع على عاتقنا. إلّا أن شعبنا

بكونه ما هو عليه، لا يزال يحصل على أكثر من هذا من يوزيفين؛ ففي حفلاتها الموسيقية -وخاصة في أوقات الشدة- يكون الصغار جدًا هم فقط من يهتمون بغنائها كغناء، هم وحدهم يحدقون في دهشة، بينما تزم هي شفتيها، وتنفث الهواء بين شفتيها بين أسنانها الأمامية الجميلة، وتنتشي إغماءً في دهش شفاف للأصوات التي تصدرها هي نفسها، وبعد مثل ذلك التزايل الذي ينتابها، يتضخم أداؤها ويعلو إلى ارتفاعات جديدة ولا معقولة إلى حد زائد لا يكاد يصدقه أحد، بينما كتلة الجمهور الحقيقية -ويبدو هذا واضحًا للعيان- يكونون منسحبين تمامًا إلى داخل ذواتهم. هنا في الفترات القصيرة فيما بين صراعاتهم يحلم شعبنا، وإنه كما لو أن أعضاء جسم كل فرد في ذلك الجمهور قد انفكت، كما لو أن الفرد المنهك الذي يضيق بالهجمات المتكررة التي تدفعه وتسوقه أمامها، يمكنه مرة من حين لآخر أن يسترخي ويمدد نفسه على راحته في فراش الدفء الهائل للمجتمع. وفي داخل هذه الأحلام تتساقط نغمات صفير يوزيفين لحنًا فلحنًا، إنها تدعوها قطرات أشبه باللؤلؤ المنظوم. ونسميها نحن قطرات متقطعة لافتقارها إلى الترابط. لكن على أي حال، فها هي هنا في مكانها الصحيح، الذي ليس كأي مكان آخر.. واجدة اللحظة التي تنتظرها كما لا تكاد تعثر الموسيقى مطلقًا على لحظة كتلك، موسيقى فيها شيء من طفولتنا القصيرة البائسة، شيء من السعادة المفقودة التي لا يمكن أن توجد مرة أخرى، بل فيها أيضًا شيء من الحياة اليومية الفعالة، من مسراتها الصغيرة، التي لا تكاد تقبل التعليل، لكنها تنبثق من الأعماق ولا يمكن محوها. وكل هذا حقًا يتم التعبير عنه لا في لحن تام متجسد، بل بنعومة، في همسات، وديًا، وأحيانًا في بحة صغيرة. بالطبع هي نوع من الصفير. ولم لا؟ إن الصفير هو حديث شعبنا اليومي، فكم من واحد منا يصفر طوال حياته كلها ولا يدري أنه يفعل ذلك، حيث الصفير هنا يكون قد تحرر من

قيود الحياة اليومية، ويقوم بتحريرنا نحن أيضًا لوقت قصير ما. ولا شك أننا لا ينبغي لنا أن نرغب في الاستغناء عن تلك الأداءات الموسيقية.

لكنها رحلة طويلة، طويلة بدءًا من هذه اللحظة، لدعوى يوزيفين بأنها تمنحنا قوة جديدة وهكذا، و.. ما إلى ذلك. رحلة طويلة بالنسبة للعامة العاديين على الأقل، وليس لقافلتها من المنافقين؛ فهم يقولون بكل الوقاحة المنمقة التي لا تعرف الخجل: «كيف إذن يمكن لك خلافًا لما تقوله أن تعلل تجمع الجماهير الهائلة من المستمعين إليها، خاصة عندما يكون الخطر فوق رؤوسنا أشد ما يكون، والذي يكون مرارًا عديدة زائدة قد أعاق اتخاذ أي احتياطات لازمة في وقتها المناسب لدرء الخطر». إن هذا التقرير الأخير هو الآن -لسوء الحظ- حقّ، لكنه لا يكاد يكون معدودًا كسند من بين ما يسند ليوزيفين حقها في الشهرة، وخاصة إذا اعتبرنا أن مثل هذه التجمعات الهائلة كانت على نحو غير متوقع قد تم اكتساحها بواسطة العدو، وأن الكثيرين من شعبنا قد انتهى بهم ذلك الاكتساح إلى السقوط موتى، إنّ يوزيفين، التي كانت هي المسؤولة عن ذلك كله، والتي ربما كانت هي التي اجتذبت العدو بصفيرها، وأنها احتلت دائمًا أكثر الأماكن أمنًا، وكانت دائمًا هي أول من ينطلق بعيدًا في هدوء وفي سرعة تحت ستار من مرافقيها. ومع أن كل واحد يعرف هذا حقًّا، إلا أن الجماهير لا تزال تواصل الإسراع إلى أي مكان تقرره يوزيفين فيما تلا ذلك، وفي كل وقت تقرر فيه أن تنهض واقفة لكي تغني. ويمكن للمرء أن يتخذ ذلك برهانًا على أن يوزيفين تكاد تكون على الأغلب مستثناة من القانون، وأنها يمكنها أن تفعل ما تريده، على حساب المخاطرة بتعريض المجتمع بالفعل للخطر، وأنها سوف تحصل على العفو لكل شيء تقوم بعمله. فلو كان الأمر كذلك، فإن دعاوى يوزيفين ستكون مفهومة تمامًا، نعم، في هذه الحرية التي تتاح لها، وهذه الموهبة الخارقة

للعادة التي وهبت لها، وليس لأي أحد غيرها، في انتهاك القوانين مباشرة، يمكن للمرء أن يرى تسليمًا بقضية أن الشعب لم يفهم يوزيفين تمامًا ،كما تزعم هي، وأن الجماهير إنما تعجب بفنها بلا حيلة، ويشعر الجميع بأنهم غير جديرين به، ويحاولون أن يلطفوا الأسف الذي تثيره فيهم بتضحيات يائسة حقًا من جانبهم لأجلها، وللمدى البالغ نفسه، يشعرون بأن فنها خارج عن مجال إدراكهم، ويعتبرون أن شخصيتها ورغباتها إنما تقع كلها خارج حدود قدرتهم في الحكم على دعاواها. حسنًا، ببساطة هذا ليس صحيحًا على الإطلاق، ربما كأفراد قد يستسلم الشعب بسهولة بالغة ليوزيفين، لكن الشعب ككل لا يستسلم استسلامًا غير مشروط لأي أحد، ولا حتى لها هي أيضًا.

منذ وقت طويل مضى، ربما منذ بداية مشوارها الفني نفسه –كانت يوزيفين تحارب في سبيل إعفائها من كل الأعمال اليومية بسبب غنائها، وأنه ينبغي أن يتم تحريرها من مسؤولية كسبها لخبزها اليومي. وأن تكون لهذا منشغلة في الصراع العام من أجل الوجود، الذي فيما يبدو سوف ينتقل من أجلها إلى الشعب ككل. وقد يجادل متحمس متسرع –وكان هناك أمثال هذا المتحمس- من مجرد عدم اعتياد مثل هذا المطلب، من وجهة النظر الروحية اللازمة لتغليف هذا المطلب، إنه مطلب يتضمن مبرره الداخلي، إلّا أن شعبنا يستنتج منه نتائج أخرى ويرفضه في هدوء، كما أنه لا ينشغل كثيرًا بدحض الادّعاءات التي يقوم على أساسها هذا المطلب. وتحاول يوزيفين أن تبرهن مثلًا أن الإجهاد في العمل ضار بصوتها، وأن إجهاد العمل بالطبع لا يعد شيئًا بالنسبة لإجهاد الغناء، إلا أنه يمنعها من أن تكون قادرة على أن تستريح بما فيها الكفاية بعد الغناء، وأن تتعافى بتعويض الجهد لمزيد من الغناء، فعليها أن تستنفد طاقتها تمامًا، إلا أنها في هذه الظروف لا يمكنها أن ترتفع إلى قمة إمكانياتها، ويستمع الشعب إلى جدالها ولا

يلقي بالًا؛ فشعبنا الذي يمكنه بسهولة بالغة أن ينفعل، لا يمكنه أحيانًا أن يتأثر على الإطلاق. ورفض جماهيرنا أحيانًا ما يكون رفضًا حاسمًا، حتى إن يوزيفين تصدم لمفاجأتها بهذا الرفض، ويبدو عليها وكأنها تستسلم، وتقوم بأداء نصيبها المقرر من العمل اليومي، وتغني كأفضل ما يمكنها أن تغني، إلّا أن ذلك يكون لفترة ما فحسب، ثم بقوة متجددة –فلهذا الهدف تبدو طاقتها غير قابلة للنفاد، وسرعان ما تشرع ثانية في الحرب.

والآن يبدو واضحًا أن ما تريده يوزيفين حقًّا، ليس بالضبط هو ما عبرت عنه بالكلمات. إن لها كرامة، وليست هي من ينفر من العمل. إن التهرب من العمل في أي حالة ليس معروفًا بيننا بالمرة، فلو أنّ التماسها قد لاقى قبولًا، لكانت تعيش نفس الحياة كما عاشت من قبل، فعملها لن يقف مطلقًا عقبة في طريق غنائها، كما أن غناءها لم يكن ليصبح أفضل بأي حال. إن ما تريده هو الجمهور، تريد اعترافًا دائمًا، غير ملتبس بفنها، وتريد أن تتخطى أي مسابقة قد عرفت حتى الآن. لكن بينما يبدو كل شيء آخر في متناول يدها، فإن ذلك يراوغ بلوغها إياه بإصرار. ربما كان عليها أن تتخذ خطًا مختلفًا للهجوم منذ البداية ربما هي نفسها ترى أن تناولها كان خاطئًا، لكنها لا يمكنها الآن أن تتراجع، فأن تتقهقر سيكون خيانة ذاتية، فلا بد لها الآن من أن تثبت في وقفتها أو أن تسقط بالتماسها.

Telegram:@mbooks90

لو كان لها أعداء حقًّا، كما تؤكد، فإن في مقدورهم أن يحصلوا على الكثير من التسلية من مراقبة هذه المعركة، دون أن يكون عليهم أن يرفعوا أصبعًا. إلا أنها ليس لها أعداء. وحتى على الرغم من أنها غالبًا ما يجري انتقادها، هنا وهناك، فإن أحدًا لا يرى هذا الصراع الذي تثيره صراعًا مسليًا، لمجرد حقيقة أن الناس يظهرون هنا في موقفهم البارد اللا مبالي بإصدار الأحكام، وهو الموقف الذي

نادرًا ما يرى بيننا. وأيًا ما كانت موافقة المرء على هذا الموقف في مثل هذه الحالة، فإن مجرد فكرة أن مثل هذا الموقف قد ينقلب على نفسه يومًا ما هو ما يمنع وجود أي تسلية. والأمر الهام سواء في رفض الشعب، أو في التماس يوزيفين، ليس هو الفعل في حد ذاته في كلا الجانبين، لكنه حقيقة أن الشعوب قادرة على أن تمثل جبهة حجرية منيعة لواحد من بينهم، وتعد هذه الجبهة، جبهة عصية للغاية على الاختراق؛ لأن الشعب في نواح أخرى يظهر رعاية أبوية متلهفة، بل يظهر ما هو أكثر من الرعاية الأبوية فيما يخص ذلك الزميل نفسه.

ولنفترض أنه -بدلًا من الشعب- كان لدى المرء فرد ما ليتعامل معه، قد يتصور المرء أن هذا الشخص كان قد خضع ليوزيفين طوال الوقت، بينما هو في داخله يكن رغبة جامحة لأن يضع حدًا لخضوعه هذا في يوم مشهود، وأنه قد قام بتضحيات لا يطيقها إلّا من طاقتهم فوق طاقة البشر من أجل يوزيفين، مع اعتقاده الراسخ بأن هناك حدودًا طبيعية لطاقته على التضحية؛ نعم، أنه كان قد ضحى بأكثر مما تتطلبه الحاجة لمجرد أن يقوم بدفع القضية على نحو أسرع، لمجرد أن يفسد يوزيفين. وأن يشجعها على أن تطلب المزيد والمزيد، حتى تبلغ بطلباتها في الحقيقة، ذلك الحد الذي بلغته بذلك الالتماس الأخير الذي التمسته؛ وأنه عندئذ قد قطع عليها طريقها برفض نهائي، رفض مقتضب، لكنه كان رفضًا مكبوتًا في حالة التحفظ الطويلة. والآن فإن هذا بلا شك ليس هو الكيفية التي يقوم عليها الأمر، فالشعب لا حاجة به إلى مثل هذا المكر. علاوة على أن احترام الناس ليوزيفين هو تبجيل قد صمد طويلًا للتجربة، هو تبجيل صادق، وطلبات يوزيفين هي -فوق كل شيء- طلبات بعيدة المنال، حتى إنّ أي طفل بسيط كان بمقدوره أن يخبرها بما يمكن أن تنتهي إليه طلباتها؛ إلّا أن مثل هذه الاعتبارات تدخل في نطاق طريقة يوزيفين في معالجة الأمر، وبهذا تضيف مرارة بعينها إلى

مرارة أنها طلبات قد تم رفضها.

لكن مهما كانت آراؤها عن الموضوع، فهي لم تتح لهم أن يمنعوها من متابعة الحملة، وأخيرًا كثفت هجومها، واستخدمت حتى الآن الكلمات وحدها كأسلحة، لكنها من الآن تبدأ في اللجوء إلى وسائل أخرى، تظن أنها سوف تثبت فعالية أشد، إلا أننا نظن أنها بذلك سوف تدفع نفسها إلى أخطار أكبر.

يعتقد الكثيرون أن يوزيفين يزداد إلحاحها للغاية؛ لأنها تشعر بأنها تتقدم في العمر، وأن صوتها يتداعى، ولهذا فهي تظن أن الوقت قد حان لأن تشن المعركة الأخيرة من أجل الاعتراف بفضلها. أنا لا أصدق؛ فيوزيفين لن تكون يوزيفين لو كان هذا صحيحًا. فبالنسبة لها ليس ثمة ما يُسمَّى تقدم في العمر، ولا يوجد شيء يُسمَّى تداعي في صوتها. فلو تقدمت بمطالب فليس ذلك بسبب ظروف خارجية، بل بسبب منطق داخلي. إنها تسعى من أجل أعلى إكليل للزهر وليس بسبب أن إكليل زهرها يوجد مؤقتًا في وضع أدنى قليلًا؛ بل بسبب أنه الأعلى؛ فلو كان لها ما تقوله في الأمر، فإنها تتطلب أن يكون أكثر غلوًا.

هذا الازدراء للمصاعب الخارجية، لا يعوقها بالتأكيد عن استعمال أشد الوسائل بُعدًا عن جدارة الاستحقاق. إن حقوقها تبدو لها غير موضع للسؤال؛ وعلى هذا فماذا يهم كيف يمكنها أن تضمن نيلها؟ وخاصة ما دام أنه في هذه الدنيا، كما تراها هي، يكون مآل استخدام الوسائل النزيهة هو الفشل. ربما يكون هذا هو السبب في أنها حولت المعركة من أجل حقوقها، من حقل الغناء إلى مجال آخر لا تهتم بأمره سوى بالقليل.

وقد أشاع أنصارها، طبقًا لما أعلنته هي نفسها، أنها تشعر بأنها قادرة على الغناء

على نحو يمكنه أن يجعل كل مستويات الجمهور -وإلى أقصى أركان المعارضين لها حتى- يجدون متعة حقيقية، متعة حقيقية ليست بالمقاييس الشعبية؛ ذلك أن جماهير الشعب يؤكدون بأنهم كانوا قد تمتعوا دائمًا بغنائها، لكن سيكون الاستمتاع بمقاييسها هي الخاصة. وتضيف مع ذلك أنها ما دامت لا تستطيع أن تقوم بتزييف أعلى المقاييس كما لا يمكنها أن تسقط إلى أدناها، فإن غناءها سيكون عليه أن يبقى كما هو. إلا أنه عندما يتطرق الأمر إلى حملتها من أجل الإعفاء من العمل، فإننا نحصل على حكاية مختلفة، ذلك أنها بالطبع أيضًا حملة لصالح غنائها، إلا أنها لا تحارب حربًا مباشرة باستخدام السلاح الذي لا يقدر بثمن وهو أغنيتها. وعلى هذا فإن أي أداة تستخدمها هي أداة صالحة بما يكفي.

ولهذا، على سبيل المثال، انتشرت الإشاعة بأن يوزيفين قصدت أن تختصر التلوين الذي تلون به ألحانها، إن لم يتم التسليم بالتماسها. لا أعرف شيئًا عن التلوين اللحني، ولم ألحظ قط أي شيء من هذا التلوين في غناء يوزيفين. إلّا أن يوزيفين، سوف تختصر تلوينها، وهي لا تنوي أن تقتطعها في الوقت الحالي كلية، فقط هي تنوي أن تختصرها، وفيما يبدو فإنها قد نفذت تهديدها، مع أنني كواحد من الناس لم ألحظ أي اختلاف في أدائها. واستمع الشعب ككل على نحو ما اعتادوا في استماعهم إليها، دون أن يبدو من بينهم أي رأي فيما يتعلق بالتلوين اللحني، كما أن ردهم على مطلبها لم يختلف عن سابقه ذرة واحدة. ولا بد من التسليم مع ذلك، بأن طريقة يوزيفين في التفكير بالغة السحر مثلها مثل شكلها. وعلى هذا، على سبيل المثال، بعد قيامها بالأداء، تمامًا كما لو أن قرارها فيما يتعلق بالتلوين اللحني، قد كان شديد القسوة، أو أنه كان إجراء بالغ المباغتة ضد الشعب، أعلنت أنها في المرة التالية سوف تضيف كل التلوينات اللحنية ثانية. إلّا أنها في الحفلة التالية غيرت رأيها مرة أخرى. كان لا بد أن

توضع بصورة قاطعة نهاية لهذه الأنغام الرفيعة المتضمنة ألحان التلوين، وإلى أن يتم تحقيق مطلبها صراحة، فإن هذه الألحان لن تعود مرة أخرى قط. حسنًا، لقد سمح الشعب لكل هذه البلاغات، والقرارات، والقرارات المضادة الصادرة عنها، أن تدخل من أذن لتخرج من الأذن الأخرى، مثل شخص بالغ مستغرق في أفكاره يسلم أذنًا صمّاء إلى لغو أحد الأطفال، لغو لهجته ودية، لكنه ليس سهل المنال.

ومع ذلك لم تستسلم يوزيفين؛ فمنذ أيام، على سبيل المثال، زعمت أن قدمها قد أصيبت أثناء قيامها بالعمل، وعلى هذا كان من الصعب عليها أن تنهض واقفة لكي تقوم بالغناء، لكنها بما أنها لا يمكنها الغناء إلّا وهي واقفة، فإن أغنياتها الآن سوف يكون عليها أن تختصر، وعلى الرغم من أنها تعرج في مشيتها وتستند على أنصارها، إلّا أن أحدًا لم يصدق أنها قد أصابها العرج. وتسليمًا بأن جسدها الواهن هو جسد زائد الحساسية، إلّا أنها مع ذلك واحدة منا ونحن جنس من العمال، فلو بدأنا في العرج في كل مرة نصاب فيها بخدش، فإن الشعب كله لن يقضي عليه جميعه بالعرج قط. إلّا أنها على الرغم من أنها تترك نفسها تساق في تجولها كعرجاء، وعلى الرغم من أنها تظهر في هذه الحالة المحزنة أكثر من المعتاد، فإن الناس -على كل حال- يستمعون إلى غنائها شاكرين، ومقدرين، تمامًا كما كانوا من قبل، إلا أنهم لم يشغلهم كثيرًا اختصار أغانيها.

وبما أنها لا يمكنها أن تواصل العرج إلى الأبد على نحو بالغ الدقة، فقد فكرت في شيء آخر، فزعمت بأنها متعبة، وأنها ليست في حالة مزاجية للقيام بالغناء، وأنها تشعر بالإعياء، وعلى هذا فقد نلنا منها أداءً مسرحيًا تمامًا بالإضافة إلى أدائها الغنائي. إننا نرى أنصارها في الخلفية يلتمسون ويستعطفونها أن تغني، وسوف يسرها أن تتفضل بذلك، إلا أنها لا تستطيع. يقومون بترضيتها،

وينهالون عليها بألوان النفاق، ويكادون أن يحملوها حملًا إلى المكان المختار الذي يفترض أن تقوم فيه بأداء أغنياتها. وأخيرًا وقد انفجرت دموعها من دون تفسير استسلمت. لكن عندما وقفت لكي تغني، في نهاية كل حيلها فيما يبدو بوضوح، مرهقة، ذراعاها ليستا مفرودتين على آخرهما كعادتها، بل تتدليان إلى أسفل فاقدة الحياة، حتى إن المرء ليتكون لديه الانطباع بأنهما ربما أقصر قليلًا، وبمجرد أن كانت على أهبة أن تستهل الغناء، هنالك لم تتمكن من أن تفعل ذلك في آخر الأمر، وأوضحت لنا هزة لا إرادية من رأسها ذلك العجز، وانهارت أمام أعيننا، وتتمالك نفسها مرة أخرى بالتأكيد وتغني. وتخيلت أنا، كما اعتدت على ذلك كثيرًا، ربما لو أن واحدًا له أذن تلتقط الظلال الأكثر دقة في التعبير، لكان باستطاعته أن يستمع إلى أنها كانت تغني بإحساس غير معتاد، إحساس يتعالى مع ذلك ليبلغ درجة تشارف الكمال لتبدو هي في النهاية أقل إرهاقًا عما كانت عليه من قبل، وتخطو بخطوة ثابتة -لو كان باستطاعة المرء أن يستخدم هذا التعبير ليطلقه على مشيتها المتعثرة- تتحرك ماضية في مشيتها، رافضة كل مساعدة من أنصارها، وتقيس بعينين باردتين حجم الجمهور الذي يفسح لها الطريق باحترام.

حدث ذلك قبل يوم أو يومين؛ لكن آخر ما يتعلق بها هو أنها اختفت، بالضبط في وقت كان من المفترض فيه أن تغني. لم يكن أنصارها وحدهم هم من كانوا يبحثون عنها، فالكثيرون كانوا يكرسون أنفسهم في عملية البحث، لكن كان ذلك كله هباءً. لقد اختفت يوزيفين، وهي لن تغني، لن يدفعها التزلف إلى الأغنية، فهي قد هجرتنا تمامًا هذه المرة.

ويبدو من الغريب، كم هي مخطئة في حساباتها، تلك المخلوقة الماهرة،

مخطئة للغاية حتى إن المرء ليتخيل أنها لم تقم بعمل أي حسابات بالمرة، بل إنها كانت فقط مدفوعة في طريقها بواسطة قدرها الخاص، الذي لا يمكن في عالمنا أن يكون سوى قدر محزن. من تلقاء نفسها هجرت غناءها، ومن تلقاء نفسها حطمت القوة التي كانت قد اكتسبتها على قلوب الناس. فكيف تسنى لها أن اكتسبت تلك القوة، بما أنها لا تعلم سوى القليل للغاية عن قلوبنا هذه؟ إنها تخفي نفسها ولا تغني، إلّا أنّ شعبنا يواصل طريقه في هدوء، وبلا إحباط ملحوظ، شعب واثق بنفسه، في كامل التوازن، متملك لسلطته، حتى على الرغم من أن المظاهر مضللة، جماهيره يمكنها فقط أن تهب الهبات، لا أن تتلقاها، حتى من يوزيفين.

طريق يوزيفين مع ذلك، لا بد له أن يكون طريق انحدار. وسوف يجيء الوقت حالًا عندما تتردد ألحانها الأخيرة وتموت في الصمت. إنها حدث صغير عارض في سياق تاريخ شعبنا الأبدي، وسوف يتغلب الشعب على هذه الخسارة، ولا يعني ذلك أن الأمر سيكون سهلًا بالنسبة لنا، فكيف لتجمعاتنا أن تنعقد في صمت تام؟ ومع ذلك ألم يكونوا صامتين حتى عندما كانت موجودة؟ هل كان صفيرها الفعلي واضح الارتفاع، وأكثر حياة أكثر مما ستكون ذكراه؟ هل كانت حتى في أثناء حياتها أكثر من مجرد ذكرى بسيطة؟ وألم يكن ذلك بالأحرى لأن غناء يوزيفين وقد أصبح بفقدانه على النحو ولأنه مضى، أن شعبنا بحكمته قد قدره تقديرًا عاليًا إلى هذا الحدّ؟

ولعلنا على هذا لن نعاني الفقد البالغ بعد هذا كله، بينما يوزيفين وقد أعتقت من عبء الأحزان الأرضية، التي تكمن حسب تفكيرها في انتظار كل الأرواح المختارة، سوف تفقد نفسها بسعادة وسط الحشد الذي لا حصر لتعداده من

أبطال شعبنا، وسرعان -بما أننا لسنا مؤرخين- ما سوف تسمو إلى أعالي الفداء، وتنسى كنسيان كل إخوانها.

الحكم

كان صباح يوم أحد في ذروة فصل الربيع، وكان جيورج بندمان، وهو تاجر شاب جالس في حجرته في الطابق الأول من أحد بيوت صف طويل من المباني الصغيرة المتداعية التي تمتد إلى جوار النهر، والتي لا يكاد يتميز أحدها عن الآخر في شيء سوى الارتفاع واللون، كان قد فرغ لتوه من كتابة رسالة إلى صديق قديم كان يعيش الآن في الخارج، وكان قد وضع الرسالة في مظروف على نحو متباطئ وحالم، وبكوعيه مستندتين إلى منضدة الكتابة، كان يحدق إلى النهر خارج النافذة، وإلى الكوبرى، وإلى التلال على الشاطئ الأبعد بلونها الأخضر الواهن.

كان يفكر في صديقه الذي كان قد فرّ هاربًا إلى روسيا قبل بضع سنوات؛ لأنه لم يكن يتوقع إمكانية للنجاح في وطنه، وكان الآن يباشر عملًا من الأعمال في سانت بطرسبورج. كان عمله قد انتعش في بدايته، ولكنه أخذ منذ وقت طويل في الانحدار، كما أنه كان يتشكى من ذلك في أثناء زياراته المتزايدة الندرة لوطنه، وعلى هذا فقد كان يستهلك نفسه من غير جدوى في بلد غريبة، ولم تكن اللحية غير المألوفة التي أطلقها قد أخفت تمامًا الوجه الذي كان جيورج قد عرفه معرفة حقة منذ الطفولة، وكانت بشرته قد تزايد اصفرارها حتى لتشير إلى مرض خفي ما. ولمصلحته لم تكن له علاقة منتظمة بمستوطنة المهاجرين أمثاله من مواطنيه هناك، ولا تكاد تكون له أي علاقة اجتماعية مع العائلات الروسية. وعلى هذا كان قد رؤض نفسه على أن يبقى أعزب.

فما الذي يمكن أن يكتبه المرء لمثل هذا الرجل، الذي كان واضحًا أنه قد فرّ

إلى خارج الحدود، رجل قد يأسف المرء من أجله، لكن لا يستطيع أن يسانده، فهل ينبغي على المرء أن ينصحه بأن يعود إلى الوطن، وأن يعيد استزراع نفسه فيه، وأن يستعيد ثانية أصدقاءه القدماء –لم يكن ثمة ما يعوقه عن أن يفعل ذلك- وبصفة عامة أن يعتمد على مساندة أصدقائه؟ إلّا أن ذلك كان يعد من قبيل إخباره -وكلما كان ذلك بمزيد الرفق، كان عدائيًا أكثر- بأن كل جهوده حتى الآن قد أجهضت، وأن عليه أخيرًا أن يستسلم، وأن يعود إلى الوطن، ويكون هدفًا للتحديق في وجهه بأفواه مفغورة من الدهشة التي يتفحصه بها كل شخص بصفته عائد أدراجه بعد أن ضل به السبيل، وأن أصدقاءه وحدهم كانوا هم من يعرفون كل شيء عن كل شيء، وأنه هو نفسه كان مجرد طفل كبير ينبغي له أن يفعل ما يصفه له أصدقاؤه الناجحين الملازمين لوطنهم، وأنه كان مؤكدًا، على ذلك، أن كل الألم الذي قد ينزله به المرء سوف يحقق غرضه؟ ربما حتى لا يكون من الممكن أن يجعله يعود إلى الوطن على الإطلاق. وقد قال هو نفسه إنه كان الآن قد فقد الصلة بالتجارة في وطنه، ثم سيكون هو عندئذ، قد تم نبذه وحيدًا في بلد غريب يعاني المرارة بسبب نصيحة أصدقائه، ومغتربًا عنهم أكثر من ذي قبل. لكن لو أنه اتبع نصيحتهم، ثم بعد ذلك لم يوفق في وطنه –ليس بسبب الحقد بالطبع، بل من خلال قوة الظروف-، فلم يكن ليطرد توفيقه مع أصدقائه أو من دونهم، ويكون قد أحس بالإهانة، ولا يمكن أن يقال بعد ذلك بأن لا أصدقاء له، ولا وطن ينتمي إليه؛ أفلم يكن من الأفضل له أن يبقى تمامًا كما كان؟ وبوضع هذا كله في الاعتبار، كيف كان للمرء أن يكون متأكدًا من أنه سوف يحقق نجاحًا في الحياة في وطنه؟

لمثل هذه الأشياء، بافتراض أن المرء أراد أن يواصل مراسلته، لم يكن باستطاعة المرء أن يرسل إليه أي أخبار حقيقية. من قبيل تلك الأخبار التي

يمكن أن نقال صراحة لأكثر معارف المرء ابتعادًا عنه؛ فلقد انقضت أكثر من ثلاث سنوات منذ زيارته الأخيرة، وقدم لهذا عذرًا ضعيفًا بأن الوضع السياسي في روسيا كان بعيدًا عن التحدد، وهو فيما يبدو لم يكن ليسمح بأقصر فترة غياب لرجل أعمال صغير، بينما يتيح لمئات الآلاف من الروسيين السفر إلى الخارج باطمئنان. لكن خلال هذه السنوات الثلاث، كانت أوضاع حياة جيورج نفسه قد تغيرت تغيرًا بعيدًا؛ فمنذ سنين كانت والدته قد توفيت، ومنذ ذلك الحين كان هو ووالده قد تشاركا في حياتهما بالمنزل معًا، وكان صديقه بالطبع قد تم إبلاغه بذلك، وكان قد عبّر عن مواساته في رسالة قالت بكلمات بالغة الجفاف إن الأسى الذي سبّبه مثل هذا الحدث، كان على المرء أن يستنتج منه أنه لا يمكن له أن يحقق النجاح في بلد بعيد. ومنذ ذلك الحين كان جيورج قد انكب على العمل التجاري بإرادة زائدة، كما زوّد نفسه بمثل هذه الإرادة فيما يتعلق بكل شيء آخر.

ربما كان إصرار والده على أن يتناول كل شيء بطريقته الخاصة في العمل التجاري، أثناء حياة والدته، قد أعاقه عن أن يطور أي نشاط حقيقي خاص به، وربما منذ وفاتها كان والده قد أصبح أقل عدوانية. على الرغم من أنه كان لا يزال فعالًا في العمل التجاري. ولعل ذلك أن يكون راجعًا في أغلبه إلى تصادف حدوث شوط متصل من وقائع الحظ الحسن، وهو ما كان محتملًا حدوثه حقًا. لكن بكل المعدلات خلال هاتين السنتين كان العمل التجاري قد تطور على نحو أبعد ما يكون عن التوقع، وكان يتعين أن يتضاعف عدد العاملين، وكان رقم المبيعات قد أصبح خمسة أضعاف ما سبق، لا يوجد أي شك في ذلك، وكان التقدم إلى ما هو أكثر من ذلك تتواجد علاماته أمامهما مباشرة.

لكن لم يكن لصديق جيورج أي معرفة عن هذا التحسن. في سنوات سابقة،

ربما لآخر مرة في رسالة العزاء تلك، كان قد حاول أن يغري جيورج بأن يهاجر إلى روسيا، وكان قد بالغ في إمكانيات النجاح بالتحديد في فرع التجارة الذي يعمل فيه جيورج، وكانت الأرقام التي اقتبسها أرقامًا ميكروسكوبية مقارنة بالمعدل الذي تحققه عمليات جيورج الحالية، إلّا أنه ابتعد عن أن يجعل صديقه يعلم شيئًا عن نجاحه التجاري، ولو كان له أن يفعل ذلك الآن على نحو استرجاعي، فسوف يبدو ذلك شيئًا غريبًا بلا شك.

وعلى ذلك فقد حصر نفسه في حدود إعطاء صديقه مفردات من النميمة غير ذات أهمية، من تلك التي تطفو جزافًا في الذاكرة عندما يتابع المرء التفكير لمجرد تمضية الوقت متراخيًا، في أمور عديمة الجدوى، في يوم أحد هادئ. كل ما كان يرغب فيه هو أن يدع جانبًا دون أي تشويش فكرة موطنه؛ تلك الفكرة التي لا بد كان صديقه قد صورها لنفسه وفقًا لما يريحه طوال الفترة الطويلة الممتدة. وهكذا حدث لجيورج أنه لثلاث مرات، في ثلاث رسائل متباعدة كل منها عن الأخرى تباعدًا زائدًا بين كل منها، كان قد أخبر صديقه بخبر خطوبة شخص غير ذي أهمية إلى فتاة مماثلة له في افتقارها إلى الأهمية، حتى إنه في الحقيقة –وعلى عكس نواياه- بدأ صديقه يظهر بعض الاهتمام بهذا الحدث البارز.

إلّا أن جيورج فضل أن يكتب عن أمور مثل هذه، بدلًا من أن يعترف بأنه هو نفسه كان قد قام منذ شهر بخطوبته إلى فراولين -فريدا براندنفلد– وهي فتاة تنتمي إلى عائلة ميسورة، وغالبًا ما ناقش مع خطيبته أمر صديقه هذا، والعلاقة الغريبة التي تطورت بينهما في مراسلاتهما. قالت: «وعلى هذا فهو لن يحضر عرسنا، ومع ذلك فإن لي الحق في أن أعرف كل أصدقائك»، وأجابها جيورج:

«إنني لا أريد إزعاجه، لا تسيئي فهمي، إنه ربما سوف يحضر، على الأقل أنا أظن ذلك، إلّا أنه سوف يشعر بأن يده قد تم الضغط عليها، وسيكون في ذلك إيذاء له. وربما كان ليحسدني، وبلا شك لن يكون مرتاحًا. ودون أن يكون في مقدوره أن يفعل أي شيء، فيما يتعلق بعدم ارتياحه، فلعله أن يضطر إلى أن يرحل مرة أخرى وحيدًا. وحيدًا –هل تعلمين ماذا يعني ذلك «لكن هل لم يسمع عن عرسنا ربما بأي طريقة أخرى؟»، «لا يمكنني بالطبع أن أمنع إمكان معرفته، لكن قد لا يكون ذلك هو الحال، إذا نظرنا إلى الطريقة التي يعيش بها حياته».

«بما أن أصدقاءك هم على هذا الحال، فلم يكن لك أبدًا يا جيورج أن تقدم على خطوبة لنفسك على الإطلاق».

«حسنًا، نحن كلانا نلام على هذا، إلّا أنني لن أرى الأمر الآن على أي نحو آخر خلافًا لذلك»؛ وعندما كانت تلتقط أنفاسًا متسارعة تحت وقع قبلاته، ظلت تواصل قولها: «وعلى أي حال، فإنني أشعر بالانزعاج». وكان يفكر بأن الأمر لم يكن ليورطه في المتاعب لو كان له أن يرسل الأنباء إلى صديقه. قال لنفسه: «هذا هو نوع الرجل الذي يماثلني، ولسوف يقبلني كما أنا، لا يمكنني أن أصوغ نفسي على طراز آخر قد يجعلني صديقًا مناسبًا له أكثر».

وكان في الحقيقة قد أخبر صديقه في الرسالة الطويلة التي كان يكتبها في صباح الأحد ذاك، عن نجاحه في الحب بهذه الكلمات: «لقد احتفظت بأفضل أنبائي لنهاية الرسالة، فقد أتممت خطوبتي إلى فراولين «فريدا براندنفلد»، وهي فتاة من أسرة ميسورة، وكانت قد جاءت لتعيش هنا بعد رحيلك بوقت طويل، وعلى هذا فأنت في الحقيقة لا تكاد تعرفها. وسوف يكون هناك وقت لكي أخبرك فيه بالمزيد عنها، لذلك دعني اليوم أقول لك فحسب بأنني سعيد للغاية، وأن

الاختلاف الوحيد في علاقتنا، بيني وبينك هو أنه بدلًا من مجرد صديق عادي، سيكون لك في شخصي صديق سعيد. وعلاوة على ذلك فسوف يكون لك في خطيبتي التي ترسل تحياتها الحارة، والتي سوف تكتب إليك هي بنفسها. صديقة أصيلة من الجنس الآخر، وهو ما لا يعد شيئًا قليلًا بالنسبة لشخص أعزب. وأنا أعلم أن هناك أسبابًا عديدة لعدم إمكانك أن تحضر لرؤيتنا، لكن ألن يكون زواجي هو المناسبة الصحيحة تحديدًا كي تتخلص لأجلها من كل العوائق؟ ولا يزال لك مهما يكن من أمر، أن تفعل ما يبدو حسنًا بالنسبة لك دون أن تضع في اعتبارك أي مصالح سوى مصالحك».

وبهذه الرسالة في يده، ظل جيورج يجلس لوقت طويل إلى منضدة الكتابة، وقد استدار وجهه نحو النافذة. لم يكن قد ردّ بالكاد بابتسامة غائبة تحية لوّح له بها من بين المارة في الشارع أحد معارفه.

وضع الرسالة أخيرًا في جيبه، ومضى خارجًا من حجرته عبر ردهة صغيرة إلى حجرة والده التي لم يكن قد دخلها منذ شهور، لم يكن هناك في الحقيقة حاجة له لأن يدخلها، كان يرى والده يوميًا في العمل، وكانا يتناولان غداءهما معًا في أحد المطاعم، وفي المساء كان كل منهما يفعل في الحقيقة ما يروق له، لكن حتى عندئذ، ما لم يكن جيورج قد خرج، كما كان يحدث غالبًا مع أصدقاء له، أو أخيرًا. ومنذ وقت أكثر اقترابًا قد قام بزيارة خطيبته؛ كانا دائمًا يجلسان بعض الوقت، كل منهما مع صحيفته في حجرة جلوسهما المشتركة.

ولقد أدهش جيورج كم كانت حجرة والده معتمة حتى في هذا الصباح المشمس، وهكذا كانت قد زادت عتمتها، كتلك العتمة التي بجوار الحائط المرتفع، على الجانب الآخر للردهة. كان والده جالسًا إلى جوار النافذة في ركن حافل

بتذكارات لوالدة جيورج المتوفاة، يقرأ صحيفة كان يحملها إلى أحد الجانبين أمام عينيه في محاولة للتغلب على عيب في الرؤية، وعلى المنضدة كان يوجد بقايا طعام إفطاره الذي لم يكن قد تم تناول الكثير منه.

قال والده: «آه يا جيورج» ناهضًا في الحال لكي يلقاه. وكان رداؤه المنزلي الثقيل قد تأرجح منفتحًا وهو يسير، وكانت حاشية ردائه السفلى قد رفرفت حوله.

قال جيورج لنفسه: «لا يزال والدي رجلًا عملاقًا»، ثم بصوت مرتفع: «إنّ العتمة هنا لا تحتمل».

وأجاب والده: «نعم إنها عتمة بما يكفي».

«وأنت قد أغلقت النافذة أيضًا!».

«إنني أفضلها هكذا».

قال جيورج كما لو كان يكمل ملاحظته السابقة: «حسنًا، إن الجو دافئ بالفعل في الخارج»، ثم جلس.

ورفع والده أطباق الإفطار، ووضعها فوق خزانة ذات أدراج.

وتابع جيورج الذي كان يراقب حركات الرجل العجوز ببلاهة؛ حديثه قائلًا: «أردت حقًا أن أخبرك أنني أرسل الآن أخبار خطوبتي إلى سانت بطرسبورج»، وسحب الرسالة قليلًا إلى خارج جيبه، ثم تركها تسقط ثانية بداخله.

تساءل والده: «إلى سانت بطرسبورج؟».

قال جيورج محاولًا أن يلتقي بعين والده: «إلى صديقي هناك»، في ساعات العمل يكون مختلفًا كل الاختلاف. كان مستغرقًا في التفكير؛ كم يجلس هنا ساكنًا في رسوخ بذراعيه متقاطعتين.

قال والده في تأكيد غريب: «آه.. نعم. إلى صديقك».

«حسنًا، أنت تعلم يا أبي أنني أردت ألّا أخبره بخبر خطوبتي في البداية بسبب اعتبارات تخصه، كان هذا هو السبب الوحيد. وتعرف أنت نفسك أنه رجل صعب. قلت لنفسي إنْ أحدًا آخر غيري قد يخبره بخبر خطوبتي، على الرغم من أنه مخلوق وحيد، وأن ذلك لا يكاد يكون ممكنًا أن يحدث –لم يكن باستطاعتي أن أمنع ذلك- لكنني لم أكن أنوي مطلقًا أن أخبره بنفسي».

تساءل والده: «والآن قد غيرت رأيك؟»، واضعًا صحيفته الضخمة فوق عتبة النافذة، وفوقها نظارته التي غطاها بإحدى يديه.

«نعم، لقد كنت أفكر في كل ذلك. قلت لنفسي، لو كان صديقًا حقيقيًا لي، فإن كوني قد قمت بخطوبتي في سعادة، فسوف يسعده ذلك هو أيضًا، وعلى هذا لن أؤجل إخباره أكثر من ذلك، لكنني قبل أن أضع الخطاب في صندوق البريد، أردت أن أدعك تعلم بذلك».

قال والده وهو يمط فمه الخالي من الأسنان: «استمع إليّ يا جيورج، لقد أتيت إليّ بخصوص هذا الأمر، لكي تتحدث معي عنه حديثًا نهائيًا. لا شك أن هذا يشرفك، إلّا أنه لا شيء، إنه أسوأ من لا شيء، إن لم تخبرني بالحقيقة كاملة. إنني لا أريد أن أثير أمورًا لا ينبغي أن يجري ذكرها هنا. فمنذ وفاة والدتنا العزيزة جرى حدوث أمور معينة ليست صوابًا، ربما سيجيء الوقت لذكرها، وربما

سيكون الوقت أقرب مما نظن. هناك أشياء كثيرة في العمل التجاري لا علم لي بها، ربما لا تكون قد حدثت من وراء ظهري، ولست بسبيلي لأن أقول إنها قد تم حدوثها بالفعل من وراء ظهري –هناك أمور لم يعد في وسعي بعد الآن أن أجد لها لديّ الكفاءة التي تلزمني لمواجهتها، إن ذاكرتي تضعف، ولم تعد لديّ الآن رؤية واضحة لأشياء كثيرة جدًا. فهذا أولًا هو نهاية شوط الطبيعة. وثانيًا كانت الضربة التي تلقيتها بوفاة والدتنا العزيزة أشد عنفًا مما أحدثه بك –لكن لما كنا بصدد ذلك الشيء، ما دام أننا نتحدث عن هذه الرسالة، فأرجوك يا جيورج ألّا تخدعني. إنها شيء عارض ولا تستحق نفسًا نضيعه من أجلها، لهذا لا تخدعني. هل لك هذا الصديق في سانت بطرسبورج؟».

نهض جيورج واقفًا في ارتباك، قائلًا: «لندع أصدقائي جانبًا، وإنّ ألفًا من الأصدقاء لن يعادلوا بالنسبة لي أبي. هل تعلم ما الذي أعتقده؟

أعتقد أنك لا تعني بنفسك العناية الكافية. إلّا أنّ الشيخوخة لا بد لها من عناية. لا يمكنني أن أستغنى عنك في التجارة. أنت تعلم هذا جيدًا، لكن لو كانت التجارة ستؤدي إلى تدمير صحتك، فإنني على استعداد لتصفيتها غدًا وإلى الأبد، ولن يفيد هذا في شيء. وسيكون علينا أن نحدث تغييرًا في أسلوب حياتك، لكنه سيكون تغييرًا جذريًا. أنت تجلس هنا في الظلام، بينما هناك في حجرة الجلوس المزيد من الضوء اللازم لك. وتتناول فحسب مجرد قضمة من طعام الإفطار بدلًا من الاحتفاظ بقوتك. وتجلس بجوار نافذة مغلقة، على حين أن الهواء سيفيدك جدًا. لا يا أبي. سوف أستدعي الطبيب، وسوف ننفذ تعليماته. سوف نقوم بتغيير حجرتك، يمكنك أن تنتقل إلى الحجرة الأمامية، وسأنتقل أنا إلى هنا، لن تلحظ التغير، فكل أشيائك سوف تنتقل معك. إلّا أنّ هناك الوقت لهذا كله فيما بعد،

وسأضعك في الفراش الآن لفترة قصيرة، أنا واثق من أنك في حاجة إلى الراحة. هيا، سوف أساعدك في خلع ملابسك، سوف ترى أنني أستطيع أن أفعل ذلك. أو إذا شئت بدلًا من ذلك، أن تذهب في الحال إلى الحجرة الأمامية؛ فيمكنك أن تستلقي الآن في فراشي، وسوف يكون هذا أكثر تعقلًا من أي شيء آخر».

توقف جيورج ملاصقًا لوالده، الذي كان قد ترك رأسه تتدلى بشعرها الأبيض المشعث فوق صدره.

قال والده في صوت خفيض، دون أن يأتي بأي حركة: « جيورج».

ركع جيورج أرضًا في الحال بجوار والده، ورأى في وجه والده المنهك بؤبؤي عينيه جاحظين يتطلعان إليه في ثبات من جانبي العينين.

«لا يوجد صديق لك في سانت بطرسبورج. لقد كنت تمزح دائمًا، وأنت حتى لم تتراجع عن مزاحك. كيف يمكن أن يكون لك صديق بعيدًا هناك! إنني لا يمكنني أن أصدق هذا مطلقًا».

قال جيورج، رافعًا والده من المقعد، ونازعًا عنه -وهو يقف في ضعف واضح- رداءه المنزلي:

«تذكر فقط يا والدي ما مضى، لقد أوشكت أن تنقضي الآن ثلاثة أعوام منذ جاء صديقي لزيارتنا في آخر مرة، وأذكر أنك اعتدت على كراهيتك الزائدة له. مرتان على الأقل حلْتُ أنا فيهما بين رؤيتك له، مع أنه كان جالسًا فيهما بالفعل معي في حجرتي. يمكنني تمامًا أن أتفهم عدم حبك له، فلصديقي صفاته الغريبة. لكن، بعدئذ، مضى الحال بينك وبينه على خير ما يرام؛ وكنت فخورًا لأنك

استمعت إليه، وأطرقت برأسك، ووجهت إليه الأسئلة. لو أنك رجعت بذاكرتك إلى الوراء، لتذكرت؛ لقد حكى لنا في ذلك الوقت قصصًا لا يصدقها العقل عن الثورة الروسية. مثلًا عندما كان في رحلة إلى مدينة (كييف) وصادفه تمرد، ورأى في إحدى الشرفات قسّيسًا قد شق صليبًا عريضًا داميًا في راحة يده، ورفع يده إلى أعلى، وهتف في الحشد. لقد حكيت أنت نفسك هذه القصة من وقت لآخر، منذ ذلك الحين».

في تلك الأثناء كان جيورج قد نجح في دفع والده إلى أسفل مرة أخرى، وخلع عنه بعناية السراويل الصوفية التي كان يرتديها فوق سراويله التيل التحتية، وجواربه، وكان مظهر ملابسه التحتية البعيد عن النظافة إلى حد زائد، قد دفعه إلى أن يلوم نفسه على إهماله.

لقد كان من واجبه بلا شك أن يطمئن إلى أنّ والده قد ارتدى غيارات نظيفة من الملابس التحتية، ولم يكن بعد قد ناقش مع عروسه المقبلة أي ترتيبات قد يلزم اتخاذها في المستقبل بخصوص والده، ذلك أنهما كانا كلاهما -في صمت- قد اعتبرا أنه من المسلم به أن يواصل الرجل العجوز العيش وحيدًا في المنزل القديم. لكنه الآن اتخذ قرارًا سريعًا ثابتًا بأن يأخذه معه إلى مقر إقامته المقبل، ولقد بدا له بالتفحص عن كثب، أن العناية التي انتوى أن يغدقها هناك على والده، ربما تكون قد تأخرت على الأغلب كثيرًا عن موعدها.

حمل والده إلى الفراش بين ذراعيه، وقد منحه هذا إحساسًا مرعبًا وهو يلاحظ أنه بينما كان يخطو تلك الخطوات القلائل متجهًا به نحو الفراش، كان الرجل العجوز فوق صدره قد راح يلهو بسلسلة ساعته، ولم يتمكن للحظة أن يضعه فوق الفراش؛ لأنه كان قد تعلق بشدة بسلسلة الساعة.

لكنه ما إن تم وضعه في الفراش، حتى بدا كل شيء على ما يرام؛ غطّى نفسه تمامًا، وسحب البطاطين فوق كتفيه إلى حد زائد عن المعتاد، وتطلع إلى أعلى نحو جيورج بنظرة ودودة.

سأله جيورج، وهو يهز رأسه مشجعًا: «بدأت تتذكر صديقي، أليس كذلك؟».

سأله والده، كما لو لم يكن في مقدوره أن يرى إن كانت قدماه تحت الغطاء كما ينبغي أم لا: «هل أنا تحت الغطاء تمامًا الآن؟».

قال جيورج، وقد لفّ البطاطين حوله أكثر: «وهكذا فأنت بالفعل تشعر بالدفء في الفراش؟».

وتساءل الأب مرة أخرى، وهو يبدو حريصًا في إصرار غريب على تلقي الإجابة: «هل أنا تمامًا تحت الغطاء؟».

«لا تخش شيئًا، أنت تحت الغطاء تمامًا».

صاح الأب مقاطعًا، وقد ألقى عنه بعيدًا بالبطاطين بقوة أطارتها كلها في الهواء، في لحظة، وقفز واقفًا في الفراش، إحدى يديه فقط لمست السقف لمسًا هينًا كي تسنده في وقفته: «لا! لقد أردت لي أن أتغطى تمامًا يا غُصَيني الغضّ، أعرف هذا؛ إلّا أنني بعد ما زلت أبعد ما أكون عن التغطية الكاملة. وحتى لو كانت هذه هي آخر ما لديّ من قوة، فإنها كافية لمواجهتك، بل إنها لتزيد كثيرًا عما يلزم. بالطبع أنا أعرف صديقك؛ وقد كان يصلح ليكون ابنًا لي على ما يهوى قلبي. وذلك هو كل السبب في أنك كنت تتلاعب به لعبتك الزائفة طوال كل هذه السنوات. ولماذا يكون الأمر غير ذلك؟ هل تحسب أنني لم أكن أحس أسفًا من

أجله؟ وأن هذا كان هو السبب الذي دفعك إلى أن تغلق على نفسك باب مكتبك -يجب عدم إزعاج رئيس المتجر- وهذا فحسب كي تتمكن من أن تخط رسائلك الصغيرة الكاذبة إلى روسيا. إلّا أن الأب لا حاجة به لحسن الحظ إلى أن يتعلم كيف يعرف حقيقة ابنه. والآن بما أنك قد ظننت أنك قد طرحته إلى أسفل، إلى هذا الحد إلى أسفل؛ حتى يتسنى لك أن تضع مؤخرتك فوقه وأن تجلس عليه، ولا يكون له أن يتحرك، عندئذ قرّ قرار ابني الرائع أن يتزوّج».

حدّق جيورج في صورة أبيه المفزعة، ولاح لخياله كما لم يحدث من قبل صديقه في سانت بطرسبورج. ذلك الذي عرفه أبوه فجأة حق المعرفة، رآه ضائعًا في اتساع روسيا، رآه عند باب مخزن بضاعة خاوٍ تمّ السطو عليه، وسط حطام نوافذ عرض بضائعه، ولفّات أقمشته الممزقة، ودعائم الغاز المتهاوية، هنالك كان يقف، فلماذا كان عليه أن يرحل بعيدًا كل هذا البعد؟

صاح والده: «لكن هيا لمعونتي».

وانطلق جيورج مسرعًا نحو الفراش، شارد الذهن حتى يتبيّن له كل شيء، لكنه توقف فجأة في منتصف المسافة.

وبدأ الوالد في العزف قائلًا: «لأنها رفعت نقبتها إلى أعلى، لأنها رفعت نقبتها هكذا، المخلوقة القذرة، ورفع قميصه كي يقلدها، عاليًا للغاية، حتى كان باستطاعة المرء أن يرى فوق فخذه تلك الندبة التي تبقت عن جرحه في الحرب؛ لأنها رفعت نقبتها هكذا، وهكذا، وعلى هذا النحو، تقربت منها أنت، ولكي تكون معها على حريتك، دون إزعاج، شوهت ذكرى والدتك، وخنت صديقك، ودسست أباك في الفراش؛ كي يعجز عن الحركة، لكنه يستطيع أن يتحرك. أم ترى أنه لا

يستطيع؟».

ثم نهض واقفًا دون أدنى معونة بالمرة، ورفس الهواء بساقيه إلى خارج الفراش، وقد تألق لنفاذ بصيرته.

وانكمش جيورج في ركن بعيدًا عن والده غاية البعد بقدر ما أمكنه ذلك. وكان قد قر رأيه في ثبات قبل وقت ليس بالقصير على أن يرقب عن كثب أدنى حركة حتى لا يفاجأ بأي هجوم غير مباشر، بقفزة من الخلف إلى أعلى، وعند هذه اللحظة تذكر ذلك الحل الذي طال نسيانه، ثم نسي ثانية، كمن يجذب خيطًا قصيرًا خلال ثقب إبرة.

صاح والده -مؤكدًا فكرته بطعنات من سبابته- قائلًا:

«إلّا أن صديقك لم تتم خيانته في نهاية الأمر، ذلك أنني كنت أنوب عنه هنا مباشرة، في نفس المكان».

ولم يستطع جيورج أن يقاوم الردّ بعد أن أدرك مدى الضرر، وعضّ على لسانه، وقد جحظت عيناه بعد فوات الأوان، حتى اصطكت ركبتاه من الألم، صاح:

«أيها المهرّج».

«نعم بالطبع، لقد قمت بأداء دوري في ملهاة! ملهاة، هذا تعبير جيد! فأي راحة أخرى كانت قد تبقت لأرمل عجوز بائس؟ قل لي –ولتبق، بينما تجيبني كما أنت، ابني الحيّ- ماذا تبقى لي غير ذلك، في حجرتي الخلفية؛ وقد رزئت بمستخدمين لا يعرفون الوفاء. عجوز حتى نخاع عظامي، وابني يتخطر في أنحاء الدنيا، عاقدًا الصفقات التي كنت قد جهزتها له، متفجرًا بالزهو المنتصر، يتسلل بعيدًا

عن والده، بذلك الوجه الجامد، وجه رجل أعمال محترم! هل تظن أنني لا أحبك، أنا من انبثقت منه أنت؟».

وطرأت الفكرة على بال جيورج: «والآن سوف يميل إلى الأمام. فماذا لو تهاوى وحطم نفسه؟»، راحت هذه الفكرة تطن في خاطره.

مال والده إلى الأمام، لكنه لم يتهاو، ولما لم يقترب منه جيورج، كما كان يتوقع، اعتدل ثانية مستقيمًا في وقفته.

«إبق حيث أنت، لست في حاجة إليك! أنت تظن أنّ لديك قوة تكفي لكي تجيء إلى هنا، وأنك إنما تظل مشدودًا إلى الوراء في مكانك، من تلقاء نفسك. لا تكن واثقًا من نفسك إلى هذا الحد! إنني ما زلت الأقوى فيما بيننا، وحدي فقط. ربما كان عليّ أن أخلي الطريق؛ لكن والدتك قد منحتني الكثير جدًا من قوتها، حتى لقد رسخت أنا علاقة ممتازة مع صديقك. ولديّ أيضًا زبائنك هنا في جيبي!».

قال جيورج لنفسه: «إن له جيوبًا في قميصه»، وأيقن أنه كان باستطاعته بهذه الملاحظة أن يجعل منه شخصية مستحيلة أمام العالم كله، للحظة فقط ظن ذلك، بما أنه قد استمر في نسيانه لكل شيء.

«خذ فحسب عروسك في ذراعك، وحاول اعتراض طريقي، ولسوف أكتسحها بالفعل من جانبك، ولن يتسنى لك أن تعرف كيف؟».

وظهر على وجه جيورج تعبير ينم عن عدم التصديق. وأطرق والده فقط مؤكدًا صدق كلماته، تجاه ركن جيورج.

«كم عملت اليوم على تسليتي بمجيئك لتسألني إن كان ينبغي لك أن تخبر صديقك بخبر خطوبتك. إنه يعلمه بالفعل، أيها الصبي الغبي، إنه يعرف كل شيء! لقد كنت أراسله؛ لأنك كنت قد نسيت أن تسلبني أدوات الكتابة التي تخصني؛ وهذا هو السبب في أنه لم يتواجد هنا لسنوات، إنه يعلم كل شيء. يعلمه أفضل مما تعلمه أنت نفسك مئات المرات، وبيده اليسرى يغضّن رسائلك دون أن يفتحها، بينما يرفع في يده اليمنى رسائلي لكي يقرأها بإمعان».

وفي غمرة حماسه لوّح بذراعه فوق رأسه، وصاح: «إنه يعرف كل شيء، وعلى نحو أفضل ألف مرّة».

قال جيورج كي يسخر من والده، لكن تحولت الكلمات في فمه هو نفسه إلى جدٍّ قاتل:

«عشرة آلاف مرّة».

«لسنوات انتظرتك كي تأتيني بمثل هذا السؤال! هل تظن أنني أشغل نفسي بأي شيء آخر؟ هل تظن حتى إنني أقرأ صحفي؟ انظر!»، وألقى بورقة من صحيفة كان قد أخذها معه إلى الفراش على نحو ما، صحيفة قديمة لها اسم مجهول تمامًا لجيورج.

«كم هو طويل ذلك الزمن الذي احتجته حتى تكبر! كان على والدتك أن تموت، لم تستطع أن ترى اليوم السعيد؛ وصديقك يتمزق إربًا في روسيا، ومنذ ثلاث سنوات حتى، كان شاحبًا بما فيه الكفاية، لكي يُلقى به بعيدًا. أما بخصوصي؛ هل أنت ترى أي حال هي حالي، إنّ لديك عينين في رأسك لكي ترى ذلك!».

صاح جيورج: «وهكذا فقد كنت تكمن في انتظاري!».

قال والده في رثاء، وعلى نحو مسلم به: «أظنك كنت قد أردت أن تقول ذلك قبل الآن، لكن الآن، ليس لذلك أهمية!»، وفي صوت أعلى: «وبهذا فأنت تعلم الآن ما هو ذلك الشيء الآخر الذي كان يتواجد في العالم، بالإضافة إلى نفسك، لم تكن تدري شيئًا سوى نفسك فحسب! طفل بريء نعم، هذا ما كنته أنت حقًّا. لكن ما هو حق أكثر منه، هو أنك كنت كائنًا بشريًا شيطانًا! وعلى هذا فلتنتبه... إنني أحكم عليك الآن بالموت غرقًا!».

أحس جيورج بأنه قد تم اقتناصه، منتزعًا إلى خارج الحجرة؛ ذلك أن الصدمة التي سقط بها والده فوق الفراش خلفه كانت تطن في أذنيه لا تزال، عندما انطلق هاربًا، وعلى الدرج الذي اندفع هابطًا فوقه كما لو كانت درجاته سطحًا مستويًا مائلًا، اصطدم بالمرأة الشغّالة التي تقوم بأعمال المنزل في أثناء صعودها؛ لكي تقوم بالتنظيف الصباحي.

صاحت قائلة: «يا يسوع!» وغطت وجهها بمريلتها، إلّا أنه كان قد اختفى فعلًا.

اندفع إلى خارج الباب الخارجي، وعبر الطريق مدفوعًا نحو الماء، وكان قابضًا بالفعل على الدرابزين، متشبثًا به كما يتشبث جائع بطعام، طوح بنفسه فوقه، كأنه الرياضي المرموق الذي كانه ذات مرة في شبابه، مبعثًا لفخر والديه. وبقبضة متهالكة كان لا يزال يمسك بالدرابزين عندما لمح من بين قضبانه أوتوبيسًا قادمًا، كان يمكن لضجيجه أن يغطي بسهولة على صوت سقوطه، وهتف قائلًا في صوت خافت:

«والديّ العزيزين لقد أحببتكما دائمًا، وفي كل حال!».

وترك نفسه يسقط.

في هذه اللحظة بالتحديد، كان تيار لا نهاية له من حركة المرور يتدفق فوق القنطرة.

***

فنّان جوع

تراجع الاهتمام بعروض فناني الجوع خلال العقود الأخيرة. وكانت هذه العروض الرائعة تدر ربحًا وفيرًا جدًا؛ أما إخراجها فكان يقوم به فنان العرض نفسه، إلّا أن ذلك قد أصبح الآن مستحيلًا تمامًا. ذلك أنه كان عالمًا مختلفًا. كانت المدينة في وقت ما تنشغل كل الانشغال بفنان استعراض الجوع؛ فمن يوم إلى يوم من أيام جوعه، كان يتصاعد الإقبال؛ كان كل شخص يريد أن يراه مرة على الأقل في اليوم، وكان هناك من اشتروا مقدمًا تذاكر لحضور أيام العرض القلائل الأخيرة، كانوا يجلسون منذ الصباح حتى الليل أمام قفصه الصغير الذي تفصله عنهم القضبان، وكانت توجد في أثناء الليل ساعات للمشاهدة عندما كان يتزايد التأثير الشامل للعرض تحت وهج المشاعل، وفي الأيام الصافية كان القفص يوضع في الهواء الطلْق في الخارج، وكانت هذه عند ذاك هي متعة الأطفال الخاصة لرؤية فنّان الصوم الاستعراضي؛ ذلك أنه كان بالنسبة لأهاليهم على الأغلب، مجرد مزحة صادفت رواجًا؛ لكن كان الأطفال يقفون مذهولين فاغري الأفواه، يمسك أحدهم بيد الآخر تأكيدًا لأمانٍ أعظم، مدهوشين في تطلعهم إليه، بينما كان يجلس هو شاحبًا مرتديًا ثيابًا سوداء محبوكة، وأضلاعه بارزة إلى حد بالغ البروز، لم يكن يجلس حتى فوق مقعد، بل كان يفترش الأرض وسط القش، ويومئ أحيانًا برأسه إيماءة دمثة، ويرد على أسئلة بابتسامة مجهدة، أو ربما يمد يدًا من خلال القضبان حتى يمكن للمرء أن يجسها ليرى إلى أي حد كانت نحيلة، ثم ينسحب بعد ذلك عميقًا إلى داخل ذاته، غير ملقٍ بالًا إلى أي شخص، أو أي شيء، ولا حتى إلى دقات الساعة التي كانت هي قطعة الأثاث الوحيدة في داخل قفصه، بل يحدق فحسب في الفراغ بعينين نصف مغمضتين، ويرشف بين

الحين والحين رشفة من زجاجة ماء بالغة الصغر؛ كي يرطب شفتيه.

وبالإضافة إلى المشاهدين العابرين، كانت هناك أيضًا جماعات من المراقبين المناوبين الدائمين يختارهم الجمهور، وعادة ما يكونون من الجزّارين وهو ما يزيد في غرابة الأمر، حيث كان واجبهم هو أن يراقبوا رجل استعراض الجوع نهارًا وليلًا، ثلاثة منهم معًا في كل نوبة، حتى لا يكون أمامه مجال للحصول على أي تغذية سرًا، ولم يكن ذلك سوى مجرد إجراء شكلي لكسب ثقة الجماهير؛ لأنّ المطّلعين يعرفون معرفة كافية أن الفنان لن يبتلع خلال صومه تحت أي ظرف كان، ولا حتى تحت الإكراه القسري، أصغر كسرة من الطعام؛ ذلك أن شرف المهنة لا يسمح بذلك.

لم يكن كل فرد من المراقبين قادرًا بالطبع على أن يفهم ذلك، وغالبًا ما كانت هناك جماعات من المراقبين الليليين تبدو متراخية على نحو زائد في الاضطلاع بواجبها، وكان هؤلاء المراقبين يتجمعون معًا في ركن متباعد عن عمد ليلعبوا الورق في استغراق بالغ، قاصدين بذلك في وضوح، أن يتيحوا الفرصة لرجل الصوم الاستعراضي كي يحصل على شيء من الانتعاش، كانوا يفترضون أن بمقدوره أن يستمده من مؤونة خاصة ما. لم يكن الفنان يضيق بشيء أكثر مما كان يضيق بمثل هؤلاء المراقبين؛ فقد كانوا يسببون له البؤس، كانوا يجعلون جوعه يبدو وكأنه لا يمكن احتماله، كان أحيانًا ما يسيطر على وهنه بمقدرة تتيح له أن يغني أثناء نوبة مراقبتهم لأطول وقت يمكنه أن يتابع فيه الغناء؛ لكي يظهر لهم كم كانت ريبتهم فيه ظالمة، إلّا أن ذلك لم يكن ليفيده كثيرًا؛ ذلك أنهم فقط كانوا قد عجبوا لمهارته في التمكن من أن يحشو فمه، حتى بينما هو يغنى. أما من كانوا يروقون له أكثر فهم هؤلاء المراقبين الذين كانوا يجلسون لصق

القضبان، والذين لم يقنعوا بالإضاءة الليلية المعتمة للردهة، بل سلطوا عليه وهج مصابيح الجيب الكهربية الكاشفة التي زودهم بها الرئيس الفني للاستعراض. لم يزعجه الضوء المؤلم قط، فلم يكن باستطاعته على أي حال أن ينام كما ينبغي؛ كان في مقدوره فقط أن يغفو قليلًا، ومهما كانت شدة الضوء، في أي ساعة، حتى لو كانت القاعة تعج بالمشاهدين الصاخبين. كان سعيدًا تمامًا لتوقعه قضاء ليلة مسهدة مع مثل هؤلاء المراقبين؛ كان مستعدًا لتبادل النكات معهم، ومستعدًا لأن يحكي لهم قصصًا من حياته التي قضاها في الترحال، وأن يفعل لهم أي شيء لكي يبقيهم متيقظين، ويشير إليهم بذلك مرة أخرى أنه لم تكن لديه أي مأكولات في قفصه، وأنه كان يصوم كما لم يكن يستطيع أي منهم أن يفعل. إلّا أنّ أسعد لحظاته كانت هي اللحظة التي جاء فيها الصباح، وجاءهم معه إفطار هائل على حسابه هو، فانكبوا عليه بشهية حادة لرجال أصحاء بعد ليلة تيقظ مرهقة. بالطبع كان هناك من جادلوا قائلين بأن هذا الإفطار كان محاولة مخادعة؛ لكي يرشوا المراقبين، إلّا أن هذا الجدال كان قد تجاوز الحد كثيرًا، وعندما دُعي هؤلاء لكي يقوموا بقضاء ليلة سهر من دون إفطار، فقط من أجل حسم القضية، ضنّوا بأنفسهم، وإن كانوا على الرغم من ذلك قد تمسكوا بشكوكهم في عناد.

مثل هذه الشكوك، على أي حال، كانت لوازم ضرورية لمهنة الجوع؛ ولعله لم يكن باستطاعة أحد أن يراقب الجائع الاستعراضي باستمرار نهارًا وليلًا؛ وعلى هذا لم يكن أحد ليستطيع أن يقدم بينة قاطعة على أن الجوع كان حقًّا جوعًا صارمًا ومتصلًا؛ كان الفنان وحده هو من يسعه أن يعلم ذلك، وكان مقدرًا له على هذا، أن يكون هو المشاهد الوحيد المقتنع كل الاقتناع بصومه الخاص. إلا أنه لأسباب أخرى لم يكن قد أحس قط بالرضى، فربما لم يكن مجرد الصوم وحده هو ما أوصله إلى مثل هذا الهزال الذي أوشك أن يجعله هيكلًا عظميًا، حتى إن

الكثيرين من الناس كان عليهم أن يبقوا للأسف بعيدًا عن عروضه، ذلك أن مرآه كان أكثر كثيرًا مما يسعهم احتماله. وربما كان عدم رضاه عن نفسه هو ما كان قد أرهقه؛ ذلك أنه هو وحده الذي كان يعرف، ما لم يكن يعرفه أي فنان آخر مبتدئ، كم هو سهل أن يجوع المرء، كان الجوع هو أسهل شيء في الدنيا، وهو لم يحتفظ بهذا سرًا، إلّا أن الناس لم يصدقوه، وفي أحسن الأحوال اعتبروه متواضعًا، وظن أغلبهم أنه إنما يسعى بذلك إلى الشهرة، أو أنه على العكس إنما كان مخادعًا من نوع ما، قد وجد الصوم أمرًا سهلًا لأنه كان قد اكتشف طريقة ما جعله بها أمرًا سهلًا، ثم كان له من الصفاقة بعد هذا ما جعله يقر الحقيقة بصورة أو أخرى. كان عليه أن يتحمل ذلك كله، وكان قد اعتاده بمرور الوقت؛ لكن استياءه الداخلي اعتمل دائمًا في داخله، ولم يحدث له قط حتى الآن أن غادر القفص من تلقاء نفسه –ولا بد أن يحسب له هذا- عقب أي فترة صوم. كانت أطول مدة كان باستطاعته أن يصومها قد حددها المدير الفني بأربعين يومًا، ولم يكن ليسمح له بأن يتجاوز هذه المدة –ولا حتى أثناء وجوده في المدن الكبرى، وكان هناك سبب واضح لذلك أيضًا؛ فقد أثبتت التجربة أن اهتمام الجمهور لنحو من أربعين يومًا أمكن أن تتم إثارته بتأثير من ضغط الإعلانات المطرد، لكن بدأت المدينة بعد ذلك تفقد اهتمامها، وبدأ الدعم المتعاطف يتراجع بوضوح، كان هناك بالطبع اختلافات محلية فيما يتعلق بهذا بين مدينة وبين أخرى، أو بين بلدة وأخرى؛ لكن كقاعدة عامة كانت مدة الأربعين يومًا قد حددت الحد المسموح به. وهكذا ففي يوم الأربعين كان قد انفتح القفص المزين بالزهور، وملأ المتفرجون المتحمسون القاعة، وعزفت فرقة موسيقية عسكرية، ودخل إلى القفص اثنان من الأطباء لكي يقوما بقياس نتائج الصوم، تلك التي تم إعلانها بواسطة بوق، وأخيرًا ظهرت شابتان مبتهجتان لوقوع الاختبار عليهما لهذا

الشرف، وهو أن تقوما بمساعدة فنان استعراض الجوع في هبوطه الدرجات القلائل التي تنتهي إلى مائدة صغيرة استقرت فوق سطحها وجبة لمريض تم اختيارها بعناية. وعند هذه اللحظة بالذات كان الفنان دائمًا ما ينتابه العناد. حقًّا إنه قد يسلم ذراعيه الناتئتي العظام إلى الأيدي الممدودة الداعمة، أيدى الشابتين اللتين تنحنيان فوقه، إلا أنه لم يكن لينهض واقفًا على قدميه. لماذا يتوقف عن الصوم عند هذه اللحظة بالذات، بعد أربعين يومًا أنفقها جوعًا؟ لقد كان ليصمد لوقت طويل، وقت طويل لا محدود. لماذا يتوقف الآن عندما كان في أفضل أشكال صومه، أو عندما لم يكن خلافًا لذلك قد بلغ تمامًا بعد أفضل أشكال جوعه؟ لماذا يتعين أن يتم خداعه فتضيع عليه الشهرة التي كان سيحصل عليها لو كان قد صام لمدة أطول؟ لكونه ليس فقط فنان استعراض الجوع صاحب الرقم القياسي لكل الأزمنة –وهو الذي كانه بالفعل عندئذ- بل لضرب الرقم الذي حققه هو نفسه بواسطة أداء يتجاوز نطاق الخيال البشري، بما أنه كان قد أحس بأنه لا توجد أي حدود لطاقته على الجوع. وكان جمهوره قد بدا معجبًا به إعجابًا بالغًا، فلماذا يكون صبره عليه قليلًا إلى هذا الحد، فلو كان في مقدوره أن يتحمل الجوع وقتًا أطول، فلماذا لا ينبغي على الجمهور أن يتحمل ذلك؟ وعلاوة على هذا، فلقد كان متعبًا. كان يجلس مستريحًا وسط القش، وكان من المفروض الآن أن يرفع نفسه، ناهضًا بكل ارتفاع قامته، وأن يهبط متجهًا نحو وجبة مجرد فكرتها فحسب قد سببت له غثيانًا، كان وجود السيدتين فقط هو ما منعه من إظهاره، وحتى ذلك أيضًا كان قد كلفه جهدًا. تطلع إلى أعلى في عيني السيدتين اللتين كانتا فيما يبدو تظهران توددًا بالغًا، وإن كانتا قاسيتين في الحقيقة غاية القسوة، وهز رأسه التي شعر بها شديدة الثقل فوق عنقه الذي يعوزه التماسك. لكن حدث عندئذ مرة أخرى ما كان يحدث دائمًا؛ تقدم المدير

الفني إلى الأمام، بلا كلمة -ذلك أن الفرقة الموسيقية جعلت الحديث مستحيلًا- ورفع ذراعيه في الهواء فوق الفنان، كما لو كان يدعو السماء أن تنظر إلى أسفل، إلى مخلوقها هنا في القش، هذا الشهيد الجدير بالرثاء، وإنه لكذلك حقًّا، وإن يكن بمعنى آخر تمامًا؛ وقد أمسك به من الخصر الهزيل، بحذر مبالغ فيه، وذلك حتى تتاح الفرصة لتقدير الحالة الهشة التي كان عليها، ثم يعهد به إلى رعاية السيدتين المتراجعتين إلى الوراء، ولكن دون أن يفوته أن يهزه سرًّا ترسخت لها ساقاه وترنح جسده وتأرجح؛ والآن أذعن الفنان كل الإذعان، وتدلت رأسه فوق صدره كما لو كانت قد استقرت بالصدقة في هذا الموضع، وكان جسده قد تجوف، وساقاه في نوبة تشنج حفاظًا على الذات كانت قد التصقت إحداهما بالأخرى عند الركبتين، إلا أنهما قد تقاتلتا فوق الأرض كما لو لم تكن بالفعل أرضًا صلبة، كما لو كانتا فقط تحاولان العثور على أرض صلبة، وكان ثقله كله، وهو في نهاية الأمر في وزن الريشة، قد ارتد مرتميًا نحو إحدى السيدتين، تلك التي في تطلعها حولها طلبًا للعون، وهي تلهث قليلًا -لم تكن مهمة الشرف هذه هي ما كانت قد توقعت لها قط أن تكون هكذا- مدت عنقها في البداية بقدر ما أمكنها أن تمده كي تحتفظ بوجهها على الأقل بعيدًا عن التلامس مع الفنان، وعندما وجدت ذلك مستحيلًا، وأن رفيقتها الأكثر منها حظًّا لم تخفّ لمساعدتها، بل ظلت فقط ممسكة بيدها المرتعشة الممدودة حزمة عظام المفاصل الصغيرة تلك التي كانت هي عظام جسد الفنان لسرور المتفرجين الزائد، انهالت دموعها وكان لا بد أن تحل محلها مساعدة كانت قد انتظرت طويلًا على أهبة الاستعداد. ثم جاء الطعام، تمكن المدير الفني من أن يدس القليل منه بين شفتي الفنان، بينما جلس هو في غشية شبه منهوكة القوى، بمصاحبة إيقاع غنائي سريع للغاية قصد به أن يصرف انتباه الجمهور بعيدًا عن حالة الفنان، وبعد هذا تم احتساء نخب الجمهور،

على افتراض أنه تلقين قد همس بها الفنان في أذن المدير الفني، وأكدته الفرقة الموسيقية بمقطع مزهو في عنف، وتبدد الجمهور منصرفًا عن المكان، ولم يكن لأي فرد أدنى سبب يدعوه لعدم الرضى عن الإجراءات، لا أحد سوى رجل استعراض الجوع، هو فقط، كعادته دائمًا.

وهكذا عاش في مجد متألق لسنوات عديدة تضمنت فترات بينية قصيرة لاستعادة العافية، ينعم بتكريم العالم، إلا أنه كان على الرغم من ذلك مضطربًا في روحه، وكان اضطرابه يتزايد دائمًا لأن أحدًا لم يكن ليأخذ اضطرابه مأخذ الجد. فأي عزاء كان من الممكن أن يفتقر إليه؟ ما الذي كان من الممكن أن يرغب فيه؟ فلو كان ثمة شخص طيب حسن الطوية، وهو يحس أسفًا من أجله قد حاول تعزيته بأن عيّن له أن كآبته كان سببها هو الجوع، وقد أمكن حدوث ذلك، وبصفة خاصة عندما كان قد قضى شوطًا من الزمن جائعًا، فكان رد فعله على ذلك سورة هياج مندفعة. وكنذير شامل بالخطر راح يرج قضبان قفصه وكأنه حيوان متوحش. إلّا أن المدير الفني كانت له طريقته في عقاب هذه التهيجات التي كان يمتعه من ناحية أخرى أن يسبب حدوثها. فهو قد يعتذر علنًا عن سلوك الفنان، وهو ما كان يمكن الصفح عنه، وقد كان يسلم بهذا، بسبب من الهياج الذي يسببه الجوع، وهي حالة لا يكاد يدركها الناس الذين ينالون كفايتهم من الطعام، وعندئذ بالانتقال الطبيعي كان يمضي بعد ذلك لكي يذكر بالمثل مباهاة الفنان المبهمة بأنه كان في مقدوره أن يواصل الجوع لمزيد من الوقت، إضافة إلى الوقت الذي كان يصومه؛ لقد امتدح الطموح العالي، والإرادة، ونكران الذات الهائل الكامن بلا شك في هذا الزعم؛ ثم ببساطة تامة بعد هذا، يرد على ذلك بتقديمه صورًا فوتوغرافية، كانت أيضًا تعرض للبيع على الجمهور، تظهر الفنان في اليوم الأربعين من أيام الصوم مستلقيًا في الفراش وقد أشرف على الموت

من الإنهاك. هذا التحريف للحقيقة، مع أنه كان مألوفًا للفنان، إلا أنه دائمًا ما أثار أعصابه من جديد في كل مرة، وبدا له أكثر مما يمكن له أن يحتمله. وما كان يعد عاقبة للنهاية المبتسرة لصومه، كان قد تم تقديمه بهذا على أنه سبب لها، وأن يناضل ضد هذا الافتقار إلى الفهم، ضد عالم بأكمله من عدم الفهم، إنما كان أمرًا مستحيلًا. وكان هو قد وقف دائمًا المرة بعد المرة راغبًا يستمع بحسن ظن إلى المدير الفني، لكن ما إن كانت تظهر الصور الفوتوغرافية، حتى كان دائمًا ما يترك القضبان ليتهاوى وهو يئن فوق القش، وكان باستطاعة الجمهور الذي استعاد طمأنينته أن يقترب مرة أخرى ويتطلع إليه عن كثب.

بعد ذلك ببضع سنوات عندما كان شهود هذه المشاهد يستعيدونها في أذهانهم، فإنهم غالبًا ما أخطأهم فهم أنفسهم كل الخطأ؛ ذلك أنه في تلك الأثناء كان قد حدث ذلك التغير الذي سبق ذكره في اهتمام الجمهور. وقد بدا حدوثه وكأنه كان قد تم فجأة، وربما كانت هناك أسباب عميقة لهذا، لكن من ذا الذي كان مستعدًا لأن يزعج نفسه بشأن هذه الأسباب؟ إلّا أن فنان استعراض الجوع هذا الذي كان قد بلغ غايته من التدليل، كان على أي حال قد وجد نفسه وقد هجره فجأة ذات يوم رائع أولئك الباحثون عن التسلية، عندما مضوا يتدفقون في مرورهم به إلى عروض أخرى تروقهم أكثر، وللمرة الأخيرة كان المدير الفني قد جرجره مسرعًا عبر نصف قارة أوروبا؛ لكي يرى ما إذا كان الاهتمام القديم ما زال متواجدًا هنا أو هناك، لكن عبثًا كان ذلك، في كل مكان، كما لو أنه كان قد حدث باتفاق سرّي ما، كان ثمة نفور فعلي من الجوع الفني هو ما بدا ظاهرًا، وبالطبع لم يكن قد انبثق ظاهرًا على هذا النحو الواضح كل هذا الوضوح فجأة كما قد يبدو، كان عديد من الظواهر المنبئة، التي لم تكن قد تمت ملاحظتها بما يكفي، أو لم يكن قد تم وضع حد لها في أثناء تدفق وتألق النجاح، قد استرجعها الذهن

الآن، لكن كان وقت اتخاذ إجراءات مضادة قد أصبح الآن متأخرًا جدًا، وسيعود الجوع ليصبح مرة أخرى شكلًا فنيًا سائدًا في وقت ما في المستقبل، إلّا أن ذلك لم يكن عزاء يمكن أن يقنع به هؤلاء الذين يعيشون في الحاضر. فماذا كان على فنان عرض الجوع عندئذ أن يفعل؟ لقد كان قد لاقى استحسان الآلاف في زمنه، ولم يكن في إمكانه أن يتنزل إلى مستوى عرض فنه في كشك بأحد الشوارع في احتفالات المواسم القروية، وفيما يختص باتخاذ مهنة من المهن، فلم يكن فحسب قد أصبح مسنًا للغاية لهذا، لكنه كان متعصبًا كل التعصب لفن الجوع. وعلى هذا انصرف عن المدير الفني، شريكه في مسيرة حياة فريدة، وعمل أجيرًا في سيرك كبير، ولكي يصون مشاعره الخاصة تجنب قراءة شروط عقد عمله.

سيرك كبير بحركته الضخمة في إحلال، وتجنيد الرجال والحيوانات، كان جهازًا للعمل يمكنه دائمًا أن يجد استخدامًا لأي أشخاص، في أي وقت، ولفنان جوع حتى، على فرض بالطبع، ألّا يطلب الكثير جدًا، وفي هذه الحالة الخاصة، على أي حال، لم يكن الفنان وحده هو الذي تم ضمه، بل شهرة اسمه، وطول مدة ذيوع هذا الاسم أيضًا، وفي الحقيقة تم وضع الطبيعة الخاصة لأدائه في الاعتبار، هذا الأداء الذي لم يكن قد نال منه التقدم في السن، كما أنه لم يكن ثمة مجال لأن يقوم اعتراض بأن ثمة فنان هنا قد تجاوز شرخ شباب مسيرته، وأنه لم يعد بعد، على قمة مهارته المهنية، ولا يشغله سوى سعيه إلى ملاذ في ركن هادئ ما من أركان سيرك؟ بل على العكس فإن فنان الجوع قد أكد أنه كان لا يزال في مقدوره أن يجوع كأفضل ما أمكنه دائمًا أن يجوع، وهو ما كان موثوقًا به كل الثقة؛ ولقد زعم أنه لو كان قد أتيح له أن يجوع كما كان قد اشتهى، وأنه لو كان قد تم التصريح له بهذا في الحال، ودون المزيد من الجلبة، لكان قد أذهل العالم بتسجيل رقم قياسي لم يسبق أن تم تسجيله قط، وهو زعم لا شك في

أنه قد دفع بابتسامة ما وسط المحترفين الآخرين، بما أنه قد أسقط من حسابه التغير الذي طرأ على الرأي العام؛ ذلك التغير الذي نسيه فنان الجوع في غمرة حماسه.

لم يكن، مع ذلك، قد فقد إحساسه بالموقف الحقيقي، وسلم بأنه هو وقفصه، كما هو متوقع، يجب أن يتخذا مكانهما لا في وسط الحلبة، كعرض رئيس، بل في الخارج، على مقربة من أقفاص الحيوانات، في موقع كان من السهل الوصول إليه في نهاية الأمر. وكانت لافتات إعلان كبيرة ومبهجة التلوين قد صنعت إطارًا للقفص، وأعلنت عما يمكن رؤيته بداخله. وعندما كان الجمهور يخرج من عروض السيرك في فترات الاستراحة؛ لكي يرى الحيوانات. لم يكن باستطاعة الناس بالكاد أن يتجنبوا المرور بقفص فنان الجوع، وأن يتوقفوا عنده لدقيقة، وربما حتى توقفوا عنده وقتًا أطول، فقط لو لم يكن هؤلاء الذين كانوا يتدافعون خلفهم في الممر الضيق والذين لم يكونوا قد عرفوا ما الذي كان يعوق طريقهم تجاه أقفاص الوحوش المرموقة، وجعلوا من المستحيل بتدافعهم ذاك علي أي شخص أن يقف محدقًا في هدوء فترة ما ممتدة من الوقت، وكان هذا هو السبب في أن فنان الجوع كان قد بدأ يجفل نافرًا منهم، وهو الذي كان بالطبع يتطلع إلى ساعات الزيارة، باعتبارها الإنجاز الأساسي لحياته.

في بداية الأمر لم يكن قد احتمل أن ينتظر حلول فترات الاستراحة؛ فقد كان مبهجًا أن يرقب الجموع تأتي متدفقة نحوه، وحتى وقت قريب للغاية فقط – ولم تكن حتى أكثر حالات خداع النفس عنادًا باستطاعتها أن تتعلق بهذه البهجة وهي واعية بهذا التعلق على الأغلب على نقيض الحقيقة- كان الاعتقاد قد تولد في داخله بأن هؤلاء الناس في غالبيتهم، إذا حكمنا من أفعالهم، مرة بعد أخرى؛

دون استثناء، كانوا جميعًا في طريقهم إلى أقفاص الوحوش، وأن رؤيته لهم للوهلة الأولى، من على البعد، ظلت دائمًا هي الأفضل.

ذلك أنهم عندما كانوا يبلغون قفصه، كانت تصم أذنيه في الحال عاصفة الصياح والشتائم التي كانت تثور بين الطائفتين المتنافستين، اللتين كانتا تتجددان باستمرار، من هؤلاء الذين كانوا يريدون أن يتوقفوا ويتطلعوا إليه – وسرعان ما بدأ يكرههم أكثر من الآخرين- لا بدافع من الإدراك الحقيقي، بل بدافع من طبعهم وعنادهم، وهؤلاء الذين أرادوا أن يذهبوا مباشرة إلى الحيوانات.

وعندما تكون شدة اندفاع الزحام الأولى قد انقضت، كان يجيء أفراد الجمهور المتفرق، وهؤلاء لم يكن ليمنعهم شيء عن أن يتوقفوا ليتطلعوا إليه بقدر ما امتدت رغبتهم، قد تسابقوا مارين به بخطى واسعة، لا يكادون حتى أن يلمحوه في تعجلهم لكي يصلوا إلى أقفاص الوحوش في الموعد. ونادرًا ما كانت تتاح له ضربة حظ، عندما كان يتوقف أمامه رب أسرة ما بأطفاله، مشيرًا إلى فنان الجوع بأصبع، ويشرح في الحال ما كانت تعنيه تلك الظاهرة حاكيًا قصصًا من سنوات سابقة، عندما كان هو نفسه قد شاهد أداء مماثلًا وإن كان أكثر إثارة بكثير؛ وكان الأطفال يبقون غير مدركين على نحو ما، بما أنهم لم يكن قد تم إعدادهم لا في داخل المدرسة ولا في خارجها لاستيعاب هذا الدرس –فما الذي يعنيهم من أمر الجوع؟- إلّا أنهم كانوا قد أوضحوا بتألق عيونهم المركزة عليه أن أوقاتًا جديدة، وأفضل أيضًا قد تكون قادمة.

قال فنان الجوع لنفسه في مرات كثيرة ربما كان من الأفضل إلى حد ما لو أن قفصه لم يكن قد وضع قريبًا للغاية إلى هذا الحد من أقفاص الوحوش، فلقد جعل مكانه هذا مسألة الاختيار سهلة على الناس للغاية، هذا إذا تجاوز عن ذكر

ما يقاسيه من رائحة أقفاص الوحوش النتنة، وتململ الحيوانات في الليل، وحمل كتل اللحم النيّء في مرورها به لأجل الحيوانات المفترسة، والزئير في أوقات إطعامها، ذلك الذي يصيبه باستمرار بالكآبة. إلّا أنه لم يجرؤ على أن يقدم شكوى للإدارة في نهاية الأمر، فقد كان عليه أن يعترف بفضل الحيوانات على تتابع طوابير الناس الذين مروا بقفصه، والذين ربما كان من بينهم واحد هنا أو هناك قد يجد في نفسه اهتمامًا به، ومن الذي كان يمكنه أن يتنبأ بالمكان الذي كانوا ليعزلونه فيه لو أنه لفت الانتباه إلى وجوده، ولفت الانتباه بذلك إلى حقيقة أنه، إذا تحدثنا بصراحة تامة، كان يشكل فقط عائقًا في الطريق إلى أقفاص الوحوش.

عائق صغير بالتأكيد، وهو عائق قد ازداد صغرًا باطراد. لقد اعتاد الناس في أوقات كهذه على غرابة توقع إبدائهم اهتمامًا بفنان الجوع، وبهذا التعوُّد كان الحكم قد صدر ضده. قد يجوع طويلًا بقدر ما يمكنه ذلك، ولقد فعل هذا، إلّا أن شيئًا لم يكن لينقذه بعد ذلك، فالناس يتجاوزونه في مرورهم. حاول فقط أن تشرح فن الجوع لأي شخص؛ فمن ليس لديه إحساس به، لا يمكن أن يكون مهيأً لكي يفهمه. كما أصبحت لوحات الإعلانات الرائعة، قذرة وغير مقروءة، وكانت قد تعرضت للتمزيق؛ ولوحة الملاحظات الصغيرة التي كانت تحدد عدد أيام الجوع التي تمّ بلوغها، والتي كان يتم تغييرها في البداية كل يوم، كانت قد بقيت طويلًا عند نفس الرقم؛ ذلك أنه بعد الأسابيع القلائل الأولى، بدا لعاملي الإدارة حتى هذا الواجب الضئيل شيئًا لا معنى له، وهكذا جاع الفنان أكثر فأكثر –كما حلم بأن يفعل ذات مرة، ولم يمثل ذلك مشكلة له قط، تمامًا كما كان دائمًا قد تنبأ، إلّا أن أحدًا لم يقم بتحديد عدد الأيام، لا أحد، ولا حتى الفنان نفسه كان قد عرف أي أرقام قياسية كان يحطمها بالفعل وقتها، وأصبح قلبه ثقيلًا. وعندما تصادف ذات مرة أن توقف أحد المارة المتمهلين، وسخر من الرقم المهمل القديم المكتوب

فوق لوحة الملاحظات، وتحدث عن الخداع، كان حديثه هذا بالذات هو أغبى كذبة قد تم تلفيقها على يد اللامبالاة والخبث الموروث. بما أن فنان الجوع لم يكن هو المخادع، فلقد كان يعمل بأمانة، لكن كان العالم يخدعه ويسلبه أجره.

وانقضت أيام كثيرة أخرى مع ذلك، وانتهى هذا أيضًا إلى نهاية؛ فلقد وقعت عين أحد المشرفين على القفص ذات يوم، وسأل الخدم، لماذا بقي هذا القفص الجيد متروكًا دون استعمال، والقش يملؤه من الداخل؛ لم يعرف أحد؛ إلى أن تذكر رجل ما بمساعدة لوحة الملاحظات ما يتعلق بفنان الجوع، وقلبوا بالعصى في داخل القش، ووجدوا بداخله فنان الجوع.

سأل الملاحظ: «هل ما زلت تجوع؟ متى تنوي إذن أن تتوقف؟».

همس فنان الجوع وكان المشرف وحده الذي كانت أذنه تلتصق بالقضبان هو الذي أدرك ما قال: «سامحوني كلكم».

قال المشرف: «بالتأكيد نحن نسامحك»، ونقر جبهته بأصبعه لكي يوضح أي حال كان فيها الرجل.

قال فنان الجوع: «لقد أردت دائمًا أن ينال جُوعي إعجابكم».

قال المشرف بعذوبة: «إننا نعجب به فعلًا».

قال فنان الجوع: «لكنكم لا ينبغي لكم أن تعجبوا به».

قال المشرف: «وهكذا فنحن الآن لا نعجب به، لكن لماذا لا ينبغي لنا أن نعجب به؟».

قال فنان الجوع: «لأنه كان لا بد لي أن أجوع؛ فلا يمكنني أن أفعل سوى ذلك».

قال المشرف: «انظروا مرّة إلى هذا الشخص، ولماذا لم يكن في استطاعتك أن تفعل سوى ذلك؟».

قال فنان الجوع مباشرة في أذن المشرف، حتى لا يتسنى لأي مقطع من كلمة أن يتبدد، رافعًا رأسه قليلًا وهو يتحدث، وشفتاه مضمومتان، كما لو كانتا تتهيآن لتسديد قبلة: «لأنني لم أستطع أن أجد الطعام الذي أستسيغه، ولو كنت وجدته، صدقني، لما أحدثت أي جلبة، ولأتخمت نفسي مثلك أو مثل أي شخص آخر».

كانت هذه هي آخر كلماته، لكن في عينيه المعتمتين ظل باقيًا ذلك الاقتناع الثابت، وإن لم يعد فخورًا بعد، بأنه كان لا يزال يواصل جوعه.

قال المشرف: «والآن ألقوا بهذا إلى خارج القفص».

ودفنوا فنان الجوع ومعه القش وكل شيء.

وفي داخل القفص وضعوا فهدًا صغيرًا.

وأحس، حتى أقل الناس قابلية للإحساس، بأنه من المنعش أن يرى المرء هذا المخلوق الوحشي يتواثب في جوانب القفص الذي كان قد ظل موحشًا طوال ذلك الوقت كله.

كان الفهد على ما يرام، وكان الطعام الذي أحبه، يتم إحضاره له بلا توانٍ بواسطة الخدم، وبدا عليه أنه حتى لم يفتقد حريته، بدا وكأنه يحمل معه الحرية هي أيضًا في أركان المكان، كانت تتبدى تلك الحرية وكأنها تكمن في مكان ما بين فكيه، ومن حلقه يتدفق الوهج، بتلك الحمية المتقدة، حتى إنه لم يكن من السهل

على المشاهدين أن يتحملوها، إلّا أنهم استجمعوا قواهم، وتزاحموا حول القفص، ولم يرغبوا في أن يتحركوا أبدًا بعيدًا عنه.

***

امرأة صغيرة

هي امرأة صغيرة، نحيلة حقًا بطبيعتها، وهي أيضًا محبوكة الثوب الدانتيلّا، وترتدي دائمًا نفس الثوب عندما أراها، وهو من قماش أصفر رمادي، لون أشبه بلون الخشب ومزين في تحفظ بشراريب أو شبه أزرار مدلاة من نفس اللون، وهي دائمًا بلا قبعة، وشعرها الداكن الأشقر الجميل ناعم وغير مشعث، إلّا أنها سريعة وخفيفة في حركاتها، بل هي على الأصح تبالغ بالفعل في خفة الحركة. وهي تحب أن تضع يديها في خاصرتيها، وفجأة تدير الجزء العلوي من جسدها جانبيًا بمباغتة تبدو مدهشة، ويمكنني فقط أن أنقل الانطباع الذي تتركه يديها عليّ فأقول بأنني لم أر قط يدًا منفصلة الأصابع، المتباينة أحدها عن الآخر على هذا النحو الحاد كأصابعها، إلّا أن يدها لا تتصف بأي مميزات تشريحية، فهي يد طبيعية تمامًا.

هذه المرأة الصغيرة الآن، غير راضية عني إلى حد زائد؛ فهي دائمًا تجد فيّ شيئًا غير مقبول، فأنا أسبب لها ضررًا ما باستمرار؛ أضايقها في خطوة، فلو كان لحياة المرء أن تتجزأ إلى أصغر القطع الصغيرة، وكان لكل ذرة منها أن تُحاكم على حدة، فإن كل ذرة من حياتي ستكون إساءة إليها. ولقد تعجبت غالبًا لماذا أكون إلى هذا الحد إساءة إليها، لعل كل ما يتعلق بي أن يكون عدوانًا على إحساسها بالجمال، وعلى شعورها بالعدل، وعلى عاداتها، وعلى تقاليدها، وعلى آمالها؛ فثمة مثل تلك الطبائع المتنافرة، لكن لماذا يزعجها ذلك كل هذا الإزعاج؟ لا توجد بيننا أي علاقة قد تفرض عليها أن تعاني بسببي، كل ما عليها أن تفعله هو أن تعتبرني شخصًا غريبًا تمامًا، فهكذا أنا، وهو ما لا أعترض عليه، بل إنني لأرحب به في الحقيقة. ولا حاجة بها سوى أن تنسى وجودي، الذي لم أفرضه

قط على انتباهها ولا سأحاول فرضه، وستكون كل تعاستها قد انتهت. إنني لا أفكر في نفسي، وأخرج تمامًا من حسابي حقيقة أنني أجد موقفها بالطبع مرهقًا على نحو ما، أخرجها لأنني أدرك أنّ ضيقي هو لا شيء بالقياس إلى الكرب الذي تعانيه. وأنا واعٍ تمامًا على أي حال أن شقاءها ليس شقاء مُحبًا، فهي ليست مهتمة بأن تقوم بأي إصلاح لي، وإضافة إلى هذا، فمهما كان ما تجده فيّ ممّا لا تقبله، فإنه بطبيعته لا يمنع تطوري. إلّا أنها لا تهتم بتطوري هو أيضًا، هي تهتم فقط بما يهمها هي شخصيًا في الأمر، وهو أن تنتقم لنفسها من أجل العذاب الذي سببته لها في الحاضر، ولكي تمنع أي عذاب يهددها من ناحيتي في المستقبل. ولقد حاولت بالفعل ذات مرة أن أشير إلى أفضل طريقة لوضع حد لاستيائها هذا، إلّا أن محاولتي نفسها قد أثارت هياجها إلى تلك الدرجة البالغة من العنف، حتى إنني لم أكرر المحاولة قط.

أشعر أيضًا بمسؤولية ما ملقاة على عاتقي، لو شئت أن تعبر عن الأمر على هذا النحو، وذلك لكوننا غريبين أحدنا عن الآخر، كما هي حقيقة حالنا كلينا المرأة الصغيرة وأنا، ومهما كان صحيحًا أن العلاقة الوحيدة بيننا هي ذلك الأذى الذي أتيحه لها، أو بالأحرى الأذى الذي تدعني هي أسببه لها، فلا يجب عليّ -مع هذا- أن أترك لشعور اللامبالاة أن يشغلني عن المعاناة الجسدية المرئية الذي يحدثه بها ذلك الأذى؛ فقد وردت إليّ بين كل حين وآخر أخبار ازداد تكرارها مؤخرًا، بأنها قد نهضت ذات صباح شاحبة، قد جافاها النوم، وغلبها الصداع، ولم يكن في مقدورها على الأغلب أن تعمل، وبهذا شغلت ذويها بأمرها، فكان التساؤل هنا وهناك عن السبب الذي كان قد أدى بها إلى هذا، ولم يعثروا حتى الآن على الجواب. أنا وحدي الذي أعرفه، وهو ضيقها القديم والمتجدد بسببي حقًا، إنني لست منزعجًا بشأنها إلى هذا الحد الذي بلغه انزعاج أسرتها، ذلك أنها قوية

وعنيدة، وأي شخص يقوى على مثل ذلك الانزعاج القوي، يكون قادرًا أيضًا على تجاوز تأثيراته، ولديّ ارتياب ما حتى في أن معاناتها، أو بعضًا منها على الأقل – هي مجرد حجة فحسب، قد قامت لكي تجلب ارتيابًا عامًا فيّ. إنها بالغة الزهو حتى تقر صراحة أي عذاب يمثله لها مجرد وجودي ذاته، وأن تلتمس أي عون من الآخرين ضدي سوف تعده أمرًا أدنى مما يليق بكرامتها، إنه الاشمئزاز وحده، الاشمئزاز المتواصل الفعّال هو ما يدفعها إلى أن تنشغل بي، وأن تناقش علنًا هذا الأمر غير النقي الذي نزل بها، سيكون عارًا بالغًا بالنسبة لها –لكن أن تبقى صامتة كل الصمت حول أمر سيظل يوعز في إلحاح، سيكون هو أيضًا عبئًا ثقيلًا عليها.

وهكذا -بمكر أنثوي- اتخذت سبيلًا وسطًا، فهي تظل صامتة، لكنها تشي بكل العلامات الخارجية الدالة على أسى سرّي؛ لكي تلفت الانتباه العام إلى الأمر. وربما تأمل حتى، في أن الانتباه العام، ما إن يتثبت عليّ، فإن استياءً عامًا شاملًا سيقوم ضدي، ويستخدم قواه الهائلة لكي يدينني على نحو محدد، بفاعلية وسرعة تتفوق كثيرًا على قدرة استيائها الشخصي الضعيف نسبيًا على الفعل، وسيكون لها عندئذ أن تتراجع إلى الخلفية، وتتنفس عميقًا في ارتياح، وتدير ظهرها لي. فلو كان هذا حقًا هو كل ما تأمله، فكم تخدع نفسها؛ ذلك أنّ العلانية لن تعفيها هي من القيام بدورها، وتقوم به بدلًا منها، كما أن علانية الرأي لن تجدني قط مرفوضًا نهائيًا إلى هذا الحد. حتى عندما تضعني علانية الرأي العام هذه تحت مجهرها البالغ القوة، فأنا لست مخلوقًا يفتقر كل الافتقار إلى النفع كما تحسبني هي، لست أريد أفاخر، ولا أريد ذلك خصوصًا فيما يتعلق بهذا الأمر، لكنني إن لم أكن بارزًا بسبب من قيم نافعة بعينها، فإنني بالتأكيد لست بارزًا بافتقاري إلى تلك الصفات، أبدو هكذا فقط بالفعل في عينيها هي اللتين كادت أشعة الضياء أن تفقدها الرؤية، ولن يكون في وسعها أن تقنع أحدًا غيرها. وهكذا

يمكنني أن أطمئن إلى هذا تمامًا، فهل يمكنني ذلك؟ لا، إنني لا أشعر بهذا على الإطلاق، فلو أصبح معروفًا علنًا للجميع أن سلوكي يجعلها بالفعل مريضة، وهو ما لا يبعد بالفعل عن إدراكه بعض المراقبين الذين يحملون إليّ بغاية الاجتهاد أخبارًا عنها، أو يبدون على الأقل وكأنهم يدركونه، وسيضع العالم أمامي تلك الأسئلة: لماذا أزعج المرأة الصغيرة البائسة بتعذيبي لها؟ وهل أقصد أن أدفعها إلى منيتها؟ ومتى أنوي أن أبدي بعض التعقل؟ ومتى سيكون لدي الشعور الإنساني البسيط لكي أكف عن ذلك؟ -فلو كان العالم ليسألني هذه الأسئلة، فسوف يكون من الصعب عليّ العثور على إجابة. فهل يجب عليّ أن أسلم صراحة بأنني لا أعتقد كثيرًا في أعراض المرض هذه، فأستدعي بهذا الانطباع غير المقبول بكوني رجل يلوم الآخرين لكي يتحاشى أن يلام هو نفسه، وعلى هذا النحو الذي يفتقر إلى اللياقة؟ وهل يمكنني أن أقول بكل صراحة، إنني حتى لو كنت أعتقد أنها كانت حقًا مريضة، بأنني لا أشعر بأدنى تعاطف معها، بما أن السيدة غريبة تمامًا بالنسبة لي، وأن العلاقة التي تقوم بيننا هي من صنعها هي، وتقوم فقط من جانبها هي. وأنا لن أقول بأن الناس لن يصدقوني، فهم لن يتوفر لديهم الاهتمام الذي قد يبلغ بهم بالأحرى حدًا لا يكفيهم لكي يصدقوني، ولا لكي لا يصدقوني. لم يتمكن الكلام من أن يبلغ بهم مطلقًا هذا الحد، قد يسجل المرء فقط الإجابة التي قدمتها فيما يتعلق بتلك المرأة الهشة المريضة، وسيكون ذلك في صالحي إلى حد ما. ومثل أي إجابة أخرى قدمتها هنا، سيعترضها حتمًا عدم قدرة العالم على أن يتخلص من الارتياب، في أن حالة كهذه إنما تتضمن علاقة حب، على الرغم من أنه من الواضح كوضوح ضوء النهار أن مثل تلك العلاقة لا وجود لها، وأنها حتى لو وجدت لكانت بالأحرى قد جاءت من جانبي أنا، بما أنني ينبغي لي أن أكون قادرًا على الإعجاب بالمرأة الصغيرة؛ بسبب السرعة الحاسمة

التي تصدر بها أحكامها، وحيويتها المتصلة في القفز إلى نتائج، لو كانت هذه الميزات نفسها لم تتحول دائمًا إلى صراع ضدي، هي على أي حال لا تظهر أثرًا للود تجاهي، وهي أمينة في هذا وصادقة، وفي هذا يكمن أملي الأخير، كما أنه أصبح مما لا يناسب حملتها عليّ أن مثل هذه العلاقة بي قد تصبح قابلة للتصديق، إذا كانت إلى هذا الحد تنسى نفسها، فتتيح لأي من هذه الشكوك أن تقوم. إلّا أن العلنية لرأي العامة البليد كل البلادة في شعوره بهذه الوجهة، سوف يبقى على رأيه المسبق ويتخذ قراره ضدّي دائمًا.

وعلى هذا، فإن الشيء الوحيد الذي بقي لي لكي أعمله، سيكون هو أن أغيّر نفسي في الوقت المناسب، قبل أن يكون باستطاعة العالم أن يتدخل، أغيّر نفسي بما يكفي فقط لكي يقلل من ضيق المرأة الصغيرة، لا لكي يجعلها تتخلص منه كلية، وهو ما لا مجال للتفكير فيه. ولقد تساءلت غالبًا عما إذا كنت راضيًا عن ذاتي كما هي حاليًا، إلى حدٍّ لا أجدني معه راغبًا في أن أغيرها، تساءلت عما إذا كنت لن أستطيع محاولة إحداث بعض التغييرات في نفسي، على الرغم حتى من أنني سيكون عليّ أن أفعل ذلك، لا لأنني أجد لهذه التغييرات ما يتطلبها، بل لمجرد أن أسترضي المرأة الصغيرة، ولقد حاولت بأمانة معرضًا نفسي لبعض الاضطراب والحذر، ولقد أفادني ذلك حتى كاد أن يكون تحوُّلًا، وكانت بعض التغيرات التي حدثت لي مرئية حتى من على بعد بعيد، ولم أكن بحاجة إلى أن ألفت انتباهها إليها، فهي تدرك الأمور التي من هذا القبيل كلها بأسرع مما أدركها، يمكنها حتى أن تدرك مقدمًا من طريقة تعبيري ماذا يدور في ذهني، إلّا أن جهدي لم يكلل بأي نجاح. وكيف كان يمكن لجهودي أن تنجح؟ إن اعتراضها عليّ، كما أعي ذلك الآن، هو اعتراض أساسي، لا يمكن لشيء أن يزيله، ولا حتى إزالتي أنا نفسي من الوجود، فلو أنها سمعت أنني قد انتحرت، لوقعت فريسة لثورات

الغضب.

ولا يمكنني أن أتصور الآن أن هذه المرأة الحاذة الذكاء، لا تستطيع أن تدرك كما أدرك، لافتقار مسار مجهوداتها إلى أيّ أمل للتحقق، ولا هي تستطيع أن تدرك تجردي من أي غرض، لا تستطيع أن تفهم عدم قدرتي مع أفضل النوايا الممكنة في العالم، على أن أتوافق مع مطالبها. بالطبع هي تفهمها، لكن لكونها مقاتلة بطبعها، فإنها تنساها في شغفها الحاد بالقتال، وتستمر نزعتي السيئة الطالع، نزعتي التي لا حيلة لي فيها؛ لأنها نزعتي الطبيعية، تواصل دفعي إلى أن أهمس منبِّهًا في صوت خفيض لأيٍّ ممن يستخف بهم هواهم الحاد العنيف.

على هذا النحو بالطبع، سوف لا نصل إلى تفاهم. وسأواظب دائمًا على مغادرتي للمنزل تقريبًا في ساعات الصباح الأولى الواعدة بالحظ، فقط لكي ألتقي بمحياها، وهي تطأطئ عند رؤيتي، وتجعد شفتيها المفعمتين بالازدراء، وتلك النظرة التي تقيس ما سوف تقع عليه، تلك النظرة الواعية تمامًا بما سوف تجده، والتي تندفع فوقي بقوة، ومع أنها نظرة عابرة، فهي نظرة لا يفوتها شيء، والابتسامة المتهلكة التي تحدد وجنتيها البنُوتيتين، وتطلع عينها إلى السماء تتشكيان، وغرس اليدين في الخصرين، كأنما لتدعيم نفسها، ثم بعد ذلك سورة الهياج التي يصحبها امتقاع اللون والرجفة.

قبل وقت ليس ببعيد، تحينت فرصة، ولأول مرة حقًّا، وهو ما تحققت منه بشيء من الدهشة، لأن أذكر الأمر لصديق من أصدقائي، مخلص جدًّا، على نحو عابر فحسب، وبكلمات قليلة عارضة، مهونًا من شأنه إلى أقل حتى من مجرد إطاره الخارجي؛ ذلك لأنه أمر عادي في جوهره، إذا نظر إليه المرء نظرة موضوعية. وكان غريبًا مع ذلك أن صديقي لم يتجاهله، بل لقد علله في الحقيقة

بما يزيد على ما كنت قد فعلته أنا، ولم يره مجرد مسألة عارضة، وأصر على مناقشته. إلّا أن ما كان أكثر غرابة من هذا كله، هو أنه قلّل من أهمية ميزة من أهم ميزاته، ذلك أنه قد نصحني جادًا بأن أرحل بعيدًا لفترة قصيرة. ولم تكن هناك نصيحة أسهل من هذه على الفهم، كان الأمر بسيطًا إلى حدٍّ كافٍ، وأي شخص يمكنه أن يتفحصه بإمعان كان في مقدوره أن يصل إلى ما يتضمنه، إلّا أن مجرد رحيلي لم يكن ليعدل من وضع الأمر كله بهذه البساطة، ولم يكن ليعدل حتى من وضع جانبه الأكبر، بل إن هذا الرحيل على العكس هو بالضبط ما لا بد لي من أن أتجنبه. فلو كان لي أن أتبع أي خطة فلا بد أن تحتفظ هذه الخطة بالمسألة كلها في داخل نطاق حدودها الضيقة الحالية، تلك التي لم تتشابك بعد مع العالم الخارجي؛ أي أنني لا بد لي من أن أبقى حيث أنا، وألّا أدع بقائي يؤثر في سلوكي إلى أي حد قد يبدو فيه هذا التأثير واضحًا، ويشمل هذا عدم ذكر الأمر لأي شخص، لا لأنه سر من الأسرار الخطيرة، مطلقًا، بل فحسب لأنه أمر تافه، ولأنه مسألة شخصية بحتة، وعلى هذا فليس لي سوى أن أتناول هذا الأمر باستخفاف، وليبق في مكانه على هذا المستوى. وهكذا فلم تكن ملاحظات صديقي في النهاية بغير ذات نفع لي، ذلك أنها إن لم تكن قد علمتني شيئًا جديدًا، فإنها كانت قد زادت من قوة قراري الأصلي.

وبالتفكير في إمعان قد تبدو التطورات التي مر بها الأمر، بمرور الوقت، ليست تطورات للأمر نفسه، بل هي فقط تطورات لوجهة نظري إليه، بقدر ما أصبحت وجهة نظري هذه أكثر هدوءًا من ناحية، وأكثر رجولة، متطرقة إلى مدى أكثر قربًا للغاية من لب المسألة. ومن ناحية أخرى تزايدت زعزعة طبعي تحت تأثير الإجهاد العصبي المتصل الذي لا أقوى على مغالبته مهما كان هيّنًا.

إنني أقل اضطرابًا الآن بسبب الأمر، حتى لأظن أنني أدرك كيف يبدو من غير المحتمل أن ينتهي إلى أي أزمة حاسمة، جلية، كما كانت تبدو أحيانًا؛ إن المرء، خاصة عندما يكون صغير السن، ميّال بطبعه إلى المبالغة في السرعة التي تصل بها اللحظات الحاسمة، وقد اعتدت كلما كانت قاضيتي الصغيرة تتهاوى مغشيًا عليها عند مجرد رؤيتها لي وهي تغطس جانبيًا نحو أحد جانبي مقعد، متشبثة بمسنده الخلفي بإحدى يديها، بينما تجذب بيدها الأخرى خيوط صدريتها ودموع الغضب واليأس تتدحرج فوق خديها، أن أفكر بأن اللحظة قد حانت الآن للرد من جانبي، إلا أنه لم تكن ثمة لحظة حاسمة، ولم تكن هناك أحكام عليّ تتطلب ذلك الردّ، فالنساء يغشى عليهن بسهولة، وليس لدى العالم وقت لكي يلحظ كل ما يفعلنه. وما الذي كان قد حدث حقًّا في كل تلك السنوات لا شيء سوى أن مثل تلك الحالات قد تكررت، أحيانًا بعنف زائد، وأحيانًا على نحو أقل عنفًا، وأن حصيلتها الكلية قد تزايدت تبعًا لذلك، وأن الناس يتسكعون حولنا عن قرب، وربما راق لهم أن يتدخلوا، لو أنهم كانوا قد وجدوا طريقة ما للتدخل، إلّا أنهم لم يتمكنوا من العثور على طريقة للتدخل، وهكذا فإنهم حتى الآن كان عليهم أن يعوّلوا على ما يمكنهم أن يتشمموه، ومع أن ذلك وحده مهيأ تمامًا لكي يشغل أصحاب هذه الأنوف، إلّا أنه لم يكن ليبلغ بهم إلى أي شيء أكثر من ذلك، لكن الموقف كان دائمًا على مثل هذا النحو أساسًا، دائمًا مزودًا بالمتفرجين الذين لا لزوم لهم، والمشاهدين الفضوليين، الذين يبررون دائمًا حضورهم بأعذار ماكرة، مفضلين الزعم بأنهم أقارب، ودائمًا يمدون أعناقهم، يتنشقون المتاعب، إلا أن كل ما حققوه هو أنهم ما زالوا يقفون موقف المتفرجين. والاختلاف الوحيد هو أنني قد انتهيت إلى التعرف عليهم، وإلى تمييز أي وجه من وجوههم عن الآخر. وكنت قد اعتقدت ذات مرة أنهم كانوا فحسب قد تقاطروا تدريجيًا إلى المكان

قادمين من الخارج، وأن المسألة كان لها أصداء أوسع، وهي أصداء كانت هي نفسها تفرض وجود أزمة. واليوم أظن أنني أعرف أنّ هؤلاء المتفرجين كانوا حاضرين دائمًا منذ البداية، وأنه لم يكن لهم سوى القليل، أو أنهم لم يكن لهم دخل قط بوشك حدوث أزمة. والأزمة نفسها، ولماذا أبجلها أنا فأطلق عليها هذا الاسم؟ لو كان من الممكن أصلًا للرأي العام –ليس غدًا بالتأكيد ولا بعد الغد، وقد يبدو أنّ ذلك لن يقع مطلقًا- أن يشغل نفسه بالمسألة التي هي، ولا بد لي أن أكرر ذلك، خارج نطاق قدرته، فإنني بلا شك لن أفلت منه بغير أذى. لكن الناس من ناحية أخرى مقدرتهم أن يضعوا في اعتبارهم أنني لست مجهولًا للجمهور، وأنني قد عشت طوال هذه الفترة في وهج ضوء الشعبية، على نحو لا يفتقر إلى الثقة، وجدير بالمسؤولية، وأن هذه المرأة الصغيرة المحزونة، هذه الوافدة الأخيرة إلى حياتي، والتي، ودعوني أسجل ملاحظتي بالمناسبة، ربما كان أي رجل آخر قد صرفها عنه بفظاظة كقشرة شائكة، وداس عليها بقدمه، وبلا صوت، بصفة خاصة، وأن هذه المرأة قد أمكنها في أسوأ الأحوال فقط، أن تضيف تبجحًا قبيحًا هينًا جدًا إلى الإجازة التي أجازني إياها الرأي العام منذ وقت طويل، باعتباري عضوًا محترمًا في المجتمع. هذا هو النحو الذي تقوم عليه الأمور الآن، ولا يبدو أنها تسبب لي أي اضطراب.

إن حقيقةً أنني بمرور السنوات، كنت مع ذلك قد أصبحت مضطربًا إلى حد ما، لا علاقة له بالمغزى الحقيقي لهذه المسألة، إن رجلًا ببساطة لا يمكنه أن يتحمل كونه هدفًا مستمرًا لضغينة أحد الناس، حتى عندما يعرف معرفة كافية أن الضغينة بلا مبرر، فهو قد يصبح مضطربًا، ويبدأ على نحو جسدي فحسب، في أن يجفل من الأزمات المنذرة بالحدوث، حتى عندما لا يكون معتقدًا كثيرًا شأنه شأن أي رجل أمين بأنها بسبيلها إلى الحدوث. جزئيًا أيضًا هذا الاضطراب هو

عرض من أعراض التقدم في السن؛ فالشباب يضفون ازدهارًا ما على كل شيء، والصفات المربكة لا تتبدى للعين في غمار الفيض اللا نهائي للطاقة الشابة؛ فلو كان لرجل، كشاب، على نحو ما، عين يقظة، فإن ذلك مما لا يحسب ضده، بل إنها، تلك العين الحذرة، لا تكاد تبدو ملحوظة بالمرة حتى له هو نفسه، لكن الأشياء التي تتبقى الآن في الشيخوخة إنما هي البقايا وحدها، وكل منها ضروري، ولا شيء منها يتجدد، ويكون كل منها تحت الفحص، والعين الحذرة للرجل المتقدم في السن هي عين يقظة في وضوح، وليست مما يصعب إدراكه. فقط هي، كما هو الحال في هذا الشأن، لا تمثل فسادًا فعليًا لحالته.

وهكذا فمن أي ناحية أنظر منها إلى هذه المسألة الصغيرة يبدو لي، وسألتزم بذلك –أنني إن ظللت أضع يدي فوقها، حتى وإن كان ذلك بخفة كافية، فإنني سوف أواصل، فأحيا في هدوء حياتي الخاصة لوقت طويل قادم، لا يسبب لي العالم إزعاجًا، على الرغم من كل اندلاعات غضب المرأة.

***

أول حزن

كان فنان عقلة متحركة –هذا الفن الذي يمارس عاليًا في جوف قباب مسارح المنوعات الكبرى، من المسلم به أنه أحد أصعب الفنون التي يمكن أن تنجزها البشرية- قد رتب حياته، طالما واصل العمل في نفس المبنى، على ألّا يهبط قط عن عقلته ليلًا أو نهارًا. في البداية كان ذلك فقط بدافع من الرغبة في إتقان مرانه، لكن فيما بعد كانت العادة بقوتها البالغة قد دفعته إلى ذلك؛ فكانت كل حاجاته، وهي حاجات بالغة التواضع، يتم تزويده بها بواسطة مساعدين مناوبين يرقبون من أسفل، وكان يرفع إليه، ويهبط من عنده ثانية، في حاويات مشيدة على نحو خاص، كل ما كان يتطلبه.

لم تسبب هذه الطريقة في الحياة أي متاعب بعينها للعاملين بالمسرح، فيما عدا أنه عندما كان يجري أداء عروض أخرى فوق المسرح، أثبت كونه لا يزال هناك في أعلى، وهو ما لم يكن يسهل إخفاؤه، أنه أمر مشتت للانتباه إلى حد ما، وكذلك أيضًا حقيقة أنه، وإن كان يبقى في مثل هذا الوقت ساكنًا على الأغلب، إلا أنه كان يجذب نظرة شاردة ما هنا وهناك من وسط الجمهور. لكن تجاوزت الإدارة عن ذلك لأنه كان فنانًا خارقًا للعادة، ومتفردًا في أدائه. وكانوا بالطبع قد أدركوا أن هذه الصيغة للحياة لم تكن مزحة خالصة، فبهذه الطريقة وحدها كان يمكنه حقًا الاحتفاظ بنفسه في حالة مران مستمر، ويظل فنه بهذا في أقصى درجة من درجات اكتماله.

وقد كان الجو أيضًا صحيًا تمامًا هناك في أعلى، وعندما كان يتم فتح كل نوافذ المسرح حول القبو في فصول السنة الأكثر حرارة، وتتدفق أشعة الشمس

والهواء النقي بلا عائق إلى داخل القبوة المعتمة، كان حتى ذلك أيضًا يبدو جميلًا.

كانت حياته الاجتماعية محدودة حقًّا على نحو ما؛ أحيانًا فقط كان فنان أكروبات زميل يتسلق الدرج صاعدًا إليه، وكانا يجلسان معًا عندئذ فوق العقلة، ويتحادثان، أو قد يتبادل معه عمال البناء الذين يعملون في إصلاح السقف كلمات قلائل من خلال نافذة مفتوحة، أو يهتف له الوقاد بينما يتفحص الإضاءة الاضطرارية في البهو العلوي بشيء يبدو مفعمًا بالاحترام، وإن كان مضمونه لا يكاد يتضح، وفيما عدا ذلك لم يكن هناك ما يزعج عزلته؛ وأحيانًا ربما كان أحد عمال المسرح، في تجواله في أنحاء المسرح الخالي في فترة ما بعد الظهيرة، يحدق إلى أعلى متفكرًا في فراغ ارتفاع السقف الهائل، وهو في خارج مجال الرؤية على الأغلب، حيث يقوم فنان العقلة المتحركة على غير وعي منه بأن هناك من يرقبه، بممارسة فنه، أو يستريح.

كان في استطاعة فنان العقلة المتحركة أن يواصل حياته على هذا النحو في سلام، لولا تلك الرحلات التي لا مفر منها من مكان إلى مكان، والتي وجدها مرهقة إلى أقصى حد. وبالطبع كان مديره الفني قد رتب الأمر بحيث لا تطول معاناته لحظة واحدة زائدة عن الضرورة؛ فبالنسبة للرحلات داخل المدن، كانت تستخدم السيارات السريعة التي كانت تنطلق به ليلًا -إن أمكن- أو في أول ساعات الصباح. خلال الشوارع الخالية بأقصى سرعة المطاردة، وإن تكن بالغة البطء مع ذلك بالنسبة لفراغ صبر فنان العقلة المتحركة؛ أما بالنسبة للرحلات بالقطار، فقد كان يتم حجز ديوان بأكمله، بداخله كان يقضي فنان العقلة المتحركة وقته معتليًا رف الأمتعة، بديلًا، وإن يكن متواضعًا لأسلوب حياته المعتاد، وفي المدينة التالية في جولتهما، وقبل أن يصل بوقت طويل، كانت

العقلة تعلق عاليًا في المسرح، وكانت كل الأبواب المؤدية إلى خشبة المسرح تفتح على اتساعها، وتترك كل الممرات خالية –إلّا أن المدير الفني لم يكن يعرف قط أي لحظة سعادة حتى يضع فنان العقلة المتحركة قدمه فوق السلم المصنوع من الحبال، وفي غمضة عين، بعد طول انتظار يتعلق عاليًا فوق عقلته.

ذات مرة عندما كانا يرحلان معًا مرة أخرى، وكان فنان العقلة المتحركة مستلقيًا يحلم فوق شبكة رف الأمتعة، وكان المدير الفني يضطجع في مقعد النافذة المقابلة يقرأ كتابًا، وجّه فنان العقلة المتحركة حديثه إلى مرافقه في صوت خفيض، وانتبه المدير في الحال. قال فنان العقلة المتحركة، وهو يعض على شفتيه، بأنه لا بد من أن يكون لديه من الآن عقلتان إحداهما في مواجهة الأخرى، ووافق المدير في الحال. لكن فنان العقلة المتحركة، وكأنما ليوضح أن موافقته هذه تعادل في قلة جدواها ما يؤدي إليه رفضه، قال إنه لن يقوم بأداء فنه مرة أخرى قط فوق عقلة واحدة، ومهما كانت الحال، وكان مجرد تصور أن ذلك يمكن أن يحدث ولو لمرة أخرى فقط قد جعلته يرتجف.

وقد أكد المدير وهو يتحسس طريقه في انتباه، مرة أخرى موافقته التامة، فعقلتان كانتا أفضل من عقلة واحدة، بالإضافة إلى أن ثمة نفع أيضًا لهذا التجهيز الجديد، فسوف يكون ممكنًا تقديم مزيد من المنوعات في العرض. عند ذاك تفجرت دموع فنان العقلة المتحركة فجأة. وانتفض المدير واقفًا على قدميه في حزن عميق، وتساءل عن الأمر، وعندما لم يحصل على إجابة، صعد فوق المقعد، وربت عليه وخداهما متلاصقان حتى لقد تبلل وجهه هو بدموع فنان العقلة المتحركة. إلّا أن الأمر استلزم كثيرًا من الأسئلة والتهدئة المتوددة حتى نشج فنان العقلة وهو يقول: «تظل فقط العقلة الواحدة هي كل ما في يدي،

فكيف يمكنني أن أعيش!» وقد سهل هذا للمدير على نحو ما كيف يتمكن من إرضائه، فوعده بأنه سيبرق من المحطة التالية مباشرة، بأن يتم إحضار عقلة ثانية، وأن يتم تركيبها في أول مدينة في دورتهما، ووجه اللوم إلى نفسه؛ لكونه قد ترك الفنان يعمل طوال هذه المدة كلها فوق عقلة واحدة فقط، وشكره وأثنى عليه بحرارة لأنه أخيرًا قد أشار له إلى خطئه. وهكذا بلغ المدير غايته في إعادة التأكيد لفنان العقلة المتحركة، شيئًا فشيئًا، وأصبح في إمكانه أن يعود راجعًا إلى ركنه. إلا أنه هو نفسه كان قد أصبح أبعد ما يكون عن إعادة الطمأنينة إلى نفسه، فقد ظل يرمق فنان العقلة المتحركة خفية بقلق عميق من فوق حافة كتابه. فهل لمثل هذه الأفكار إن هي بدأت تعذبه على هذا النحو، أن تتركه بعد ذلك ثانية؟ وهل لن يكون لها أن تتزايد في إلحاحها عليه؟ وهل لن يكون لها أن تهدد وجوده ذاته؟ وكان المدير الفني قد اعتقد حقًّا بأنه قد أمكنه أن يرى خلال النوم الهادئ، في ظاهره، ذلك الذي أعقب نوبة ذرف الدموع، أولى تجاعيد الحرص تحفر نفسها فوق جبهة فنان العقلة المتحركة، الناعمة كجبهة طفل.

* * *

الصيّاد جراكوس

«شذرة»

- كيف هذا، هل ظللت أيها الصياد جراكوس مبحرًا بهذا القارب العتيق طوال القرون؟».

- «ألف وخمسمائة سنة حتى الآن».

- «ودائمًا في هذه السفينة نفسها؟».

- «في هذا الزورق نفسه. إن الزورق فيما أعتقد هو الكلمة الصحيحة، إنك لست معتادًا على شؤون الملاحة فيما يبدو، أليس كذلك؟».

- «لا؛ إنها اليوم هي المرة الأولى التي أهتم فيها بهذه الشؤون –فقط منذ أن سمعت عنك، منذ أن ركبت سفينتك».

- «لا ضرورة لأي اعتذار. إنني آتى من داخل اليابسة أيضًا. أنا لم أكن ملّاحًا، ولم أرغب قط في أن أكونه، فلقد كانت الجبال والغابات عادة هي أصدقائي؛ ولكنني الآن الصياد جراكوس، أقدم الملّاحين؛ الإله الحامي للبحّارة؛ الصيّاد جراكوس الذي يصلي له فتية القمرات، وهم يعتصرون أيديهم، عندما ينتابهم الفزع في أعشاش الغربان، في ليل العاصفة، لا تضحك».

- «هل ينبغي لي أن أضحك؟ لا، مطلقًا في الحقيقة، لقد وقفت أمام باب قمرتك بقلب واجف، وبقلب واجف دخلتها، لقد هدأ طبعك الودود من رَوْعي شيئًا ما، على أنني لن أنسى أبدًا في ضيافة من أكون».

- «أنت على حق بالطبع، فليكن ما يكون، إنني الصيّاد جراكوس ألا تريد أن تتذوق شيئًا من هذا النبيذ -إنني لا أعرف نوعه، لكنه حلو، وثقيل- إن الراعي يهتم بأمري».

- «ليس الآن، شكرًا، إنني في غاية القلق. فيما بعد ربما، لو سمحت لي بالبقاء طويلًا. ولا أجرؤ، فوق ذلك، على أن أشرب من زجاجتك، من هو الراعي؟».

- «صاحب القارب. هؤلاء الرعاة هم دون شك، ناس مرموقون. على أنني لا أفهمهم وحَسب. لا أعني بهذا لغتهم، مع أنني بالطبع غالبًا ما لا أفهم لغتهم هي أيضًا. لكن هذا خارج عن الموضوع -لقد تعلمت ما يكفي من اللغات على مر القرون، وكان باستطاعتي أن أقوم بدور المترجم بين الجيل الحاضر وبين أسلافه. لكن ما لا أفهمه هو طرق تفكير الرعاة، ربما يمكنك أن تشرحها لي».

- «لا آمل كثيرًا في هذا، كيف يمكن أن أشرح لك أي شيء، بينما أنا لست حتى مجرد طفل يلغو بالمقارنة بك».

- «ليس الأمر كذلك، مرة فقط وبصورة قاطعة ليس الأمر كذلك. إنك إنما تسدي إليّ معروفًا إذا تحدثت برجولة أكثر قليلًا، لو تحدثت بمزيد من الثقة بالنفس، قليلًا. ما فائدة أن يكون لدى المرء شبح في صورة ضيف؟ إنني لأعصف به خارجًا من باب العنبر، إلى البحيرة. إنني في حاجة إلى تفسيرات عددية، وأنت الذي تطوف مسرعًا في الخارج، يمكنك أن تقدمها لي. لكن لو شئت أن تجلس مرتعدًا هنا إلى مائدتي، وتخدع نفسك بنسيان القليل الذي تعرف، فماذا يتبقى إذَن، يمكنك أن تغادر هذا المكان حالًا، وإنني لأعني تمامًا ما أقول».

- «هناك شيء ما فيما تقول. إنني، في الحقيقة، أتفوق عليك من نواحٍ عدة،

وسوف أحاول لهذا أن أتمالك نفسي، فاسأل ما تشاء!».

- «هذا أفضل، أفضل كثيرًا، وأنت الآن تجهد نفسك غاية الإجهاد في المضي في الاتجاه العكسي، وتتخيل أنك متفوق في بعض أنواع الأساليب، لكن عليك أن تفهمني فهمًا صحيحًا. إنني بشر مثلك، لكنني فقط أكثر منك نفاذًا للصبر بتأثير القرون القليلة التي أكبرك بها في العمر. وعلى هذا دعنا نتحدث عن الرعاة. انتبه، اشرب بعض النبيذ لكي تشحذ قريحتك، لا تكن هيّابًا، اشرب. توجد شحنة كبيرة باقية لديّ لا تزال من هذا النبيذ».

- «هذا النبيذ ممتاز يا جراكوس، فليهنأ راعيك».

- «لقد توفي اليوم للأسف. كان رجلًا طيبًا، ولقد رحل في سلام. لقد وقف أولاده الأصحاء اليافعون حول فراش موته، وانهارت زوجته مغشيًا عليها تحت قدميه، ومع ذلك كانت أفكاره الأخيرة تدور حولي، رجل طيب، مواطن من هامبورج».

- «يا إلهي الطيب، من هامبورج، وتعرف أنت هنا في الجنوب أنه قد مات اليوم؟».

- «ماذا؟ لماذا لا يكون لي أن أعرف عندما يموت من يرعاني؟ إنك حقًا، بسيط التفكير تمامًا».

- «هل تحاول أن تهينني؟».

- «لا، لا أبدًا، إنني أفعل هذا على الرغم مني، لكن ليس لك أن تبدي هذه الدهشة، وعليك أن تحتسي المزيد من النبيذ، أما فيما يتعلق بالرعاة، فإن الوضع

هو كما يلي: أساسًا لم يكن القارب ملكًا لأحد».

- «جراكوس، لي طلب. قل لي أولًا باختصار، لكن في صيغة متماسكة، كيف تبدو أمورك؟ فلكي أقول لك الحق، أنا بالفعل لا أعرف. بالطبع، أنت تأخذ كل شيء على أنه أمر مسلم به، وتزعم، كما هي عادتك، أن الدنيا كلها تعرف كل شيء. لكن في حياتنا البشرية القصيرة الأمد هذه، -فالحياة حقًا قصيرة يا جراكوس، حاول أن تدرك ذلك بنفسك- تكون يدا المرء مشغولتين في محاولته لأن يصنع شيئًا ما، من نفسه، ومن أسرته. وبقدر ما يعد الصياد جراكوس شخصًا مثيرًا للاهتمام– وهذا اعتقاد من جانبي، وليس إطراءً دنيئًا- إلّا أن المرء لا يجد لديه متسعًا من الوقت لكي يفكر فيه، ولكي يكتشف حقيقته؛ هذا بصرف النظر عن مدى الاستعداد للتورط في أي إزعاج بخصوصه. ربما أمكن للمرء أن يفعل هذا على فراش الموت، مثل صاحبك الذي من هامبورج –لكنني لست أدرى. ربما أتيح لرجل مشغول في أول فرصة، أن يقضي وقتًا ينطرح فيه أرضًا، ثم قد يشرد جراكوس الصيّاد الأخضر أخيرًا بعد ذلك مستغرقًا في أفكاره العقيمة. لكن المسألة هي، خلافًا لذلك، على النحو الذي ذكرته لك. إنني لا أعرف شيئًا عنك. ولقد جاءت بي مشاغلي العملية إلى الميناء هنا، ورأيت القارب، وكانت السقّالة ملقاة فعبرتها-، لكنني أرغب الآن رغبة شديدة في أن أعرف شيئًا متماسكًا عنك».

- «آه، شيئًا متماسكًا، نفس القصص القديمة، القديمة. كل الكتب ملأى بها؛ والمدرسون يرسمونها فوق السبورات في كل مدرسة، وتحلم بها الأمهات، بينما يرضع الأطفال أثدائهن، إنها قصص يتم الهمس بها في حالات المعانقة، ويقولها التجار لزبائنهم، والزبائن يحكونها للتجار، وينشدها الجنود في المسيرات، والواعظ يهتف بها في الكنيسة، ويرى المؤرخون في داخل حجراتهم بأفواه

مفغورة، ذلك الذي حدث قبل زمن طويل، ويصفونه بلا انقطاع، إنها قصص تطبع في الصحف، ويتناقلها الناس من يد ليد، لقد اخترع البرق كي يتاح لها أن تطوف حول الأرض على نحو أسرع، ويتم اكتشافها في الحفائر التي تنقب عن المدن المدفونة، وتسرع المصاعد بها إلى قمم ناطحات السحاب، ويعلنها ركاب قطارات السكك الحديدية من نوافذ القطارات إلى المناطق التي يمرون بها في سفرهم، لكن كان الصبح قبل ذلك قد عَوَوا بها نحوهم، ويمكن قراءتها في النجوم، وتحمل انعكاساتها أسطح مياه البحيرات، وتهبط بها الجداول من أعالي الجبال، وتجلس أنت هنا، أيها الرجل، وتسألني عن التماسك. لا بد أنك قضيت شبابًا ضائعًا بصورة متفردة!».

- من الممكن أن يكون ذلك قد حدث، كما هي الحال التي تنقضي بها كل مراحل الشباب، لكن سيكون من المفيد جدًا لك، فيما أعتقد، لو تطلعت مرة إلى الدنيا من حولك قليلًا. وكما قد يبدو لك غريبًا –وإنني لأكاد أستغربه أنا نفسي، في جلستي هنا- على الرغم من ذلك، أنك حقيقة لست موضوعًا للحديث في المدن، ومهما كانت كثرة عدد الأشياء التي تناولتها الأحاديث، فأنت لست من بينها. إن الدنيا تمضي في طريقها، وأنت تقوم برحلاتك، لكنني لم ألحظ قط إلى اليوم، أن هذه الطرق قد تقاطعت أحدها مع الآخر».

- «يا عزيزي، هذا ما لاحظته أنت، على حين لاحظ آخرون أمورًا أخرى. ويوجد عند هذه النقطة احتمالات فقط، إما أنك قد احتفظت في صمت بما عرفته عني، وكان لك بفعلك هذا غرض محدد في نفسك. وفي مقدوري، في هذه الحالة، أن أقول لك بصراحة تامة: أنت على الطريق الخطأ. أو أنك من ناحية أخرى تعتقد حقًا بأنك لا تستطيع أن تتذكر أي شيء عني؛ لأنك قد خلطت قصتي مع

قصة شخص آخر. وفي تلك الحالة، كل ما يمكنني أن أقوله لك هو: إنني –لا، لا أستطيع؛ فكل شخص يعرف القصة، ولماذا يتعين عليّ أن أكون أنا من يحكيها لك؟! لقد كانت كلها في زمن بعيد للغاية، فاسأل عنها المؤرخين؛ فهم يرون في دراساتهم بأفواه مفغورة ذلك الذي حدث منذ زمن بعيد، ويصفونه بلا انقطاع. اذهب إليهم، ثم عد. لقد كان ذلك كله منذ زمن بعيد للغاية، فكيف يكون متوقعًا مني أن أحتفظ به كله بداخل هذا العقل المزدحم غاية الازدحام؟».

- «انتظر يا جراكوس، سأسهل لك المهمة، سأوجه إليك أسئلة. من أين أتيت؟».

- «من الغابة السوداء، كما هو معلوم في العالم كله».

- «بالطبع، من الغابة السوداء، ولقد قمت هناك ببعض أعمال الصيد في القرن الرابع؟».

- «هل تعرف الغابة السوداء يا رجل؟».

- «لا».

- «حقًّا، إنك لا تعرف شيئًا، إن طفل ماسك الدفة الصغير يعرف قدر ما تعرف أنت، وربما يعرف أكثر كثيرًا مما تعرف. من ذا الذي أرسلك إلى هنا؟ لقد كان ذلك محتومًا. كان لتواضعك المتطفل ما يبرره على خير وجه، إنك لغو أملأه أنا بالنبيذ. وهكذا فأنت حتى لا تعرف الغابة السوداء، وكنت أنا قد ولدت هناك، وكنت أمارس الصيد فيها حتى بلغت عامي الخامس والعشرين، فلو لم تقتدني ظبية الشمواه خلفها –وتعرف أنت ذلك الآن- لكنت قد قضيت حياة طويلة، ورائعة لصياد، لكن الشمواه اقتادتني، وهكذا سقطت، قتيلًا فوق الصخور.. فلا

تسأل أي أسئلة أخرى. هأنذا ميت، ميت، ميت. لست أدري لماذا أنا هنا. كنت في ذلك الحين قد سجيت فوق سطح قارب الموت، وهو ما كان يليق برجل ميت، وكانت المهام الثلاث أو الأربع التي تلزمني قد تم إنجازها، كما يحدث لأي شخص آخر –فما الذي يجعل الصياد جراكوس استثناء؟».

كل شيء كان قد حدث في ترتيبه المضبوط، واستلقيت أنا ممدَّدًا في القارب».

اغتيال أخ

من الثابت أن الاغتيال قد تم على النحو التالي:

اتخذ شمار القاتل مكانه في حوالي الساعة التاسعة ذات مساء في ضوء القمر الساطع عند ركن، كان على ڤيزه الضحية أن يستدير عنده قادمًا من الزقاق الذي يقع فيه مكتبه، إلى الزقاق الذي كان يقطنه.

كان هواء الليل مرعش البرودة، إلّا أنّ شمار كان يرتدي فقط بدلة رقيقة زرقاء، وكانت السترة فوق هذا مفكوكة الأزرار. لم يكن يشعر بأي برودة، وكان أيضًا يتحرك في مكانه طوال الوقت، وكان سلاحه وهو نصف سونكي ونصف سكين مطبخ مضمومًا في قبضته بشدة، في وضع مكشوف تمامًا. تطلع إلى السكين في ضوء القمر، تألق النصل، ولم يكن هذا ليكف شمار، فضرب به على أحجار قرميد الرصيف حتى تطاير منه الشرر، فأسف لذلك ربما، ولكي يصونه عن الضرر، سحبه كما يسحب قوس الفيولينة فوق كعب حذائه، بينما كان ينحني إلى الأمام واقفًا على ساق واحدة متسمعًا إلى حفيف السكين فوق حذائه ذي الرقبة، وإلى أي صوت يصدر عن الزقاق الجانبي المرصود في الوقت نفسه.

فلماذا سمح بالاس المواطن المدني الذي كان يرقب ذلك كله من نافذته القريبة من المكان في الطابق الثاني، بأن يحدث ما حدث؟ تقصّ الطبيعة البشرية! وقف بياقته مطوية إلى أعلى ورداء نومه قد التف حول جسده العريض، متطلعًا إلى أسفل، هازًا رأسه.

وعلى مسافة خمسة بيوت في الجانب الآخر من الزقاق، كانت «فراو يزه» مرتدية معطفًا من فراء الثعلب فوق قميص نومها، وقد تطلعت خارجًا؛ كي ترقب

زوجها الذي كان قد تأخر الليلة على غير المعتاد.

وأخيرًا رنّ صوت جرس الباب أمام مكتب يزه مرتفعًا للغاية بالنسبة لجرس باب، فوق المدينة مباشرة، متصاعدًا نحو السماء، وبرز ڤيزه العامل الليلي المجتهد خارجًا، وإن كان لم يظهر بعد في ذلك الزقاق؛ ينبئ فقط عن خروجه من المنزل صوت الجرس، وردد الرصيف في الحال وقع خطواته الهادئة.

انحنى بالاس أكثر إلى الأمام، لم يكن ليسمح بأن يفوته أي شيء، وأغلقت فراو ڤيزه نافذتها بقرقعة، وقد اطمأنت لسماع صوت الجرس، لكن ركع شمار إلى أسفل، ولما لم تكن أجزاء أخرى من جسده عارية، فقد ضغط وجهه فقط ويديه على أحجار الرصيف، وبينما كان كل شيء آخر يتجمد، كان شمار يتوهج حرارة.

تمامًا عند الناصية التي تفصل بين الزقاقين، توقف ڤيزه، برزت عصاه فقط إلى داخل الزقاق الآخر لكي تدعمه، وهم مفاجئ أبقاه واقفًا. دعته سماء الليل، بلونها الأزرق الغامق، ولونها الذهبي، ودون أن يدري تطلع إليها في أعلى، وبلا وعي رفع قبعته، وسوّى شعر رأسه، لم يكن ثمة شيء هناك قد تجمع كي يفسر له مستقبله العاجل، ظل كل شيء في مكانه المبهم والخالي من المعنى، كان في ذاته ولذاته فعلًا معقولًا للغاية، أن يتقدم ڤيزه أكثر إلى الأمام، إلّا أن يتقدم نحو سكين شمار.

صاح شمار، وهو يقف فوق أطراف أصابع قدميه، مادًا ذراعه، وقد انخفضت السكين في حدة: «ڤيزه، ڤيزه؛ سدى انتظرتك يوليا»، وانغرست سكين شمار في يمين الرقبة، وفي يسار الرقبة، ومرة ثالثة عميقًا في جوف البطن.

وينطلق من المياه، وهي تنفجر منشقة، صوت شبيه بذلك الصوت الذي انطلق من ڤيزه.

قال شمار: «انتهى» وطوح بالسكين، وعندها لطخ الدم الزائد الحصا أمام واجهة أقرب منزل.

«نعمة الاغتيال، الارتياح، النشوة المجنحة المنبثقة من إراقة دماء الغير؛ ڤيزه يا ظل الليل العتيد، أيها الصديق، يا رفيق الحانة، ها أنت تنزف ممعنًا في التواري في جوف التربة المظلمة تحت الشارع. فلمَ لم تكن قربة دماء فحسب، حتى يمكنني أن أقف فوقها بقدميّ فأجعلك تتلاشى، فتستحيل عدمًا، لا يتحقق كل ما نريد، لا تحمل كل الأحلام ثمرًا عندما تزدهر، ها هي بقيتك الأثقل وطأة تستلقي هنا، لا تبالي بالفعل بأي ركلة؛ ما جدوى السؤال الأبكم الذي تتساءله؟».

وعلى باب منزله ذي المصراعين عندما اندفع مفتوحًا، وقف باللاس يغص جسده المختنق بالسُم: «شمار، شمار؛ لقد رأيت كل شيء، لم يفتني شيء».

تفحص باللاس وشمار أحدهما الآخر، وأراحت باللاس نتيجة التفحص؛ ولم ينته شمار إلى نتيجة.

واندفعت فراو ڤيزه، وحواليها جمع من الناس، قادمة؛ وقد شاخ وجهها تمامًا بفعل الصدمة، وانفتح معطفها الفرو، وتهاوت فوق ڤيزه. كان الجسد الذي يضمه الرداء الليلي ينتمي إلى ڤيزه، وكان المعطف المنتشر فوق الزوجين كالأرض المعشبة الملساء حول قبر، ينتمي فراؤه المنغلق إلى الحشد.

وأطبق شمار، الذي كان يغالب بصعوبة غثيانه الأخير، فمه فوق كتف رجل الشرطة الذي قاده، بينما كان يخطو في خفّة، مبتعدًا به.

***

الصياد جراكوس

كان صبيّان يجلسان فوق سور الميناء يلعبان النرد، وكان رجل يقرأ جريدة فوق درج النصب، يستريح في ظل بطل كان يشهر سيفه عاليًا، وفتاة كانت تملأ دلوها عند النافورة، وبائع فاكهة كان يستلقي بجوار بضاعته، يحدق بعيدًا في البحر. وفي عمق فتحتي النافذة والباب الخاليتين في حانة، كان باستطاعة المرء أن يرى رجلين في الخلفية يجلسان لاحتساء نبيذهما. وكان صاحب المشرب جالسًا إلى منضدة في المقدمة نعسان. وكان قارب يدنو في صمت من المرفأ الصغير، كما لو كان محمولًا فوق الماء على نحو ما. وصعد رجل يرتدي قميصًا أزرق اللون إلى الشاطئ، وجذب الحبل من خلال حلقة، وخلف صاحب القارب كان رجلان آخران في ثوبين داكنين بأزرار فضية يحملان نعشًا، فوقه، كان يستلقي فيما يبدو، رجل، تحت غطاء حريري هائل نسقت رسومه على هيئة الزهور، تتدلى منها الشراريب.

لم يهتم أحد على رصيف الميناء بأمر هؤلاء القادمين الجدد، حتى عندما أنزلوا النعش، كي ينتظروا صاحب القارب، الذي كان لا يزال منشغلًا بالحبل الذي في يده، ولم يقترب منهم أحد، ولم يوجه إليهم أحد سؤالًا، ولا ألقى عليهم أحد نظرة فضولية.

وكان البحّار قد احتجزته لا تزال امرأة، بطفل فوق صدرها، كانت قد ظهرت الآن بشعرها المفكوك فوق ظهر القارب. ثم تقدم البحّار وأشار إلى منزل ذي طابقين، يميل لونه إلى الصفرة كان قد قام فجأة إلى اليسار على جانب البحر، والتقط الحمّالان حملهما، واتجها به نحو الباب الخفيض ذي الأعمدة الرشيقة.

وفتح صبي صغير نافذة، تمامًا في اللحظة المناسبة، ليرى الجماعة وهي تختفي في داخل المنزل، ثم أغلق النافذة ثانية في عجلة. وكان الباب مغلقًا الآن أيضًا، كان مصنوعًا من البلّوط الأسود، بمتانة زائدة. وحطّ سرب من الحمام الذي كان طائرًا حول برج الناقوس، في الشارع أمام المنزل، وتجمع أمام الباب كما لو كان طعامه قد تم تخزينه هناك. وطارت إحدى حمامات السرب محلقة نحو الطابق الأول، ونقرت بمنقارها زجاج النافذة. كانت حمائم السرب طيورًا جميلة صافية اللون، قد لقيت عناية كافية. قذفت إليها المرأة التي كانت بالقارب بالحبوب في دفعة واسعة المدى، فالتقطتها، وطارت تعبر المسافة نحو المرأة.

وهبط رجل يرتدي قبعة عالية مربوطة بشريط الحداد، أحد الحواري الضيقة، البالغة الانحدار، المؤدية إلى الميناء. تطلع حوله بيقظة، وبدا أن كل شيء يسيئه، والتوى فمه لمرأى بعض النفايات في أحد الأركان. كانت قشور الفاكهة ملقاة فوق درجات التمثال، أزاحها بعيدًا بعصاه عند مروره بها، وقرع بها المنزل، رافعًا في نفس الوقت قبعته العالية من فوق رأسه بيمناه التي يغطيها قفاز أسود اللون. فُتح الباب في الحال، وظهر حوالي خمسين طفلًا صغيرًا، اصطفوا على امتداد حائطي رواق المدخل، وانحنوا له.

هبط ملّاح القارب الدرج، وحيّا السيد الذي يرتدي الرداء الأسود، واصطحبه صاعدًا إلى الطابق الأول، ودار معه حول الشرفة الرشيقة المضيئة التي كانت تحيط بالفناء، ودخل كلاهما، بينما اندفع الصبية خلفهما عن بُعد يشي بالتوقير، إلى حجرة فسيحة باردة تطل على الخلفية، لم يكن يرى من خلال نوافذها أي منزل آخر، سوى حائط مكشوف صخري يتقاسمه اللونان الأسود والرمادي. كان الحمّالان مشغولان بتثبيت وإشعال شموع طويلة عديدة عند رأس النعش، إلا أن

هذه الشموع لم تبعث ضوءًا، فقط أبعدت الظلال التي لم تكن قد تحركت حتى ذلك الحين، وجعلتها تخفق فوق الجدران، وكانت الملاءة التي تغطي النعش قد طُرحت إلى الخلف، وفوقها كان يستلقي رجل تشوش نمو شعره مختلطًا بتهوش لحيته واصطبغت بشرته باللون البني وبدا شبيهًا بالصياد على نحو ما، كان يستلقي بلا حركة، وكأنه لا يتنفس، كانت عيناه مغلقتان، لكن أوضحت متعلقاته - مع ذلك- أنه ربما كان ميتًا.

خطا السيد نحو النعش، ووضع يده على جبين ذلك المستلقي فوقه، ثم ركع، وراح يصلي. وأتى ملّاح القارب بإشارة إلى الحمّالين لكي يغادرا الحجرة، فخرجا؛ ودفعا الأطفال الذين كانوا قد تجمعوا في الخارج بعيدًا، ثم أغلقا الباب. لكن حتى هذا لم يبد أنه قد أرضى السيد، فألقى نظرة على ملّاح القارب. وفهم الملّاح، واختفى، من خلال باب جانبي، في الحجرة المجاورة. وفي الحال فتح الرجل المستلقي فوق النعش عينيه، وأدار وجهه في ألم ناحية السيد، وقال: «من أنت؟»، ومن دون أي علامة تدل على الدهشة، نهض السيد من وضعه الراكع، وأجاب: «محافظ مدينة ريفا».

أطرق الرجل المستلقي فوق النعش، وأشار إلى مقعد، بحركة واهنة من ذراعه، وقال بعد أن تقبل محافظ المدينة دعوته: «لقد عرفت ذلك بالطبع يا سيدي المحافظ، لكنني في اللحظات الأولى لاستعادتي وعيي، دائمًا أنسى؛ إن كل شيء يأخذ في الدوران أمام عيني، ومن الأفضل لي أن أتساءل عن أي شيء حتى لو كنت أعرفه. أنت أيضًا ربما تعلم أنني الصيّاد جراكوس».

قال محافظ المدينة: «بالتأكيد، كنت قد أُنبئت بوصولك في أثناء الليل، لقد كنا نائمين لفترة طويلة، ثم في حوالي منتصف الليل صاحت زوجتي قائلة:

«سلفاتوري –وهذا هو اسمي- انظر إلى تلك الحمامة عند النافذة كانت حمامة حقًا كبيرة في مثل حجم الديك، طارت فوقي، وقالت في أذني: «غدًا يصل الصيّاد جراكوس الميت، فاستقبله باسم المدينة.

أطرق الصيّاد برأسه، ولعق شفتيه بطرف لسانه قائلًا: «نعم، طارت الحمائم إلى هنا قبلي، لكن هل تعتقد يا سيدي المحافظ، أنني سوف أبقى في ريفا؟».

وأجاب المحافظ: «لا يمكنني أن أقول ذلك بعد. هل أنت ميت؟».

قال الصيّاد: «نعم، كما ترى. منذ سنوات طويلة مضت، نعم لا بد أن سنوات طويلة جدًا قد انقضت، لقد سقطت من فوق قمة هاوية في الغابة السوداء – وتقع هذه في ألمانيا-، عندما كنت أطارد ظبيًا من فصيلة الشامواه، وأنا ميت منذ ذلك الحين».

قال المحافظ: «ولكنك حيّ أيضًا».

قال الصيّاد: «بمعنى ما، أنا حي أيضًا بمعنى ما. لقد ضلت سفينة موتي طريقها، دورة خاطئة دارتها وجهة الدفة، لحظة شرود ذهن من جانب الربّان، أمنية لأن أستدير منعطفًا في اتجاه بلدي وموطني المحبوب لا يسعني أن أذكر كيف كان ذلك، كل ما أعرفه هو أنني قد بقيت فوق الأرض، وأن سفينتي منذ ذلك الحين، قد أبحرت في مياه أرضية. وهكذا أرحل، أنا الذي لم أطلب شيئًا أكثر من أن أعيش وسط جبالي، بعد موتي عبر بلدان الأرض».

تساءل المحافظ وهو يعقد حاجبيه: «ولا مكان لك بهذا في العالم الآخر».

وأجاب الصيّاد قائلًا: «إنني، وإلى الأبد، فوق السلم الهائل الذي يؤدي إليه

صعودًا، فوق ذلك السلم الذي لا حد لاتساعه، أتسلق أنحاءه، أحيانًا إلى أعلى، وأحيانًا أهبط، وأحيانًا إلى اليمين، وإلى اليسار أحيانًا، ودائمًا في حركة. لقد كان الصياد قد تحوّل إلى فراشة، لا تضحك».

قال المحافظ، دفاعًا عن نفسه: «أنا لا أضحك».

قال الصيّاد: «هذا حسن جدًا منك. إنني دائمًا في حالة حركة، لكنني بينما أنطلق انطلاقة فائقة، وأرى البوابة تتألق أمامي بالفعل استيقظت فوق سفينتي القديمة، وقد جنحت بي مهجورة لا تزال، في بحر أرضي أو إن الغلطة الأساسية في ميتتي القديمة تلك، إنما تضحك ساخرة مني بينما أستلقي في داخل قمرتي في السفينة. وإن (يوليا) زوجة الربّان، لتدق على الباب، وتحضر لي، وأنا مستلق فوق نعشي، مشروب الصباح الأرضي من الشواطئ التي يتصادف أن نمر بها. إنني أستلقي فوق برش خشبي، وأرتدي –ولا يمكن أن يكون مرآي باعثًا على السرور- كفنًا قذر وقد وخط الشيب شعر رأسي ولحيتي، وقد طال الشعر في كليتهما على نحو مشتبك، ويغطي أطرافي شال نسائي تنتشر فوقه أشكال هائلة الحجم لزهور كبيرة، وتنتهي أطرافه بأهداب طويلة، وتقوم عند رأسي شمعة قداس تلقي عليّ ضوئها، وعلى الحائط قبالتي صورة صغيرة ما، واضح أنها لرجل من قبيلة البوشمان يسدد حربته نحوي، ويتدرع محتميًا بقدر ما يسعه ذلك، بدرع تزينه رسوم بديعة ملونة. وعلى سطح السفينة غالبًا ما يكون المرء فريسة لخيالات غبية، إلّا أن هذه هي أكثرها كلها غباء. وفيما عدا هذا لا يكتنف تابوتي الخشبي سوى الخواء التام، وتدخل من خلاله فتحة في الحائط الجانبي أنسام ليل الجنوب الدافئة، وأسمع الماء وهو يلطم القارب القديم.

«لقد استلقيت هنا منذ ذلك العهد، الذي كنت قد طاردت فيه بصفتي الصيّاد

جراكوس الذي يعيش في الغابة السوداء أحد ظباء الشمواه، وسقطت من فوق قمة تفضي إلى هاوية. لقد حدث كل شيء في نظام سليم. لقد طاردت، سقطت، نزفت حتى الموت في قاع هاوية، متّ، وكان على هذه السفينة أن تنقلني إلى العالم الآخر. وما زال في إمكاني أن أتذكر كيف مددت نفسي مسرورًا فوق هذا البرش الخشبي للمرة الأولى. لم يحدث أن استمعت الجبال قط من قبل إلى أغنيات كتلك التي استمعت إليها مني تلك الجدران الأربعة الغارقة في الظلال عندئذ.

«لقد كنت سعيدًا لأنني كنت أحيا، وكنت سعيدًا بموتي، وكنت قبل أن أخطو إلى سطح السفينة، قد طوحت مبتهجًا بكل حمولتي من الذخيرة، وبجعبتي، وببندقية صيدي التي كنت دائمًا فخورًا بحملها، واندسست في داخل كَفَني كما تندس فتاة إلى داخل ثوب زفافها. استلقيت منتظرًا ثم جاءت النكبة».

قال المحافظ، رافعًا يده في حالة دفاع عن النفس: «مصير سيئ، وهل لا تُلام أنت عليه؟».

قال الصيّاد: «لا؛ لقد كنت صيّادًا، فهل كان ثمة خطيئة في ذلك؟ لقد تبعت ما تلقيه عليّ مهنتي كصياد في الغابة السوداء، حيث كانت هناك ثعالب لا تزال في تلك الأيام، لقد كمنت في مكمني، وأطلقت طلقتي، وأصبت هدفي، وسلخت جلود فرائسي، فهل كان ذلك مما يعد خطيئة؟ لقد كانت أعمالي قد بوركت، وكان الاسم الذي عرفت به هو «صيّاد الغابة السوداء العظيم»، فهل كان ثمة خطيئة في ذلك؟

قال المحافظ: «لست مدعوًّا لحسم هذه المسألة، ولا يبدو لي أيضًا أن ثمة

خطيئة في مثل هذه الأمور. لكن، تُرى على من إذَن يقع الإثم؟».

قال الصيّاد: «هو إثم صاحب القارب. لا أحد سوف يقرأ ما أكتب هنا، ولا أحد سوف يخف لنجدتي، حتى لو تلقى الناس جميعهم الأمر بمساعدتي كل باب وكل نافذة سوف تبقى مغلقة، وسوف يهرع كل شخص إلى فراشه، ويسحب الأغطية فوق رأسه، سوف تصبح الأرض كلها نزلًا لبيات الليل، ولهذا معناه الواضح؛ ذلك أن أحدًا لا يعرفني، ولو كان قد عرفني أحد، فلن يعرف أين يمكن أن أتواجد، وإذا عرف أين يمكن العثور عليّ، فلن يعرف كيف يمكنه أن يساعدني. إن فكرة مساعدتي هي مرض ينبغي على المرء أن يشفى منه بأن يهرع إلى فراشه.

«إنني أعلم هذا، ولذلك فأنا لا أصرخ طالبًا النجدة، مع أنني في بعض اللحظات -عندما أفقد السيطرة على نفسي، كما حدث لي الآن للتو على سبيل المثال- أفكر جدّيًا في طلب النجدة، لكن لكي أصرف عن رأسي مثل هذه الأفكار، يلزمني فقط أن أتطلع حولي، وأتحقق في أي مكان أتواجد، وأين كنت -كما يسعني أن أؤكد في أمان- على مدى مئات السنين».

قال المحافظ: «خارق للعادة، هذا شيء خارق للعادة. -والآن هل تفكر في البقاء هنا معنا، في ريفا؟».

قال الصيّاد بابتسامة، ولكي يتدارك التهكم، وضع يده على ركبة المحافظ: «لا أظن ذلك، إنني هنا، أما ما يزيد على هذا، فلا أعرف عنه شيئًا أكثر من أنني لا يمكنني أن أرحل. إن سفينتي بلا دفة ولا تحركها سوى الريح التي تعصف في أعمق مناطق الموت السفلى».

وكيل الدعاوى الجديد

أصبح لدينا وكيل جديد للدعاوى، هو د. بوسيفالوس. وفيما يتعلق بمظهره الخارجي لا يوجد سوى القليل، لكي يذكر المرء بالزمن الذي كان فيه لا يزال هو ممثل الادعاء على الإسكندر المقدوني. إلا أن أي شخص معتاد على مثل هذه الأمور يمكنه مع ذلك أن يلاحظ شيئًا ما. ألم أرَ أنا نفسي أخيرًا كيف يتطلع إلى المحامي، حتى مجرد تابع محكمة بسيط محدقًا بعين التابع البسيط المحترفة الخبيرة في مضمار سباق، بينما يرفع الآخر ساقيه عاليًا، وهو يصعد الدرج الخارجي درجة بعد درجة بخطوة تجعل الرخام يرن؟

لقد وافق القضاء عمومًا على قبول بوسيفالوس. لقد قالوا لأنفسهم ببصيرة مدهشة إن وضع بوسيفالوس تحت نظامنا الاجتماعي الحاضر هو وضع صعب، وإنه لهذا –وأيضًا لأهميته التاريخية العالمية –يستحق ملاقاته في منتصف الطريق. ولا وجود الآن- كما لا يسع أي شخص أن ينكر –للإسكندر الأكبر. لا يزال الكثيرون بالطبع يعرفون كيف يقتلون؛ كما أنك لن تعوزك المهارة لكي تطعن صديقك برمح فوق مائدة العشاء؛ كما أن مقدونيا ضيقة للغاية بالنسبة للكثيرين، ولهذا لعنوا فيليب الأب- لكن لا أحد، لا أحد يمكنه أن يقودنا إلى الهند. وحتى في تلك الأيام لم تكن بوابات الهند سهلة المنال، لكن كان اتجاهها قد تحدد بالسيف الملكي. وقد تم الآن نقل البوابات إلى مكان آخر أكثر ارتفاعًا، وأكثر تباعدًا، ولكن لا يعين اتجاهها أحد، يحمل الكثيرون السيوف، لكن لكي يلوحوا بها فحسب، وتتشتت النظرة التي تحاول أن تتبعهم.

وعلى هذا فقد يكون من الأفضل حقًا، أن يفعل المرء، ربما، كما فعل

بوسيفالوس ويدفن نفسه في كتب القانون.

حرًا، ودون أن ينضغط جانباه بفخذي فارس، وتحت مصباح هادئ، يقرأ، بعيدًا عن صخب حروب الإسكندر، يقرأ ويقلب صفحات كتبنا القديمة.

* * *

بوايدون

جلس بوايدون إلى مكتبه مستغرقًا في حساباته؛ فإدارة كل المياه تلقي على كاهله أعباءً لا نهاية لها. وقد كان في مقدوره أن يتخذ لنفسه من المساعدين ما شاء أن يتخذ لنفسه منهم –وأن لديه بالفعل منهم الكثيرين، الكثيرين- لكنه لما كان قد أخذ عمله بغاية الجدية، فقد تعين عليه أن يراجع كل الأرقام وكل التقديرات بنفسه، ولهذا لم يكن لمساعديه سوى القليل من النفع له. ولا يمكننا القول بأنه وجد متعة ما في ممارسة عمله هذا، فهو قد قام بأدائه فحسب؛ لأنه كان قدر إليه القيام به. وكان، في الحقيقة، قد قدم بالفعل التماسات عديدة انطوى عليها ملفه، التمس فيها، على حد قوله، عملًا أكثر بهجة. لكن محاولة إسناد عمل آخر إليه، كان يتضح في كل مرة أنه لا يناسبه قط عمل، كما يناسبه عمله الحالي. وكان صعبًا على أي حال، صعوبة بالغة، إيجاد عمل آخر يمكن أن يسند إليه القيام به، وفوق هذا كله كان من المستحيل بالطبع أن تسند إليه إدارة بحر بعينه، بصرف النظر عن حقيقة أنه حتى في تلك الحالة، فإن النتيجة لن تسفر عن تخفيف للعبء عن كاهله، بل عن تقليل لمركزه؛ فبوايدون العظيم لا يمكنه بحال من الأحوال أن يضطلع بمجرد عمل تنفيذي. وعندما قامت ذات مرة فكرة أن يسند إليه عمل بعيد عن البحر، أعيته مجرد الفكرة إلى حد ذاتها؛ ذلك أن أنفاسه الإلهية كانت تضطرب وصدره النحاسي كان يشرع في الخفقان. وبالإضافة إلى ذلك، لم تكن شكاواه تُؤخذ قط مأخذ الجد، فعندما يحدث عادة أن يتكدر أحد الآلهة كانت تقوم شكليات توحي ببذل الجهد الذي لم يكن منه بد لتهدئته، ولقد كانت تقوم هذه المحاولات الشكلية مهما بدت الحالة خطيرة وميؤوسًا منها إلى أبعد الحدود، ذلك أن حركة التنقلات في المناصب فعليًا، كان

أمرًا غير وارد بالمرة بالنسبة لبوايدون؛ لأنه كان قد نُصّب إلهًا للبحر منذ البداية، وكان عليه أن يظل كذلك.

أما أكثر ما كان يثيره –وهو ما كان يبعثه على أن يسخط على وظيفته- فهو سماعه لتلك التصورات التي تكونت عنه، وعن الطريقة التي كان يتجول بها دائمًا في مركبته خلال حركة المدّ والجزر، وهو يمسك بصولجانه ذي الشعب الثلاث، بينما كان قد جلس طوال الوقت هنا في أعماق محيط العالم يراجع حساباته بلا إزعاج، فيما عدا رحلة قصيرة كان يقوم بها بين الحين والآخر متجهًا إلى جوبيتر؛ حيث كانت هذه الرحلة هي وحدها ما يقطع اتصال الرتابة -رحلة، كان يعود منها فوق ذلك، في حالة هياج. وعلى هذا فهو لم يكن قد أتيحت له حتى رؤية البحر بالكاد- ذلك أنه كان قد رآه رؤية عابرة في سياق اطلاعته المتعجلة إلى جبل الأولمب؛ ولم يكن قد تجول فعليًا قط في أنحائه. ولقد كان معتادًا على أن يقول إنّ كل ما كان ينتظره، هو انهيار العالم، ثم قد تسنح له قبل ذلك ربما، لحظة ما من لحظات الهدوء على حافة النهاية، وبعد أن يكون قد أتم مراجعة خط أفكاره الأخيرة، قد يسعه فيها القيام بجولة سريعة قصيرة.

كان بوايدون قد أصابه بحره بالسأم، وكان قد ترك صولجانه ذا الشعب الثلاث يسقط من يده، وجلس في صمت على الشاطئ الصخري. وكان أحد طيور النورس، وقد أصيب بالدوخة في حضرته، قد دوّم محلقًا في دورات مترنحة حول رأسه.

* * *

مشكلة قوانيننا

قوانيننا عمومًا ليست معروفة؛ فهي قد ظلت سرًا من أسرار المجموعة الصغيرة التي تحكمنا من النبلاء، ونحن مقتنعون بأن هذه القوانين القديمة قد تم الالتزام بها بدقة. وعلى الرغم من ذلك، فإنه مما يؤلم إلى أقصى حد أن يحكم المرء بواسطة قوانين لا يعرف عنها شيئًا. ولا تشغلني التناقضات المحتملة التي قد تنشأ عند تفسير القوانين، كما أنني لا أفكر في الأضرار المشتبكة التي يتسبب فيها السماح لقلة فقط من الناس، وليس لكل الناس، بأن يكون لهم رأي في تفسيرها. وربما لا تكون لهذه الأضرار أهمية بالغة؛ ذلك أن القوانين بالغة القدم، وكانت تفسيراتها عبئًا اضطلعت به القرون، واكتسبت هي ذاتها بلا شك منزلة القانون، ومع أنه لا تزال هناك حرية ممكنة للتفسير، إلا أن هذه الحرية قد أصبحت الآن مقيدة للغاية. وعلاوة على ذلك، فإنه من الواضح أن النبلاء ليس لديهم ما يدفعهم إلى أن يتأثروا في تفسيراتهم بالاهتمامات الشخصية الضارة بنا، ذلك أن القوانين كانت قد صُنعت لمصلحة النبلاء منذ بداية البداية، فهم أنفسهم يقفون فوق القانون، ويبدو أن هذا هو السبب في أن القوانين كانت قد عُهد بها بصفة خاصة إلى أيديهم. ثمة حكمة في ذلك بالطبع –من ذا الذي يرتاب في حكمة القوانين القديمة؟- لكن ثمة مشقة لنا أيضًا، وربما كانت هذه المشقة أمرًا لا يمكن تجنبه.

إن وجود هذه القوانين مع ذلك، هو في الأغلب، مسألة افتراض فثمة تقاليد تقول بأنها موجودة، وبأنها سر قد عُهد به إلى النبالة، إلا أنها ليست، ولا يمكن أن تكون أكثر من مجرد تقاليد قد صدق عليها الزمن؛ لأن جوهر وجود شفرة سرية ما، هو أنها يجب أن تبقى خفية. ولقد تفحص البعض منا، من بين الشعب، بانتباه،

أفعال النبالة منذ أقدم الأزمان، وامتلك سجلات سجلها أسلافنا الأوائل –وهي سجلات قد أكملناها نحن بوعي- ويزعم هذا البعض منا أنهم يمكنهم أن يدركوا من بين ما لا حصر له من أعداد الحقائق، اتجاهات أساسية بعينها تسمح بهذه أو بتلك الصياغة التاريخية، لكن عندما نسعى طبقًا لهذه النتائج التي تم تفحصها بتدقيق، وتنظيمها منطقيًا، إلى أن نوجه أنفسنا على نحو ما نحو الحاضر أو المستقبل، يصبح كل شيء مفتقرًا إلى اليقين، ويبدو عملنا فقط مجرد لعبة فكرية؛ ذلك أن هذه القوانين التي نحاول أن نفسرها ربما لا تكون موجودة على الإطلاق. وثمة جماعة صغيرة العدد يعتقدون بالفعل هذا الرأي، ويحاولون أن يظهروا أنه، إذا توجدات أي قوانين، فإنها لن تكون سوى هذا: القانون هو كل ما يروق للنبالة أن تفعل. وترى هذه الجماعة في كل مكان، فقط الأعمال التعسفية للنبالة، وتنبذ التقاليد الشعبية، التي تملك فقط في رأيهم بعض الميزات الطفيفة الطارئة التي لا تقوى غالبًا على مواجهة أضرارها الثقيلة، ذلك أنها تمنح الشعب أمانًا زائفًا خادعًا، زائد الثقة بالغير في تصديها للأحداث الواردة. ولا يمكن أن ينكر هذه الأضرار أحد، إلّا أن الأغلبية الشاملة لشعبنا تعللها بحقيقة أن التقاليد هي بطبيعتها أبعد ما تكون عن الاكتمال، ولا بد من أن يتم المزيد من التقصي الزائد في أمرها، ذلك أن المادة المتاحة، على ضخامتها التي تتبدى بها، لا تزال بالغة العقم، وأن قرونًا عديدة لا بد لها أن تمر قبل أن يتم لهذه المادة الكفاية حقًا. هذه الرؤية التي تبعث إلى هذا الحد البالغ على عدم الارتياح فيما يتعلق بالحاضر، لا يخفف منها سوى الاعتقاد بأن الوقت سوف يحل في النهاية عندما تبلغ التقاليد، وبحوثنا فيها معًا نتائجهما، ويجنيان، كما يقال، هامشًا لالتقاط الأنفاس، عندما يقدر لكل شيء أن يصبح واضحًا، سوف ينتمي القانون إلى الشعب، وسوف تتلاشى النبالة. ولا يستند هذا على شيء من روح الكراهية للنبالة، لا شيء

من هذا على الإطلاق، ولا يحس أحد شيئًا منه. إننا ميالون أكثر إلى كراهية أنفسنا؛ لأننا لم نبد جدارتنا بأن نؤتمن على القوانين. وهذا هو السبب الحقيقي في أن الجماعة التي ترى أنه لا يوجد أي قانون، قد بقيت جماعة صغيرة العدد إلى هذا الحد -على الرغم من أن مذهبها هو من نواحٍ بعينها. مذهب بالغ الجاذبية؛ ذلك لأنه يعترف اعترافًا قاطعًا بالنبالة وبحقها في مواصلة الوجود، ويمكن للمرء فعليًا أن يعبر عن المشكلة فقط في صورة مفارقة من نوع ما؛ أي جماعة قد تجحد، ليس فقط كل اعتقاد في القوانين، بل تجحد النبالة هي أيضًا، سوف تكسب الشعب كله خلفها، إلا أنه لن يتسنى لمثل هذه الجماعة أن تظهر إلى الوجود؛ ذلك أنّ أحدًا لن يجرؤ على أن يجحد النبالة. إننا نعيش فوق حد الموسى هذا. وقد لخص أحد الكتاب الأمر ذات مرة، على هذا النحو: إنّ القانون الوحيد المرئي والذي لا ريب فيه، ذلك المفروض علينا، إنما هو النبالة، فهل لا بد لنا نحن أنفسنا أن نحرم من هذا القانون الوحيد؟

***

تقع مدينتنا

لا تقع مدينتنا الصغيرة على الحدود، ولا بالقرب منها، إنها بعيدة جدًا عن الحدود في الحقيقة، حتى إنّ أحدًا في مدينتنا لم يتواجد قط هناك؛ ذلك أنّ ثمة مرتفعات موحشة لا بد من عبورها، بالإضافة إلى سهول خصبة واسعة، وأن يتصور المرء جزءًا من الطريق فحسب، لهو أمر مرهق، أما تصور ما يزيد على جزء فهو ما لا يستطيع المرء أن يتخيله. وتوجد أيضًا مدن كبرى على الطريق، كل منها أكبر جدًا من مدينتنا؛ إن عشر مدن صغيرة مثل مدينتنا تتمدد جنبًا إلى جنب، ولو أقحمت عليها من أعلى عشر أخرى، فإنها مع ذلك لن ينتج عنها كلها معًا واحدة من تلك المدن الهائلة، البالغة الاتساع. فلو لم يضل المرء طريقه على امتداد تلك المدن الصغيرة، فإنه معرّض لأن يضيع في تلك المدن الكبرى. ويستحيل على المرء أن يتحاشاها بسبب أحجامها.

إلّا أن ما هو أكثر بعدًا من الحدود عن مدينتنا فوق هذا، لو أمكن أن تقوم مقارنة ما أصلًا بين هذه المسافات –فهي مقارنة من قبيل القول بأن رجلًا له من العمر ثلاثمائة عام يعد أكبر سنًا من آخر عمره مائتان- إنّ ما هو أبعد من مدينتنا، حتى من الحدود، لهي العاصمة. فبينما نحصل على أنباء عن حروب الحدود بين الحين والآخر، لا نعرف شيئًا قط عن العاصمة –أعني لا نعرف نحن المدنيين- ذلك أن موظفي الحكومة لديهم بالطبع اتصالات جيدة جدًا بالعاصمة؛ ففي استطاعتهم الحصول على أنباء منها في وقت قصير لا يكاد يتعدى الشهور الثلاثة، أو على الأقل هكذا يزعمون.

وإنه لمن الملحوظ الآن، وإنها لتدهشني دائمًا تلك الطريقة التي تخضع بها في

مدينتنا في تواضع لكل الأوامر الصادرة في العاصمة. فعلى مدى قرون لم يحدث أي تغير سياسي بواسطة المواطنين أنفسهم.

وفي العاصمة كان حكام عظماء قد خلف أحدهم الآخر –حقًّا، أسرات حاكمة حتى كانت قد تم خلعها أو إبادتها، وبدأت الحكم أسرات جديدة، وفي القرن الماضي كانت حتى العاصمة نفسها قد تم تدميرها.

وكانت عاصمة جديدة قد تم تأسيسها بعيدًا جدًّا عنها. وفيما بعد كانت هذه العاصمة هي أيضًا قد تم تدميرها، وتمت إعادة تشييد العاصمة القديمة، إلّا أن شيئًا من هذا لم يكن له أي تأثير على مدينتنا الصغيرة؛ فموظفينا كانوا قد ظلوا دائمًا في وظائفهم، وكان أعلى الموظفين رتبة قد جاؤوا إلينا من العاصمة، وجاء الذين يلونهم في رفعة المرتبة من المدن الأخرى، والأدنى، كانوا من بيننا نحن أنفسنا –كان ذلك هو الحال الذي سارت عليه الأمور دائمًا، وهو حال كان يرضينا. كان أعلى الموظفين رتبة هو كبير جباة الضرائب، وكانت له رتبة العقيد، وكان يعرف بها. والعقيد الحالي رجل عجوز؛ ولقد عرفته لسنوات؛ لأنه كان بالفعل في رتبة العقيد عندما كنت طفلًا. في البداية ارتقى درجات سلم وظيفته بغاية السرعة، ثم بعد ذلك بدا وكأنه لم يعد يتقدم أي تقدم، وفعلًا بالنسبة لمدينتنا الصغيرة تعد رتبته عالية بما فيه الكفاية، ولا محل لرتبة أعلى منها. وعندما أحاول أن أتذكره، أراه جالسًا في شرفة منزله في ميدان السوق، مضطجعًا إلى الخلف، وغليونه في فمه، وفوقه من السقف يرفرف العلم الإمبراطوري، وعلى جوانب الشرفة البالغة الاتساع، حتى لقد كانت تدور في ساحتها المناورات الحربية الصغرى أحيانًا، كان الغسيل ينشر لكي يجف. ويلعب حوله أحفاده، في ملابس حريرية جميلة، فلم يكن مسموحًا لهم بأن يهبطوا إلى ميدان السوق،

فالأطفال في هذا الميدان كانوا يعدون غير جديرين بهم، إلّا أن الأحفاد كان يجتذب انتباههم الميدان، وهكذا كانوا يدفعون رؤوسهم بين أعمدة الدرابزين، وعندما يبدأ العراك في أسفل، كانوا يشاركون في الشجار من مكانهم في أعلى.

هذا العقيد، إذن يحكم المدينة. ولا أظن أنه قد قدّم مطلقًا أي وثيقة تمنحه الحق في هذا المركز، والأرجح جدًا أنه لا يملك مثل هذا الشيء. وربما يكون حقًا كبيرًا لجباة الضرائب. لكن هل هذا هو كل شيء؟ هل كونه كذلك يتيح له أن يحكم فوق كل المصالح الأخرى في الإدارة أيضًا؟ حقًا، إن وظيفته هي وظيفة هامة بالنسبة للحكومة، لكن بالنسبة للمواطنين لا تكاد تكون وظيفة كهذه هي الأكثر أهمية. ويكاد يغلب على المرء أن ينطبع لديه أن الشعب هنا إنما يقول له: «والآن وقد أخذت منا كل ما نملكه، فلتأخذنا نحن أيضًا من فضلك». وفي الواقع بالطبع، لم يكن هو الذي أمسك بالسلطة، ولا كان طاغية، كان قد انتهى الحال مع مرور السنين، أن كبير جباة –الضرائب هو تلقائيًا الموظف الأكبر، ويقبل العقيد هذا التقليد تمامًا كما نقبله. إلّا أنه بينما يعيش بيننا دون أن يؤكد تأكيدًا زائدًا جدًا على مركزه الرسمي، غير أنه شيء مختلف كل الاختلاف عن المواطن العادي؛ فعندما يفد إليه وفد كي يقدم له التماسًا، فإنه يقف هناك مثل سور العالم، وليس بعده سوى العدم، ويتصور المرء سماع أصوات تهمس في الخلفية، إلا أنه قد يكون وهمًا؛ فهو في نهاية الأمر، إنما يمثل نهاية كل الأشياء، على الأقل بالنسبة لنا.

عند هذه الاستقبالات، كان يستحق حقًا أن يراه المرء. كنت حاضرًا ذات مرة وأنا بعد طفل، عندما وصل وفد من الموظفين لكي يلتمسوا منه دعمًا حكوميًا لأن أفقر أحياء المدينة كان قد احترق. وكان أبي البيطار، وهو رجل كان يحظى

باحترام الطائفة، عضوًا في الوفد، وكان قد اصطحبني معه. ولم يكن ثمة ما هو استثنائي في هذا، فكل شخص يهرع إلى مشاهد من هذا القبيل، ولا يكاد المرء يميز الوفد الفعلي، من الحشد. ولما كانت هذه الاستقبالات عادة ما تتم في الشرفة، فلقد كان هناك من الناس حتى من يصعدون من ميدان السوق بواسطة سلم ويشاركون فيما يجري، بالفرجة من فوق درابزين الشرفة. في هذه المناسبة كان يتم حجز حوالي ربع مساحة الشرفة للعقيد، ويشغل الحشد بقيتها. وكان بضعة جنود قلائل يتابعون الحراسة، يقف بعضهم حوله في شبه دائرة. وقد كان جندي واحد ليكفي بالفعل تمامًا، فإلى هذا الحد نخافهم. لست أدرى بالتحديد من أين جاء هؤلاء الجنود؟ لقد جاؤوا من مكان بعيد على أي حال، وإنهم ليتشابهون جميعًا شبهًا كبيرًا جدًا، حتى إنهم لا يحتاجون لهذا إلى زي موحد. إنهم ضئيلو الحجم، ليسوا أقوياء، بل هم أناس سريعو الحركة، وأهم ما يلفت النظر إليهم هو بروز أسنانهم التي تكاد تسد أفواههم، ولأعينهم الصغيرة الضيقة بريق معنى منتفض غير مطمئن، يجعلها مصدر رعب للأطفال، ومبعثًا أيضًا لبهجتهم؛ ذلك أن الأطفال يتوقون المرة بعد المرة أن تخفيهم هذه الأسنان وهذه الأعين، وذلك حتى يكون في وسعهم أن ينطلقوا مسرعين في رعب. وحتى الكبار من المحتمل أنهم لم يفقدوا تمامًا هذا الرعب الطفولي، فهو على الأقل يواصل الاحتفاظ بتأثيره. وهناك بالطبع، عوامل أخرى تسهم في استمرار بقاء ذلك التأثير. ويتحدث الجنود لهجة غير مفهومة لنا بالمرء، ولا يكاد يسعهم أن يعتادوا على لهجتنا –ويسهم هذا كله في إحداث انغلاق معين، صفة لا تقبل التجاوب، تتفق في الحقيقة مع شخصيتهم، فهم صامتون، جادون، وجامدون.

إنهم لا يأتون بالفعل أي عمل شرير، إلا أنه يصعب احتمالهم رغم ذلك، على الأغلب، بمعنى ما من معاني التوجس. يدخل جندي مثلًا أحد الحوانيت، ويبتاع

أشياء عارضة، ويبقى في مكانه منحنيًا على الحاجز، يستمع إلى الأحاديث، ولعله لا يفهمها، إلا أنه يعطي الانطباع بالفهم، إنه هو نفسه لا يقول كلمة واحدة، يحدق فقط باندهاش في المتحدث، ثم يعود بنظراته إلى المستمعين، ويظل واضعًا يده طول الوقت فوق مقبض السكين الطويلة في حزامه. إن هذا ليبعث على التمرد، ذلك أن المرء يفقد الرغبة في أن يتحدث، ويبدأ الزبائن في مغادرة الحانوت، وفقط عندما يصبح الحانوت فارغًا تمامًا، يغادره الجندي هو أيضًا. وعلى هذا فأينما ظهر الجنود، يزداد صمت ناسنا الودودين. وهذا هو ما حدث هذه المرة أيضًا، فكما في كل المناسبات المهيبة، وقف العقيد معتدلًا، ممسكًا أمامه بقصبتين من البامبو في يده الممدودتين. هذه عادة قديمة تتضمن معنى يشير على نحو أو آخر إلى أن العقيد يدعم القانون، وأن القانون يدعمه. ويعلم كل فرد الآن بالطبع، ماذا يتوقعه في تلك الشرفة، في أعلى. ومع ذلك ينتاب الناس جميعًا الخوف ثانية في كل مرة. في هذه المرة أيضًا، لم يكن في مقدور الرجل الذي تم اختياره للكلام أن يبدأ، كان بالفعل واقفًا أمام العقيد، عندما خانته شجاعته، وبينما يتمتم ببضع اعتذارات، شق طريقه راجعًا إلى مكانه وسط الحشد. ولم يكن متيسرًا العثور على أي شخص آخر مناسب راغب في الكلام، على الرغم من أنّ عددًا من الأشخاص الذين لا يصلحون لذلك قد قدموا أنفسهم، وأعقب ذلك ارتباك هائل، وتم إرسال الرسل بحثًا عن مواطنين عديدين كانوا معروفين جيدًا كمحدّثين. خلال هذا الوقت كله، كان العقيد قد ظل واقفًا هنالك بلا حراك، صدره فقط كان يمكن أن يُرى متحركًا إلى أعلى وإلى أسفل مع حركة تنفسه؛ ليس لأنه كان يتنفس بصعوبة، بل لأنه كان يتنفس في وضوح، تنفسًا أشبه كثيرًا بتنفس الضفادع، فيما عدا أن ذلك أمر طبيعي في حالتها، بينما هو هنا أمر استثنائي. دسست نفسي وسط الكبار، وراقبته من خلال فجوة بين

جنديين، إلى أن ركلني أحدهم بعيدًا بركبته. على حين كان الرجل الذي كان قد اختير أصلًا للحديث قد استعاد رباطة جأشه، وراح يلقي حديثه، وقد سانده في وقفته قائمًا اثنان من مواطنيه. ولقد كان شيئًا مؤثرًا أن تراه يبتسم طوال ذلك الخطاب الوقور واصفًا حالة من حالات الخيبة الفاجعة –ابتسامة بالغة التواضع جاهدت عبثًا لكي تستخلص شيئًا من ردّ الفعل الهيّن على وجه العقيد. وفي النهاية صاغ الالتماس،- وأظن أنه إنما كان فقط يلتمس إعفاءً من الضرائب لمدة عام، لكن من الممكن أيضًا أن يكون التماسًا متعلقًا بالحصول على جذوع أخشاب من الغابات الإمبراطورية بسعر مخفض، ثم انحنى انحناءة عميقة، وبقي في هذا الوضع لبعض الوقت، كما فعل كل شخص آخر فيما عدا العقيد، والجنود، وعدد من الموظفين في الخلف. بالنسبة للطفل بدا مضحكًا أن يهبط الناس الذين كانوا قد تسلقوا درجات السلم بضع درجات قلائل؛ وذلك حتى لا يكونوا ظاهرين للعيان خلال تلك الوقفة التي كان لها مغزاها، ويحدقون بين الحين والآخر في فضول نحو أرضية الشرفة. وبعد أن استمر هذا لفترة لا بأس بها، تقدم أحد الموظفين، وهو رجل ضئيل الحجم نحو العقيد، وحاول أن يبلغ قدر ارتفاع قامة الأخير بالوقوف على أطراف أصابع قدميه. وهمس العقيد، وهو لا يزال جامدًا، بلا حراك سوى تنفسه العميق، بشيء ما في أذن الموظف، على حين صفق الرجل الضئيل الحجم بيديه، ونهض كل شخص. وأعلن الموظف: «لقد تم رفض الالتماس ويمكنكم أن تذهبوا». وسرى في الحشد إحساس بالخلاص لا سبيل إلى إنكاره، واندفع الجميع متزاحمين إلى الخارج، كما أن أحدًا قط لم يكد يلق أي انتباه إلى العقيد، الذي كان كما يقال، قد تحوَّل ثانية إلى كائن بشرى مثل بقيتنا. وما زلت ألتقط لمحة أخيرة واحدة منه حين ترك في صخر، البوصتين اللتين سقطتا إلى الأرض، ثم غاص في المقعد ذي المساند الذي قدمه له بعض

الموظفين، وبسرعة وضع غليونه في فمه.

هذا الحدث كله ليس متفردًا، إنه حدث في صميم السياق العام للأمور، حقًا أنه يحدث بين الحين والآخر أن يتم قبول التماسات صغرى، إلّا أنها عندئذ تبدو كما لو كان العقيد قد فعلها وكأنه شخص مفرد قوي، وعلى مسؤوليته، وكان لها أن تبقى محفوظة سرًا كلها عن الحكومة –لا بهذه الصراحة القاطعة بالطبع، ولكن هذا هو ما يبدو به الحال. ولا شك في أن عيني العقيد في مدينتنا الصغيرة، بقدر ما يسعنا أن نعرف، إنما هي أيضًا عينا الحكومة، إلا أن ثمة فرق ما مع ذلك يستحيل أن يتم فهمه كل الفهم.

ومع ذلك، ففي كل الأمور الهامة، يمكن للمواطنين دائمًا أن يتوقعوا رفضًا. والحقيقة الغريبة الآن هي أنه من دون هذا الرفض لا يمكن للمرء ببساطة أن يتقدم إلى الأمام، إلّا أن هذه المناسبات الرسمية التي تم تعيينها لكي نتقبل فيه الرفض، ليست مطلقًا في الوقت نفسه مجرد مناسبات شكلية؛ ذلك أن المرء ليذهب إليها المرة بعد المرة مفعمًا بالتوقع وبكل الجدية، ومن ثم يعود، إن لم يكن بالضبط قد ازداد قوة، أو لم يكن قد أحس بالسعادة، إلا أنه على الرغم من ذلك لا يكون قد عاد محبطًا أو مرهقًا. عن هذه الأمور ليس لي أن أستقصى رأي أي شخص آخر، إنني أحسها في نفسي، كما يفعل ذلك كل شخص، كما أنني لا رغبة لدي في أن أكتشف كيف ترتبط هذه الأمور ببعضها البعض.

ويوجد في الحقيقة، بقدر ما تسعفني ملاحظاتي، مجموعة تنتمي إلى عمر معيّن ما لا تشعر بالرضى –وهؤلاء هم الشباب الذين تتراوح أعمارهم تقريبًا بين السابعة عشرة والعشرين. أشخاص صغار السن في الحقيقة، ليس في مقدورهم كلية أن يتبصروا بالعواقب التي قد تعقب حتى أقل الأفكار خطورة، ويفتقرون

أبعد بعيدًا من هذا، إلى التبصر بعواقب فكرة ثورية ما. على أن التبرم إنما يزحف مندسًا وسط هؤلاء.

***

العقيد الإمبراطوري

إن المرء ليخجله أن يقول بأي وسيلة يحكم العقيد الإمبراطوري مدينتنا الصغيرة في الجبال. إن جنوده القلائل يمكن أن ينتزع سلاحهم في الحال، لو أننا أردنا ذلك، أما المساعدة له، حتى لو افترضنا أنه قد أمكنه أن يستدعيها، لكن كيف يتسنى له أن يفعل ذلك؟ لن تأتيه إلا بعد أيام، بل في الحقيقة –إلّا بعد أسابيع. وهكذا فهو يعتمد كليةً على طاعتنا له، لكنه لا يحاول لا أن يفرضها علينا بوسائل الطغيان، ولا أن يصانعنا من أجلها بواسطة الإخلاص.

وعلى هذا، لماذا احتملنا حكمه الكريه؟ لقد احتملناه، وليس ثمة شك في هذا، فقط بسبب نظرته.

عندما يدخل المرء مكتبه، -وكان قبل قرن مضى، هو قاعة مجلس الشورى الخاص بآبائنا- يجده هناك، يجلس إلى مكتبه في ملابس رسمية والقلم في يده. هو لا يحفل بشيء يتخذ الطابع الاحتفالي، وأكثر من ذلك كثيرًا، عدم اهتمامه بالتمثيل، وهو لهذا لا يواصل الكتابة، كما قد يمكن أن يفعل، تاركًا الزائر ينتظر، بل يقطع عمله في الحال، ويضطجع إلى الخلف، وإن كان يحتفظ بالقلم في يده مع ذلك، وهكذا يحدق في الزائر، بينما هو مضطجع إلى الخلف، ويده اليسرى في جيب بنطلونه.

أما صاحب الالتماس، فيكون قد تولد لديه الانطباع بأن العقيد يرى أكثر من مجرد شخصه، ذلك أنه يرى ذلك الشخص المجهول الذي كان قد برز من وسط الحشد لبرهة قصيرة، وإلّا فلأي شيء آخر يتفحصه العقيد، تفحصًا بكل هذه الدقة، وكل هذا التمهل، وفي صمت؟ كما أنها ليست نظرة حادّة، تسبر الأغوار، ولا

هي نظرة نافذة كتلك التي قد توجه إلى فرد محدد بذاته؛ وإنما هي نظرة فاترة هائمة، لكنها ثابتة، نظرة يمكن للمرء أن يلحظ بمثلها، على سبيل المثال، تحركات حشد على البعد. وهذه النظرة الممتدة مصحوبة دومًا بابتسامة لا سبيل إلى تحديدها؛ حينًا تبدو كأنها تهكم، وتبدو حينًا تذكرًا حالمًا.

***

في النُّزُل

لم يوجد قط في النزل أي نوم، ولم ينم هناك أحد. لكن إذا لم ينم أحد، فلماذا يذهب المرء إلى هناك أصلًا؟ لكي يتاح لدواب الحمل قسط من الراحة. كان المكان مجرد ساحة ضيقة فحسب، واحة ضئيلة المساحة لكن كان يشغلها النزل كلها، وكان هذا النزل بالتأكيد فسيحًا بلا حد. كان من المستحيل لغريب، أو هكذا بدا لي على الأقل، أن يجد طريقه إلى هناك.

وكانت الطريقة التي بُنِيَ بها هي المسؤولة جزئيًا عن ذلك؛ فقد مضى المرء، على سبيل المثال إلى الفناء الأول الذي تفرع منه عقدان مستديران، يبعد أحدهما عن الآخر بحوالي ثلاثين قدمًا، يؤديان إلى فناء ثانٍ، ويمر المرء من خلال أحد العقدين؛ ثم بدلًا من أن ينتهي إلى قاعة فسيحة أخرى، كما يكون قد توقع، يجد المرء نفسه في رحبة صغيرة مظلمة مربعة بين جدران كانت عالية نحو السماء، وعلى ارتفاع هائل فوق أحدها، كان المرء يرى مقاصير مشتعلة الأضواء. وهكذا يكون المرء قد ظن الآن أنه قد ضل طريقه، ويكون قد حاول أن يعود أدراجه من خلال العقد، لكن لم يكن المرء، قد مر، كما قد حدث، من خلال العقد الذي كان قد جاء منه، بل من خلال العقد الآخر المجاور له. إلّا أن المرء لا يكون في نهاية الأمر قد أصبح الآن في الفناء الأول، بل في فناء آخر أكثر اتساعًا على نحو زائد، يمتلئ بالصخب والموسيقى، وخوار الحيوانات. ويكون على هذا قد ضل طريقه، فرجع ثانية إلى الرحبة المربعة المظلمة، وعبر من تحت العقد الأول. ليكون ذلك بلا فائدة، فمرة أخرى أصبح المرء في الفناء الثاني. وكان على المرء لهذا أن يسأل عن الطريق عبر عدد من الأفنية قبل أن ينتهي به ذلك إلى الرجوع إلى الفناء الأول، الذي كان المرء قد ابتعد عنه بالفعل، مع ذلك، ببضع

خطوات قلائل فحسب.

أما ما كان لا يبعث الآن على السرور، فهو أن الفناء الأول كان دائمًا مزدحمًا، حتى ليندر أن يجد المرء لنفسه سكنًا فيه. كان قد بدا كما لو كانت كل الأركان في الفناء الأول قد شغلها على الأغلب ضيوف دائمون، إلا أن الأمر لم يكن كذلك في الواقع؛ ذلك أن القوافل وحدها هي التي كانت تتوقف هنا، فمن غيرها يمكن أن يكون قد رغب أو أن يكون قادرًا على أن يعيش في هذه القذارة، وهذا الضجيج، وعلاوة على هذا كله، لم تكن الواحة الصغيرة لتقدم شيئًا سوى الماء، وكانت تبعد بأميال عديدة عن الواحات الأكبر. وهكذا لم يكن هناك من يريد أن يسكن وأن يعيش هنا دائمًا، إلا إذا كان هذا الشخص هو صاحب النزل، ومستخدموه، إلّا أنني لم أرَ هؤلاء الناس، على الرغم من أنني كنت قد زرت النزل عدة مرات، كما أنني لم أسمع قط شيئًا عنهم. وقد كان يصعب عليّ أن أتخيل أن مالكًا للنزل كان قد تواجد وسمح بمثل هذا الإخلال بالنظام، أو سمح، في الحقيقة، بمثل أفعال العنف تلك التي كانت مألوفة الوقوع هناك نهارًا وليلًا، بل على العكس، كان لديّ الانطباع أنه مهما كان ما حدث، فإن أقوى القوافل كانت دائمًا هي التي سيطرت على كل شيء هناك، ثم يليها الآخرون، بترتيب تفاوتهم في القوة. حقًّا، إن هذا لا يفسر كل شيء، فالبوابة الكبرى الرئيسة، مثلًا، كانت عادة مغلقة ومحجوزة بالقضبان، وأن تفتح للقوافل الآتية أو الراحلة كان دائمًا عملًا احتفاليًا بالضرورة، وكان إتمام ذلك أمرًا غاية في التعقيد. وكان على القوافل أن تنتظر في الخارج تحت وهج أشعة الشمس المتأججة لساعات قبل أن يتاح لها الدخول. هذا بالفعل كان سلوكًا واضح الطيش، إلّا أنّ المرء لم يكن ليستطيع قط أن يكتشف سببًا له. وعلى هذا كان على المرء أن ينتظر في الخارج، وكان لديه الوقت لكي يتأمل الإطار المحيط بالبوابة القديمة؛ حول

Telegram:@mbooks90

البوابة كان هناك صفان أو ثلاثة صفوف من الملائكة منقوشة بالنقش البارز ينفخون في الأبواق، وتمتد إحدى هذه الآلات عند قمة العقد مباشرة، في وضوح إلى أسفل امتدادًا يبلغ البوابة ذاتها. أما الدواب فكانت دائمًا في حرص حولها؛ وذلك حتى لا ترتطم بها، ولقد كان غريبًا، وخاصة بالنظر إلى الحالة الخربة للمبنى كله، أن يكون هذا العمل، بكل الجمال الذي تبدى به، لم ينله التخريب على الإطلاق، ولا حتى على أيدي هؤلاء الذين كانوا ينتظرون ذلك الانتظار الطويل في غضب عاجز خارج البوابة.

***

بناء مدينة

جاءني بعض الناس، وطلبوا مني أن أبني لهم مدينة. قلت إنهم قليلو العدد للغاية، وإنه سيكون هناك مكان يتسع لهم في منزل واحد. لم أكن أنوي أن أبني لهم أي مدينة. لكنهم قالوا إن هناك آخرين سيجيئون فيما بعد، وإن هناك فوق هذا، من بينهم من هم متزوجون، وينتظرون أطفالًا، وأنه لا حاجة تدعو إلى بناء المدينة كلها في الحال، بل أن يتم فحسب إرساء التخطيط الذي ستقوم عليه المدينة، ويتم تنفيذ الباقي شيئًا فشيئًا.

سألتهم، أين يريدون أن يتم بناء المدينة؟ فقالوا إنهم سيرشدونني إلى المكان في لحظة. ومضينا بطول النهر حتى بلغنا تلًا عريضًا متوسط الارتفاع، شديد الانحدار في جانبه الذي يطل على النهر، لكنه ينحدر في رفق في الجانب الآخر. قالوا إنهم يريدون أن يتم بناء المدينة هناك في أعلى التل. لم يكن هناك سوى عشب ينمو في ذبول، ولم تكن توجد أشجار، وهو ما كان يروق لي، لكن الانحدار نحو النهر بدا لي شديدًا جدًا، ولفتت انتباههم إلى ذلك. قالوا أيضًا إنه ليس ثمة ضرر في ذلك، وإن المدينة سوف تمتد في آخر الأمر على امتداد المنحدرات الأخرى، وستكون هناك وسائل أخرى كافية للوصول إلى الماء، وعلاوة على ذلك، ربما وجدت بمرور الوقت وسائل ما لمكافحة شدة انحدار الجرف، ولم يكن ذلك على أي حال، ليشكل أي عقبة أمام إنشاء مدينة في تلك البقعة. يضاف إلى ذلك، أنهم قالوا، إنهم كانوا صغار السن وأقوياء ويمكنهم بسهولة أن يصعدوا الجرف، الذي أعلنوا أنهم سيشيرون لي إليه في الحال. وقد فعلوا ذلك، واندفعت أجسامهم كأجسام السحالي إلى أعلى وسط الشقوق التي في الصخر، وسرعان ما أصبحوا عند القمة. صعدت أنا أيضًا، وسألتهم، لماذا أرادوا للمدينة أن تبنى

هنا بالتحديد؟ إن المكان لم يتبدَ مكانًا مناسبًا فيما يتعلق بأغراض الدفاع بصفة خاصة، كانت حمايته الطبيعية الوحيدة في جانبه المطل على النهر، وهنالك بالتحديد، فوق ذلك، لم تكن ثمة ضرورة تتطلب الحماية، بل على العكس، فلقد كان هنا هو المكان الذي يود المرء فيه أن تتاح له سبل الانطلاق بسهولة وحرية، لكن كان بلوغ الهضبة سهلًا من كل الجوانب الأخرى، وكانت لهذا السبب -وأيضًا لامتدادها الشاسع- هضبة يصعب الدفاع عنها. وبصرف النظر عن هذا، فلم يكن قد تم اختبار خصوبة الأرض هناك في أعلى الهضبة، وأن تبقى المدينة تعتمد على الأراضي المنخفضة، وتظل رهنًا لوسائل المواصلات، لهو أمر كان يعد خطرًا دائمًا بالنسبة لمدينة، وخاصة في أوقات الاضطرابات. وبعد هذا لم يكن بعد قد تقرر ما إذا كانت هناك الكفاية من مياه الشرب؟ إن النبع الصغير الذي أطلعوني عليه، لم يبدُ لي نبعًا يمكن أن يكون كافيًا للاعتماد عليه.

قال أحدهم: «أنت متعب، إنك لا تريد أن تبني المدينة».

قلت، بعد أن جلست فوق صخرة كبيرة بالقرب من النبع: «نعم، أنا متعب».

بلّلوا قطعة من القماش بالماء ومسحوا بها فوق وجهي. شكرتهم، ثم قلت إنني أردت أن أسير حول الهضبة مرة بمفردي، وتركتهم، واستغرق ذلك وقتًا طويلًا، وعندما عدت كان الظلام قد حل، وكانوا جميعًا مستلقين حول النبع، نائمين، وكان مطر خفيف يتساقط.

في الصباح كررت سؤالي. لم يفهموا من فورهم كيف استطعت أن أكرر تساؤل المساء في الصباح. ثم قالوا مع ذلك، إنه ليس في وسعهم أن يقدموا لي الأسباب الصحيحة التي دعتهم إلى أن يختاروا هذا المكان، لكن كانت هناك تقاليد قديمة

كانت قد أوصت بذلك المكان، وأن آباءهم الأولين كانوا قد أرادوا أن يبنوا المدينة هنا، لكن لبعض الأسباب التي لم تسجلها التقاليد بدقة هي أيضًا، لم يشرعوا في بناء المدينة في نهاية الأمر. ولم يكن أي وهم طائش إذَنْ هو الذي قادهم إلى هذا المكان، بل كانوا على العكس من ذلك، لا يهتمون كثيرًا بالمكان، وحتى الحجج المضادة التي كنت قد قدمتها، كانت قد جالت بفكرهم بالفعل فيما بينهم وبين أنفسهم، واعترفوا لأنفسهم بأنها حجج لا تدحض، لكنهم قالوا إنه كان هناك ما يدفعهم؛ كانت هناك تلك التقاليد، وأي فرد لم يقتف أثر التقاليد سوف يُباد. وقالوا إنه لهذا السبب لم يكن في وسعهم أن يفهموا لماذا كنت متردّدًا، ولماذا لم أبدأ حقًّا في البناء في اليوم السابق.

قررت أن أبتعد، وهبطت الجرف متجهًا إلى النهر، لكن واحدًا منهم كان قد استيقظ، وأيقظ الآخرين، ووقفوا الآن على حافة الجرف، وكنت قد أصبحت في منتصف طريق هبوطي، فاحتجوا، ونادوني، لهذا استدرت إلى الخلف، وأعانوني على الصعود، وجذبوني إلى أعلى. ووعدتهم الآن بأنني سوف أبني المدينة، فامتنوا لذلك غاية الامتنان، وقاموا بإلقاء الخطب أمامي، وقبّلوني.

***

صمت الحوريات

برهان على أن الإجراءات القاصرة، والطفولية حتى، قد تفعل فعلها في إنقاذ المرء من الهلاك:

فلكي يحمي نفسه من الحوريات سدّ أوديسيوس أذنيه بالشمع وأوثق نفسه إلى صاري السفينة. كان أي وكل مبحر قبله، قادرًا بالطبع على أن يفعل نفس الشيء، فيما عدا هؤلاء الذين تغويهم الحوريات حتى وهم بعيدون عنهن بمسافة شاسعة، إلا أنه كان معلومًا للعالم كله، أن مثل هذه الأمور لم تكن لتفيد بأي حال. إن أغنية الحوريات كان يمكنها أن تخترق كل شيء، وكانت أمنية أولئك الذين أغوتهم الحوريات، في وسعها أن تحطم قيودًا أقوى كثيرًا من الأغلال وصواري السفن. لكن لم يفكر أوديسيوس في التمني، مع أنه ربما كان قد سمع به؛ فلقد وضع ثقته المطلقة كلها في حفنة الشمع التي لديه، وفي مدى لفّات قيوده، وفي زهو ساذج بخطته الدفاعية، أبحر لملاقاة الحوريات.

وتملك الحوريات الآن سلاحًا أشد مضاءً من أغنيتهن، وأعني به صمتهن. ومع أنه من المسلم به أنّ شيئًا من هذا القبيل لم يحدث قط، إلا أنه لا يزال معقولًا أن شخصًا ربما أمكنه أن يفلت من غنائهن، لكن لم يفلت أحد قط من صمتهن بالتأكيد. وأمام إحساس المرء بالانتصار عليهن بقوته الجسدية وحدها، وما يستتبعه ذلك من مديح، يطرح كل ما أمامه أرضًا، لم يكن باستطاعة أي قوة أرضية أن تبقى كما هي بكل عنفوانها.

وعندما اقترب أوديسيوس منهن، لم تغن المغنيات القادرات بالفعل، سواء لأنهن كن قد حسبن أن هذا العدو كان في إمكانهن أن يقهرنه، فقط بصمتهن، أو

لأنّ مظهر الغبطة على وجه أوديسيوس الذي لم يكن في باله سوى حفنة الشمع وسوى قيوده، كان قد أنساهن الغناء.

لكن أوديسيوس، لو جاز للمرء التعبير بهذه الطريقة، لم يكن قد سمع صمتهن، كان قد ظن أنهن كن يغنين، وأنه وحده لم يكن قد سمعهن. كان، للحظة عابرة، قد رأى حناجرهن ترتفع وتهبط، وصدورهن تتعالى، وقد امتلأت عيونهن بالدموع، وشفاههن قد انفرجت إلى حد ما، لكنه كان قد اعتقد بأن هذه جميعًا كانت حركات مصاحبة للأنغام التي تلاشت حوله دون أن تُسمع. وسرعان ما تلاشى ذلك كله عن ناظريه مع ذلك، عندما ركز تحديقه على البعد. كانت الحوريات قد اختفت في مواجهة عزمه، ولم يعد يعلم عنهن شيئًا في اللحظة التي كن فيها أقرب ما كن إليه. لكنهن –وقد تبدين أجمل مما تبدين في أي وقت آخر- كنّ قد مددن أعناقهن، واستدرن، وتركن شعورهن الباردة ترفرف منطلقة في الهواء، وأنشبن مخالبهن في الصخور، وقد نسين كل شيء. لم تكن قد تبقت لديهن أي رغبة في الإغواء، كل ما كن يردنه هو أن يمسكن بذلك الضياء الذي كان يهبط عليهن من عيني أوديسيوس الواسعتين لأطول وقت ممكن.

فلو كان لدى الحوريات وعي، لكانت قد تمت إبادتهن في تلك اللحظة. إلا أنهن بقين كما كن، كل ما حدث هو أن أوديسيوس كان قد أفلت منهن.

وقد وصل إلى أيدينا أيضًا تذييلًا على ما سبق. فلقد قيل إن أوديسيوس كان مغرقًا في دهائه، كان هو ذلك الثعلب الذي لم تستطع حتى الآلهة أن تخترق درعه. ولعله كان قد لاحظ حقًا، على الرغم من أن الإدراك البشري لا يكون هنا في غور أعماقه، أن الحوريات كن صامتات، وأنه كان قد وجه تصنعه السالف ذكره إليهن وإلى الآلهة، فحسب كدرع من نوع ما.

ديوجين

يمكن للمرء في حالتي، أن يتخيل ثلاث دوائر، دائرة داخلية قصوى (أ) ثم (ب) ثم (ج).

النواة (أ) تشرح لـ (ب) لماذا يتعين على هذا الرجل أن يعذب نفسه ويسيء بها الظن؟ لماذا يجب عليه أن يتنازل؟ لماذا لا ينبغي له أن يعيش؟

(ألم يكن ديوجين مثلًا، مريضًا بهذا المعنى مرضًا عضالًا؟ من منا لم يكن ليشعر بالسعادة تحت نظرة الإسكندر المتألقة؟ لكن ديوجين ترجاه في هوس، أن يتحرك مبتعدًا، كي يخلي الطريق لضوء الشمس. كان ذلك البرميل ممتلئًا بالأشباح).

لم تقدم أي تفسيرات إلى (ج) الرجل الفعال، منزعجًا كان قد تلقى الأمر بذلك فقط بواسطة (ب)، إن (ج) يتعامل تحت أقصى الضغوط، لكنه يفعل بدافع من الخوف أكثر مما يتعامل بدافع من الفهم، إنه يثق، إنه يؤمن بأن (أ) يفسر كل شيء لـ (ب)، وأن (ب) قد فهم كل شيء على الوجه الصحيح.

الزنزانة

صحت في دهشة: «كيف جئت إلى هنا؟».

كانت قاعة فسيحة إلى حد معقول، مضاءة بضوء كهربائي هادئ، وكنت أسير على امتدادها، ملتصقًا بالجدران. ومع أنه كان هناك عدة أبواب -لو فتحها المرء لوجد نفسه واقفًا فحسب أمام وجه صخري معتم، أملس، لا يكاد يبتعد عن العتبة سوى بعرض اليد، ويمتد رأسيًا إلى أعلى، وأفقيًا على كلا الجانبين، بلا أي نهاية فيما يبدو- لم يكن ثمة مخرج من هنا.. فقط كان ثمة باب واحد، كان يؤدي إلى حجرة ملاصقة، وكان المتوقع هناك أكثر إثارة للأمل، لكنه لا يقل في إثارته للرعب عن ذلك الذي يكمن خلف الأبواب الأخرى؛ ذلك أن المرء يتطلع من خلاله إلى جناح ملكي، كانت الألوان السائدة فيه هما اللونان الأحمر والذهبي، وكانت هناك عدة مرايا، ترتفع حتى تبلغ السقف، وشمعدان بلّوري ضخم. لكن لم يكن هذا هو كل شيء.

لم يكن عليّ أن أعود ثانية من حيث أتيت، فالزنزانة تنفجر مفتوحة، أتحرك، وأتحسس جسدي.

اختراع الشيطان

لو تملكنا الشيطان، فلا يمكن أن يكون شيطانًا واحدًا هو الذي تملكنا؛ ذلك أننا سيتعين علينا أن نعيش، على الأقل هنا على الأرض في هدوء كما كنا نعيش مع الرب في وحدة، بلا تناقضات، بلا تأملات دائمًا متأكدين من ذلك الذي وراءنا، لن يرعبنا وجهه، ذلك أننا كمخلوقات شيطانية سنكون –حتى لو كنا حساسين إلى حد ما بالنسبة لمرآة- بارعين بما يكفي كي نفضل التضحية بإحدى يدينا، لنخفي بها وجهه. لو كان قد تملكنا شيطان واحد فقط، شيطان لديه معرفة ثابتة، غير مضطربة بطبيعتنا كلها، وكانت لديه الحرية في أن يتخلص منا في أي لحظة؛ فإن هذا الشيطان ستكون له عندئذ قوة كافية لأن يرفعنا في قبضته طوال حياتنا البشرية عاليًا فوق روح الرب التي بداخلنا، ويطوح بنا أيضًا -ونحن في قبضته تلك- إلى الأبد وإلى الخلف، وذلك حتى لا يتسنى لنا أن نلمح أي بصيص من تلك الروح، ولا نتعرض بهذا لأي انزعاج من تلك الناحية.

فقط حشد من الشياطين معًا هم الذين يمكنهم أن يكونوا علة لكل مصائبنا الأرضية. فلماذا لا يبيد أحدهم الآخر حتى يتبقى منهم شيطان واحد؟ لماذا لا يتبع كل شيطان من شياطين هذا الحشد كله شيطانًا عظيمًا واحدًا؟ على أن أي من هذين الطريقين إنما يتوافق مع المبدأ الشيطاني لتضليلنا على أكمل وجه ممكن. وبافتقارهم إلى الاتحاد، ما هي فائدة ذلك الانتباه المدقق الذي تبديه الشياطين كلها تجاهنا؟ ولا حاجة إلى القول إن سقوط شعرة من رأس إنسان إنما تعني الكثير عند الشيطان، ولا تكاد تعني شيئًا عند الرب، بما أن الشيطان هو الذي يخسر تلك الشعرة في الحقيقة، ولا يخسر الرب شيئًا. لكن ما دام كان الكثير من الشياطين يتلبسوننا، فلن يعيننا ذلك على بلوغ أي حالة من حالات

الخير.

***

المتوحشون

هؤلاء المتوحشون الذين يُروى عنهم أنهم لا أمنية لديهم سوى أن يموتوا، أو أنهم لم تعد لديهم هذه الأمنية حتى، لكن الموت هو الذي يتمناهم، وقد أسلموا أنفسهم لتلك الأمنية التي يتمناها الموت، أو أنهم حتى لم يستسلموا، لكنهم سقطوا على الشاطئ فوق الرمال، ولم ينهضوا -هؤلاء المتوحشون ما أشد شبهي بهم، وإنني ليحيطني في الحقيقة رجال القبيلة من كل الجوانب، إلا أن الاضطراب في هذه المناطق، اضطراب بالغ الشدة، والشغب كالأمواج يرتفع ويهبط طوال النهار وطوال الليل، ويترك الإخوة أنفسهم لتحملهم تلك الأمواج. إن ما يسمى في هذا البلد «مد يد المساعدة» إلى شخص ما، كل شخص هنا هو على استعداد دائمًا لأن يمد هذه اليد. إن أي شخص قد ينهار بلا سبب، ويبقى مطروحًا أرضًا، إنما يبعث الرعب وكأنه الشيطان، وهذا بسبب من القدوة، إنه بسبب نتن رائحة الحقيقة التي ستنبعث منه. فلو فرضنا أن شيئًا لن يحدث، فإن شخصًا، عشرة أشخاص، أمّة بأكملها قد تبقى هي أيضًا منطرحة أرضًا، ولن يحدث شيء، وسوف تجد الحياة طريقها بكل عنفوانها على أي حال. إن حجرات العلية عند قمم المنازل لا تزال مكتظة بالأعلام التي لم تنشر قط، وهذا الأرغن البرميلي لا يسعه أن يصدر سوى نغمة واحدة، لكنها الأبدية ذاتها هي التي تدير مقبضه. ومع ذلك يبقى الخوف! فإلى أي مدى يمضي الناس دائمًا يحملون بداخلهم أعداءهم الشخصيين، مهما كان العدو أعزل ضعيفًا.

***

النسر

كان نسر ينهش في قدميّ، وكان قد مزّق بالفعل حذائي وجوربي مزقًا، وكان قد أصبح ينهش الآن في قدميّ نفسيهما، كان ينقرهما المرّة بعد المرّة، ثم دار عدة دورات حولي في اضطراب، ثم عاد لكي يواصل عمله. ومرَّ أحد السادة وتطلع لفترة، ثم سألني لماذا تحملت ألم النسر؟ قلت: «لا حيلة لي، عندما جاء وبدأ يهاجمني، حاولت بالطبع أن أدفعه بعيدًا، وحاولت أن أخنقه بيدي، لكن هذه الحيوانات شديدة القوة، لقد كان على وشك أن يقفز إلى وجهي، لكنني فضلت أن أضحى بقدمي. والآن أصبحتا ممزقتين مزقًا».

قال السيد: «تصوّر أن تترك نفسك لتتعذب على هذا النحو! طلقة واحدة وستكون هي نهاية النسر».

قلت: «حقًا؟ وهل تفعل أنت ذلك؟».

قال السيد: «بكل سرور، عليّ فقط أن أذهب إلى منزلي وأحضر بندقيتي. هل يمكنك الانتظار نصف ساعة أخرى؟».

قلت: «لست واثقًا من ذلك»، ووقفت للحظة جامدًا بفعل الألم قلت: «حاول ذلك على أي حال، من فضلك».

قال السيد: «طيب، سوف أكون مسرعًا بقدر ما أستطيع».

خلال هذه المحادثة كان النسر يتسمع في هدوء، تاركًا عينه تبتعد ذهابًا وجيئة بيني وبين السيد. والآن تحققت من أنه قد أدرك كل شيء، فرفع جناحه ومال متراجعًا جدًا إلى الخلف كي يكتسب قوة دافعة كأنه رامٍ لرمح، وشق

منقاره عميقًا في فمي، عميقًا. وبينما كنت أتهاوى إلى الخلف، أفقت لأشعر به يغرق بلا رجعة في دمي الذي كان يميت كل عمق، ويفيض مغرقًا كل شاطئ.

***

الحيوان في المعبد

في معبدنا يعيش حيوان في حجم النمس، وباستطاعة المرء غالبًا أن يراه رؤية العين؛ لأنه يتيح للناس أن يقتربوا منه لمسافة مترين.

لونه أزرق مخضر حائل، لم يلمس أحد قط فروته حتى الآن، وعلى هذا فلا شيء يمكن أن يقال عنها، ويمكن للمرء على الأغلب أن يذهب إلى حد التأكيد بأن اللون الحقيقي لفرائه غير معروف، وربما كان اللون الذي يراه المرء قد نتج فقط عن التراب والطين اللذين أطفئا لون فروته. وإن اللون حقًا ليشبه لون طلاء المعبد من الداخل، وإن يكن فقط أفتح منه قليلًا. وبصرف النظر عن الجبن الذي يتصف به، فهو حيوان هادئ بصورة غير معتادة وذو عادات مستقرة، فلو لم يتعرض للإزعاج الزائد غالبًا، فإنه نادرًا ما كان ليتواجد في هذا المكان على الإطلاق؛ ذلك أن مأواه المفضل هو ذلك الحاجز المتشابك الذي يحجز قسم النساء.

وبمتعة بادية ينشب مخالبه في داخل عيون الشبك المشغول، متمددًا ومحدقًا بنظرته المطرقة إلى داخل القاعة الرئيسة، كان يبدو أن هذا الوضع الجريء يبعث فيه السرور، إلّا أن خادم المعبد كانت التعليمات قد وُجّهت إليه بألا يتغاضى عن وجود الحيوان عند الحاجز الشبكي، لأنه سوف يعتاد على المكان، ولا يمكن السماح بذلك؛ بسبب النساء الخائفات من الحيوان. أما لماذا هن خائفات، فهو سبب ليس واضحًا.

حقًا إنه للوهلة الأولى يبدو مخيفًا، وبصفة خاصة عنقه الطويل، ووجهه المثلث، وصفّ الأسنان العليا التي تبرز إلى الخارج بصورة تكاد تكون أفقية،

وفوق الشفة العليا خط من الشعيرات الشاحبة الطويلة البادية الخشونة التي تمتد إلى أبعد حتى من الأسنان -كل هذا قد يكون مخيفًا، إلّا أن المرء لا يستغرقه الوقت طويلًا حتى يدرك إلى أي حد لا يبدو هذا الرعب الظاهري كله مؤذيًا. وفوق هذا، فإنه يبقى مبتعدًا عن البشر، إنه أكثر فزعًا من حيوان الغابة، ويبدو أنه لا يرتبط فحسب سوى بالمبنى، ولا شك أن سوء طالعه الخاص قد تمثل في كون هذا المبنى هو معبد يهودي، أي أنه مكان يكون ممتلئًا أحيانًا بالناس. فلو كان قد أمكن فحسب أن يتواصل المرء مع الحيوان، لأمكنه بالطبع، أن يعزّيه بأن يخبره بأن شعب المعبد في مدينتنا الصغيرة هذه في الجبال يتضاءل عدده عامًا بعد عام، وأنه يواجه بالفعل صعوبة في توفير المال لصيانة المعبد.

وأنه ليس من المستحيل أن المعبد سيكون في الإمكان أن يتحول قبل وقت طويل إلى شونة للغلال، أو إلى شيء من هذا القبيل، وسيحصل عندئذ على السلام الذي يفتقده الآن بمرارة بالغة.

وللتأكيد، فإن النساء وحدهن هن الخائفات من الحيوان، فقد كفّ الرجال عن الاكتراث بأمره منذ وقت طويل، وهو ما بينه جيل للجيل الآخر، فلقد شوهد المرة بعد المرة، وبحلول ذلك الزمن لم يعد أي شخص يبدي اهتمامه بإلقاء نظره عليه، وحتى الأطفال، وإلى الآن وهم يرونه للمرة الأولى، لا يبدون أي دهشة. لقد أصبح هو ذلك الحيوان الذي ينتمي إلى المعبد -فلماذا لا يكون للمعبد حيوان أليف خاص به لا يوجد في أي مكان آخر؟ فلو لم يكن الأمر يتعلق بالنساء، ما كان المرء ليعي الآن مطلقًا وجود الحيوان بسهولة. لكن حتى النساء لسن خائفات حقًا من الحيوان، فسيكون الأمر بالغًا في الغرابة بالفعل إن واصل المرء خوفه

من مثل ذلك الحيوان يومًا بعد يوم، لسنوات ولعقود من السنين. وعذرهن هو أن الحيوان عادة أكثر قربًا منهن عنه من الرجال، وهذا حق. إن الحيوان لا يجرؤ على أن يهبط إلى حيث يتواجد الرجال، فهو لم يُرَ بعد حتى الآن فوق الأرضية. فلو كان قد تم منعه من بلوغ الحاجز الشبكي لمقصورة النساء، فإنه يريد عندئذ على الأقل أن يكون على نفس الارتفاع فوق الحائط المقابل، فهناك وفوق إفريز ضيق للغاية لا يكاد يبلغ البوصتين اتساعًا، ويمتد حول ثلاثة من جوانب المعبد اليهودي، كان الحيوان معتادًا في أحيان على أن يمرق منطلقًا جيئة وذهابًا، لكن غالبًا ما يجلس في هدوء متكورًا فوق بقعة معينة في مواجهة النساء. ويكاد يكون من غير المفهوم كيف استطاع بمثل هذه السهولة أن يتحايل لاستخدام هذا الممر الضيق. ومما تجدر ملاحظته رؤية الطريقة التي يستدير بها هناك فوق هذا الإفريز المرتفع عندما يبلغ نهايته، ذلك أنه فوق هذا كله، حيوان عجوز جدًا الآن، إلّا أنه لا يحجم عن الإتيان بقفزة بالغة الجرأة في الهواء، ولا هو حتى يفقد موقع قدمه قط، وبعد أن ينقلب في الهواء مستديرًا، يجري مرة أخرى مباشرة راجعًا من حيث جاء. بالطبع عندما شاهد المرء هذا مرات عديدة، كان المرء قد اكتفى برؤيته تلك له، ولم يعد ثمة ما يبرر أن يواصل المرء تطلعه إليه. كما أنه لم يكن الخوف، ولا الفضول، هو ما يدفع النساء إلى التململ، فلو كن ليصرفن انتباهن أكثر إلى صلواتهن، فربما أمكنهن أن ينسين كل ما يتعلق بالحيوان، إن النساء التقيات كن ليفعلن هذا لا شك، لو أن الأخريات، وهن الغالبية العظمى، تركنهن وشأنهن، إلّا أن هاته الأخريات يحببن دائمًا الانتباه إلى أنفسهن؛ ويوفر لهن الحيوان ذريعة يرحبن بها. فلو كن قد استطعن، ولو كن قد جرؤن، لكُنّ منذ زمن طويل قد أغوين الحيوان بأن يقترب منهن أكثر، عسى أن يرتعدن أكثر من ذي قبل. لكن لم يكن الحيوان في الحقيقة مشوقًا قط بأن يقربهن، فهو ما

دام تُرك لحاله، لا يلحظهن سوى ملاحظة قليلة للغاية، بالضبط بقدر ملاحظته للرجال، وربما كان أكثر ما يروق له هو أن يبقى مختبئًا في مكمنه حيث يعيش في الفترات التي تفصل بين أوقات أداء الشعائر، وهو ما قد يبدو في وضوح، فجوة ما في الجدار لم نعثر بعد على مكانها. وإنه ليظهر فقط عندما يبدأ أداء الصلوات، عندما تفاجئه الأصوات. فهل يريد أن يرى ما الذي حدث؟ هل يود أن يبقى متحفزًا؟ هل يريد أن يكون في خارج مكمنه، متأهبًا للرب؟ إنه ليخرج مرتعبًا، وإنه ليقفز قفزاته في رعب، ولا يجرؤ على الانسحاب إلا عندما تشرف الطقوس الدينية على نهايتها. وإنه ليفضل بالطبع أن يكون في مكانه المرتفع لأنه يراه أكثر الأماكن أمنًا، ويرى أن أفضل الأماكن التي تتيح له الانطلاق عدوًا هي الحاجز الشبكي والإفريز، إلا أنه لا يبقى دومًا هنالك، ففي أحيان أيضًا ما يهبط قدمًا نحو الرجال، فستارة تابوت العهد تتدلى من قضيب لامع من النحاس الأصفر، ويبدو أن ذلك كان يلفت انتباه الحيوان، فغالبًا ما يزحف نحوها، لكنه عندما يكون عندها فدائمًا ما يكون هادئًا، وحتى عندما يكون ملتصقًا تمامًا بالتابوت لا يمكن القول بأنه يسبب إزعاجًا ما، إنه يبدو محدقًا في حشد المصلين بعينيه اللامعتين اللتين لا تطرفان، واللتين ربما كانتا بلا جفون، لكنه بالتأكيد لا يكون عندئذ متطلعًا إلى أي شخص، إنه يكون حينئذ فحسب في مواجهة مع الأخطار، تلك الأخطار التي يحسها تتهدده.

وقد بدا في هذا المقام، حتى الآن على الأقل، أنه لا يزيد كثيرًا في الذكاء عن نسائنا، فأي أخطار تلك التي قد يخشاها، على أي حال؟

ومن ذا الذي يريد به أي ضرر؟ ألم يُترك تمامًا وشأنه لسنوات طويلة؟

إن الرجال لا يلقون بالًا لوجوده، وغالبية النساء قد يبتئسن لو قدر له أن

يختفي. وبما أنه كان هو الحيوان الوحيد في المبنى، فلم يكن له أي عدو من أي نوع. هذا شيء كان عليه حقًا أن يتداركه مع مرور السنوات. ومع أن الطقوس الدينية، بكل أصواتها، قد تكون مخيفة للحيوان للغاية، إلّا أنها طقوس تُكرر يوميًا، على نحو أبسط، وعلى نطاق أعظم خلال الأعياد، بانتظام دائمًا، وبلا انقطاع قط، وهكذا فإن أكثر الحيوانات جزعًا، كان يمكنه إلى الآن أن يكون قد اعتاد عليها، وخاصة عندما يرى أن هذه ليست ضوضاء المطاردين له، لكنها بعض الضوضاء التي لا يمكنه أن يفهمها على الإطلاق، إلا أنه يوجد مع ذلك هذا الرعب. فهل هي ذكرى أزمان طويلة ماضية؟ أو هي النذر لأزمان قادمة؟

هل يعرف هذا الحيوان العجوز ربما أكثر مما تعرف الأجيال الثلاثة لهؤلاء الذين تجمعوا معًا في المعبد اليهودي؟

قبل سنوات طويلة مضت، هكذا قيل، كانت ثمة محاولات قد تمت بالفعل لطرد الحيوان، ومن الممكن بالطبع أن يكون ما قيل قد حدث حقًا، إلّا أن ما يبدو أكثر احتمالًا هو أن هذه القصص كانت محض اختراعات.

وثمة شاهد بأنه في ذلك الوقت كان قد تم بحث مسألة ما إذا كان من الممكن التغاضي عن وجود مثل هذا الحيوان في بيت الرب، ومن وجهة نظر قانون الوصايا. وكان قد تم استطلاع آراء أحبار عديدين مشهورين، وقد انقسمت الآراء، وكانت الأغلبية مع طرد الحيوان وإعادة تكريس بيت الرب. لكن كان من السهل أن تصدر مراسيم من على البعد، أما في الواقع فكان مستحيلًا ببساطة مجرد الإمساك بالحيوان، ومن ثم كان من المستحيل أيضًا طرده نهائيًا إلى الخارج؛ ذلك أنه لو كان شخص ما قد استطاع فقط الإمساك به، ومن ثم أخذه بعيدًا إلى مسافة نائية، فهل كان باستطاعته أن يكون قد حصل على شيء يقارب اليقين

بتخلصه منه.

وكانت قد تمّت حقًا محاولات قبل سنوات طويلة مضت، هكذا قيل، لطرد الحيوان. ويقول خادم المعبد اليهودي إنه يتذكر كيف كان جده، الذي هو أيضًا خادمًا للمعبد قد أحب سرد القصة. كان جده عندما كان صبيًا صغيرًا قد استمع عديدًا من المرات إلى حديث عن استحالة التخلص من الحيوان، ولهذا فإنه وهو يتحرق شوقًا، ولأنه متسلق ممتاز قد تسلل إلى الداخل ذات صباح مشرق، عندما كان المعبد كله بكل أركانه وشقوقه معرضًا لضوء الشمس، ومعه حبل ومرجام، وعصا ذات مقبض معقوف.

***

الرسل

كانوا قد خُيّروا بين أن يصبحوا ملوكًا، أو رسلًا للملوك. وعلى النحو الذي قد يتبعه الأطفال، كانوا قد أرادوا جميعًا أن يصبحوا رسلًا. وعلى هذا فهناك - فحسب- رسل يهرعون في كل أنحاء العالم، يهتفون لبعضهم البعض –بما أنه لا يوجد ملوك- برسائل كانت قد فقدت معناها. إنهم يودون أن يضعوا حدًا لحياتهم البائسة هذه، إلّا أنهم لا يجرؤون على ذلك؛ لأنهم كانوا قد حلفوا أيمان الخدمة.

***

لعبة صبر

كانت توجد ذات مرة «لعبة صبر» صينية، دمية بسيطة، رخيصة لا يزيد حجمها على حجم ساعة جيب، ولا تحتوي على أي نوع من أنواع الاختراع المدهشة. دمية محفورة في الخشب المسطح، المطلي باللون البني المائل إلى الحمرة، وكان بها ممرات زرقاء كالمتاهات تؤدي كلها إلى فجوة صغيرة، وكانت الكرة التي كانت زرقاء هي أيضًا، يتعين عليها أن تصل إلى أحد الممرات بواسطة إمالة الصندوق وهزه، ثم الوصول بها إلى الفجوة، وعندما تصل الكرة إلى الفجوة، تكون اللعبة قد انتهت. وإذا أراد المرء أن يبدأ اللعبة كلها من جديد، فإن عليه أولًا أن يهز الكرة ليخرجها من الفجوة. وكانت الدمية مغطاة كلها تمامًا بغطاء من الزجاج المتين المحدب، وكان في مقدور المرء أن يضع اللعبة في جيبه، ويحملها معه حيثما شاء، وفي أي مكان يوجد فيه، كان باستطاعة المرء أن يخرجها ويلعب بها.

فإذا لم تكن الكرة موجهة في حركتها، فهي تظل أغلب الوقت تتجول هنا وهناك، ويداها معقودتين خلف ظهرها فوق الهضبة، متجنبة الممرات. وقد لفت النظر أنها كانت مشغولة انشغالًا كافيًا تمامًا بالممرات في أثناء اللعبة، وأنه كان لها كل الحق في أن تسترد قوتها فوق السهل المكشوف عندما لا تكون هناك لعبة تقوم الدمية بأدائها. وأحيانًا قد تتطلع الكرة إلى الزجاج المحدب، لكن بدافع العادة فحسب ودون أي نية بالمرة لمحاولة اكتشاف أي شيء هناك في أعلى. إن لها على عكس ذلك مشية واسعة الخطى، وتتظاهر بأنها لم تكن قد صُنعت للسير في هذه الممرات الضيقة. ولقد كان هذا صحيحًا في جانب منه، ذلك أن الممرات حقًا لم تكن تكاد تحتويها، إلا أنه كان أيضًا غير صحيح؛ ذلك لأنها كانت

في الحقيقة قد تم صنعها بعناية لكي تتفق تمامًا مع عرض الممرات، لكن الممرات بالتأكيد لم تكن قد قُصد بها أن تكون مريحة لها، وإلّا لما كانت قد أصبحت لعبة صبر على الإطلاق.

***

بروميثيوس

ثمة أساطير أربع تتعلق ببروميثيوس.

فلقد كان، تبعًا للأسطورة الأولى، موثوقًا إلى صخرة في القوقاز؛ لإفشائه أسرار الآلهة لبني الإنسان، وأرسلت الآلهة عقبانًا تنهش كبده، الذي كان يتجدد على الدوام.

وتبعًا للثانية، ضغط بروميثيوس نفسه، بدافع من الألم الذي يسببه نهش المناقير، عميقًا، عميقًا في داخل الصخرة، حتى أصبح هو والصخرة شيئًا واحدًا.

وتبعًا للثالثة، تم نسيان خيانته بمرور الآلاف من السنين. نسيت الآلهة، والعقبان نسيت، وهو نفسه نسي.

وتبعًا للرابعة، سئم كل امرئ ذلك الأمر الذي لا معنى له، سئمته الآلهة، وسئمته العقبان، واندمل الجرح في سأم، وبقيت هناك كتلة الصخر الغامضة التي لا تفسير لها –حاولت الأسطورة أن تفسر ما لا تفسير له. ولما كان ذلك الغموض قد صدر عن إحدى طبقات الحقيقة التحتية، فقد كان عليه لهذا أن ينتهي بدوره إلى ما لا تفسير له.

بناء المعبد

خفّ كل شيء لمساعدته أثناء العمل في البناء. أحضر العمال الأجانب كتل الرخام مصقولة التشكيل، تتوافق كل كتلة في التركيب مع الأخرى وارتفعت الأحجار، واتخذت مواضعها تبعًا لتحركات القياس التي اتخذتها أصابعه. لم يحدث قط أن تواجد أي مبنى بمثل السهولة التي خرج بها ذلك المعبد إلى الوجود –أو على الأصح، أن هذا المعبد قد خرج إلى حيز الوجود على النحو الذي ينبغي لمعبد أن يخرج به إلى الوجود. وحتى لا تنصبُّ عليه نقمة ما، أو أن يتدنس، أو يتحطم كلية، كانت أدوات تتميز في وضوح بحدتها الفائقة، قد تم استخدامها في خدش شخبطات خرقاء على كل حجر- من أي محجر جاءت هذه الأحجار؟ -بأيدي أطفال غير واعين، أو الأرجح تدوينات للبرابرة قاطني الجبل، وذلك كي تدوم أبدية تتجاوز وجود المعبد.

***

جبل سيناء

يتجول الكثيرون حول جبل سيناء، حديثهم مشوش، فهم إما يثرثرون وإما يصيحون، أو يظلون صامتين. إلّا أن أحدًا منهم لم يحضر مباشرة عبر طريق عريض، ممهد حديثًا، طريق أملس يقوم بدوره في جعل خطى المرء واسعة، وأكثر سرعة.

***

الأشدُّ شراهة

أشدُّ الناس شراهة هم بعض نُسّاك بعينهم، يقومون بإضراب الجوع في كل مجالات الحياة، ظانين أنهم بهذا سوف ينجزون تلقائيًا ما يلي:

1- سيقول صوت ما: كفى، لقد جعتم بما فيه الكفاية، ولعلكم تأكلون الآن كما يأكل الآخرون، ولن يحسب ذلك عليكم على أنه أكل.

2- وسيقول الصوت نفسه في نفس الوقت: لقد جعتم طوال هذا الوقت كله تحت الإكراه، ومن الآن فصاعدًا، سوف تجوعون بابتهاج، وسيكون ذلك أحلى من الطعام (وفي الوقت نفسه، مع ذلك، سوف تأكلون بالفعل أيضًا).

3- وسيقول نفس الصوت في نفس الوقت: لقد هزمتم العالم، وأنا أعفيكم من ذلك، كما أعفيكم من الأكل، ومن الجوع (وفي نفس الوقت، مع ذلك، سوف تجوعون وتأكلون في وقت معًا).

ويجيء، بالإضافة إلى هذا أيضًا، صوت كان يتحدث إليهم بلا انقطاع طوال الوقت ليقول:

مع أنكم لم تجوعوا جوعًا كاملًا، فإن لديكم العزيمة الجيدة؛ وهي تكفي.

غايتي

أصدرت أوامري بإحضار جوادي من الإسطبل إلى هنا. لم يفهمني الخادم. ذهبت بنفسي إلى الإسطبل، وأسرجت جوادي، واعتليت صهوته. وعلى البعد سمعت نداء نفير. فسألته ماذا كان معنى ذلك؟ لم يكن يعرف شيئًا، ولم يكن قد سمع شيئًا.

وعند البوابة استوقفني، متسائلًا:

- «إلى أين تركب يا سيدي؟».

قلت: «لست أدري، فقط بعيدًا عن هنا، بعيدًا عن هنا، دائمًا بعيدًا عن هنا، فإن أفعل ذلك وحده فحسب، أكن قد بلغت غايتي».

تساءل: «وعلى هذا فأنت تعرف غايتك؟».

أجبت: «نعم، ألم أقل لك؟ (بعيدًا –عن- هنا)، هذه هي غايتي».

قال: «لكنك لم تتزوَّد بزاد لرحلتك».

قلت: «لا أحتاج لأي زاد، إن الرحلة بالغة الطول حتى إنني لا بد لي من الموت جوعًا إن لم أحصل على أي شيء، على الطريق، ولا يمكن لأي زاد أن ينقذني. ذلك أنها، لحسن الحظ، رحلة ممتدة حقًّا».

روبنسون كروزو

لو لم يكن روبنسون كروزو قد غادر مطلقًا أعالي، أو على نحو أكثر دقة، أكثر الأماكن في جزيرته وضوحًا للرؤية؛ لرغبته في الراحة، أو بسبب من الجبن، أو الخوف أو الجهل أو الشوق، لكان قد هلك في الحال، لكن ما دام أنه، دون أن يلقي أدنى انتباه للسفن المارة وأجهزة تليسكوباتها الضعيفة، قد شرع في استكشاف الجزيرة بأكملها، واستمتع بذلك الاكتشاف، فقد تمكن بهذا من أن يبقي على حياته، وأمكن العثور عليه في النهاية، وفوق كل شيء، من خلال سلسلة من المصادفات التي كانت بالطبع محتومة منطقيًا.

***

النبع

هو عطشان، وتفصله عن أحد الينابيع أجمة فقط من أعشاب. إلّا أنه منقسم على نفسه: يشرف أحد قسميه على كل شيء ويرى أنه يقف هنا، وأن النبع يتواجد تمامًا إلى جواره، لكن قسمًا آخر لا يلحظ شيئًا، ولديه على الأغلب حذس بأن القسم الأول يرى كل شيء. لكنه بما أنه هو لا يلحظ شيئًا، فهو لا يستطيع أن يشرب.

***

حقيقة سانشوبانزا

شق سانشوبانزا طريقه على مر السنين، دون أي تفاخر منه بذلك، من خلال التهامه عددًا كبيرًا من روايات الفروسية والمغامرات في ساعات المساء والليل منحّيًا عن نفسه بها شيطانه ذاك الذي أطلق هو عليه فيما بعد اسم دون كيخوته. فإن كان شيطانه قد شرع في تلك الأثناء، بكامل حريته، في تحقيق أشد المآثر جنونًا، فهو لم يسبب بها ضررًا لأحد، مع ذلك، لافتقاده إلى الهدف المحدد مسبقًا، ذلك الهدف الذي كان لا بد له أن يكون هو سانشوبانزا نفسه.

وكرجل حر، كان سانشوبانزا قد تبع دون كيخوته فلسفيًا، في غزواته، ربما بدافع من إحساسه بالمسؤولية، ولقد حصل منها على تسلية تثقيفية هائلة، لازمته إلى نهاية أيام حياته.

***

الحارس

عدوت مارًا بالحارس الأوّل، وكنت مرتعبًا عندئذ، فعدت ثانية عدوًا، وقلت للحارس:

- «لقد عبرت هذا المكان عدوًا، بينما كنت أنت تتطلع إلى الطريق الآخر».

فتطلع الحارس أمامه محدقًا، ولم يقل شيئًا.

قلت: «أظن أنني لم يكن ينبغي علي حقًا أن أفعل ذلك».

وبقي الحارس لا يقول شيئًا.

قلت: «هل يشير صمتك إلى التصريح لي بالمرور؟».

***

الفهود في المعبد

اقتحمت الفهود المعبد، وجرعت الثمالات التي في جرار القرابين، وتكرر هذا المرة بعد المرة، ليمكن في النهاية تقدير حساب ذلك مقدمًا، ويصبح هذا التقدير جزءًا من الشعائر.

***

الإسكندر الأكبر

معقول أنّ الإسكندر الأكبر، على الرغم من نجاحاته الحربية في أيامه المبكرة، وعلى الرغم من الجيش الممتاز الذي كان قد قام بتدريبه، وعلى الرغم من القوة التي أحسسها بداخله تدفعه لكي يغير العالم، ربما كان قد ظل واقفًا على شاطئ الدردنيل، فلم يعبره قط، لا بسبب من الخوف، ولا لنقص في العزيمة، ولا بسبب من ضعف الإرادة، بل لمجرد ثقل وزن جسمه.

***

الحوريات

هذه هي أصوات الليل المغوية، ولقد غنت الحوريات أيضًا على هذا النحو. وإن المرء ليظلمهن عندما يظن أنهن أردن أن يمارسن الإغواء، كُنَّ يعرفن أن لهن براثن، وأرحامًا عاقرة، وكُنَّ لذلك قد رفعن أصواتهن نائحات، ولم تكن لهن حيلة، إن كان نواحهن قد تناهى إلى الأسماع عذبًا كل هذه العذوبة.

***

الإمبراطور

انتاب رجل ما شك في أن الإمبراطور قد انحدر عن الآلهة، ولقد أكد على أن الإمبراطور هو عاهلنا الأعلى بحق، وهو لم يتشكك في رسالة الإمبراطور المقدسة؛ فلقد كانت هذه الرسالة واضحة له، كان النسب الإلهي فقط هو ما تشكك في صحته. ولم يثر تشككه هذا بالطبع حركة زائدة، فعندما تقذف الأمواج بقطرة ماء إلى الأرض، فلا تأثير لهذا على تقلب البحر الأبدي، بل إنه يكون على العكس، إنما حدث بسبب من هذا التقلب.

***

التنين الأخضر

انفتح الباب، وكان ما دخل إلى الحجرة، سمينًا غضًّا، جانباه منتفخان في تضخم، بلا أقدام، يدفع نفسه إلى الأمام على بطنه كله، هو التنين الأخضر. وبعد تبادل التحيات الرسمية، طلبت منه أن يدخل. وأسف على أنه لا يمكنه أن يفعل ذلك؛ لأنه كان بالغ الطول، وكان هذا يعني ضرورة أن يبقى الباب مفتوحًا، وهو ما كان يعد أمرًا أخرق على نحو ما.

ابتسم في شيء من الارتياك، وشيء من الخبث، وبدأ يقول:

«جئت وقد اجتذبتني إلى هنا أمنيتك. أدفع نفسي مباشرة من بعد قصي، وقد كشطت بطني الآن إلى حد مؤلم للغاية، غير أنني سعيد لأنني جئت. لقد جئت سعيدًا، وسعيدًا أهب نفسي لك».

* * *

Telegram:@mbooks90

النمر

كان قد أحضر نمر ذات مرات إلى مروِّض الوحوش المشهور بورسون؛ لكي يبدي رأيه في إمكان ترويض الحيوان، وتم دفع القفص الصغير الذي يحتوي الحيوان بداخله إلى داخل قفص الترويض، الذي كانت له أبعاد قاعة من القاعات العامة، وقد كان في معسكر ريفي كبير على مسافة بعيدة خارج المدينة. وتراجع المساعدون؛ كان بورسون يرغب دائمًا في أن يكون بمفرده تمامًا مع حيوان ما عند مواجهته له لأول مرة. استلقى النمر هادئًا، وكان قد تمّ إطعامه للتو في سخاء. تثاءب قليلًا، وتفرس ملولًا في محيطه الجديد، واستغرق في النوم فورًا.

***

عن الأمثولات

يتشكى الكثيرون من أن أقوال الحكماء هي دائمًا مجرد أمثولات وغير ما ذات نفع في الحياة اليومية، وهي الحياة الوحيدة التي نملكها. فعندما يقول الحكيم: «امض قدمًا» لا يعني بهذا القول أن على المرء أن يعبر الطريق إلى مكان ما موجود حقًّا، وهو ما يسعى المرء أن يفعله على أي حال، لو كان ثمة ما يستحق الجهد، بل هو يعني بقوله ذلك مكانًا خرافيًا ما، موقعه مجهولًا لنا، ولا يمكنه، علاوة على ذلك، أن يعينه لنا على نحو أكثر تحديدًا، ولا يسعه لهذا أن يقدم لنا العون في هذا الصدد مطلقًا.

لقد انبثقت كل هذه الأمثولات لتقول لنا فحسب إن كل ما لا يمكن إدراكه، لا يمكن إدراكه، وإننا لنعلم ذلك بالفعل.

إلا أن همومنا التي علينا أن نصارعها كل يوم.. شواغلنا هذه هي أمر آخر.

وفي هذا الشأن قال أحدهم ذات مرة: «لماذا هذا التقاعس؟ إنكم إن اتبعتم الأمثولات فحسب، لأصبحتم أنتم أنفسكم أمثولات، وبهذا تتخلصون من كل همومكم اليومية.

وقال آخر: أراهن على أن هذه أمثولة هي أيضًا.

فقال له الأول: لقد ربحت الرهان.

قال الآخر: لكنني، لسوء الحظ، قد ربحته فقط في أمثولة.

فأجابه الأول: «لا، بل ربحته في الواقع الفعلي؛ لأنك خسرت الأمثولة».

الاختبار

أنا خادم، لكن لا يوجد لي أي عمل، إنني جبان ولا أدفع بنفسي إلى المقدمة، إنني حقًا لا أدفع بنفسي للوقوف في صف الآخرين، إلا أن هذا سبب واحد فقط من أسباب كوني عاطلًا، ومن الممكن حتى ألا يكون لهذا السبب أي صلة بكوني عاطلًا. وعلى كل حال، فالشيء الأساسي هو أنني لم أُستدعَ لكي أقوم بالخدمة، لقد تم استدعاء آخرين، إلا أنهم لم يبذلوا جهدًا في المحاولة يفوق ما بذلته، وربما لا يكونون في الحقيقة قد أحسوا بالرغبة في أن يتم استدعاؤهم، بينما أحسست أنا بها، أحيانًا على الأقل قوية جدًا.

وهكذا أستلقي فوق البرش، في قاعة الخدم، أحدق في عوارض السقف الخشبية، وأستغرق في النوم، وأستيقظ من نومي لأستغرق من فوري ثانية في النوم، وأحيانًا ما أذهب إلى الحانة حيث يقدمون البيرة القوية، وكنت في أحيان أفرغ الكأس في تقزز على الأرض، لكنني كنت أشربها في أحيان أخرى. أحب الجلوس هناك لأنني من خلف النافذة الصغيرة المغلقة، من دون أي احتمال لاكتشاف أمري، كان في وسعي من خلالها أن أعبر بنظري إلى نوافذ منزلنا؛ لا لأن المرء يري الكثير جدًا هناك، فحسب معلوماتي كانت نوافذ الممرات فقط هي التي تطل على الشارع، وعلاوة على ذلك، لم تكن تلك تؤدي إلى شقق من يستخدمونني.

لكن من الممكن أيضًا أن أكون مخطئًا، فقد كان شخصًا ما، دون أن أبادره أنا بالسؤال، قد قال لي ذلك ذات مرة، وكان الانطباع العام لواجهة هذا المنزل يؤكد ذلك، فإن فتحها يتم بواسطة خادم قد ينحني على الدرابزين؛ لكي يتطلع إلى

أسفل لبعض الوقت، ويترتب على هذا أن هذه ليست سوى ممرات لا يمكن أن يفاجئه فيها أحد، عندئذ وفي الحقيقة فإنني لست شخصيًا على معرفة بهؤلاء الخدم، فهؤلاء الذين هم مستخدمون بصفة دائمة في الطابق الأعلى، ينامون في مكان آخر غير الحجرة التي أنام فيها!

Telegram:@mbooks90

ذات مرة عندما بلغت الحانة، كان أحد الزبائن يجلس في مكان مرتفع، ثم أجرؤ على التطلع إليه عن كثب، وكنت على وشك أن أستدير في مدخل الباب وأغادر المكان.. ومع ذلك ناداني الزبون، واتضح أنه كان خادمًا هو أيضًا كنت قد رأيته ذات مرة من قبل في مكان ما، لكن دون أن أتحدث إليه.

لماذا تريد أن تهرب؟ اجلس وتناول شرابًا! سوف أدفع لك! ولهذا جلست. سألني عن أشياء عدة، لكنني لم أستطع الإجابة حقًّا، لم أكن حتى قد فهمت أسئلته، لهذا قلت ربما كنت آسفًا الآن على أنك دعوتني، ولهذا فمن الأفضل أن أذهب. كنت على وشك أن أنهض من مكاني إلا أنه مد يده فوق المائدة وضغط علي كي أجلس. قال: ابق؛ لقد كان هذا فحسب اختبارًا. إن من لا يجيب عن الأسئلة يكون قد اجتاز الاختبار.

* * *

انتهى